

مِنَ الْخَصَائِصِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْبَعْرِثَةِ

فِي

أَسْبَابِ الْحَرَكَةِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْبَعْرِثَةِ

تَأَلَّفَ

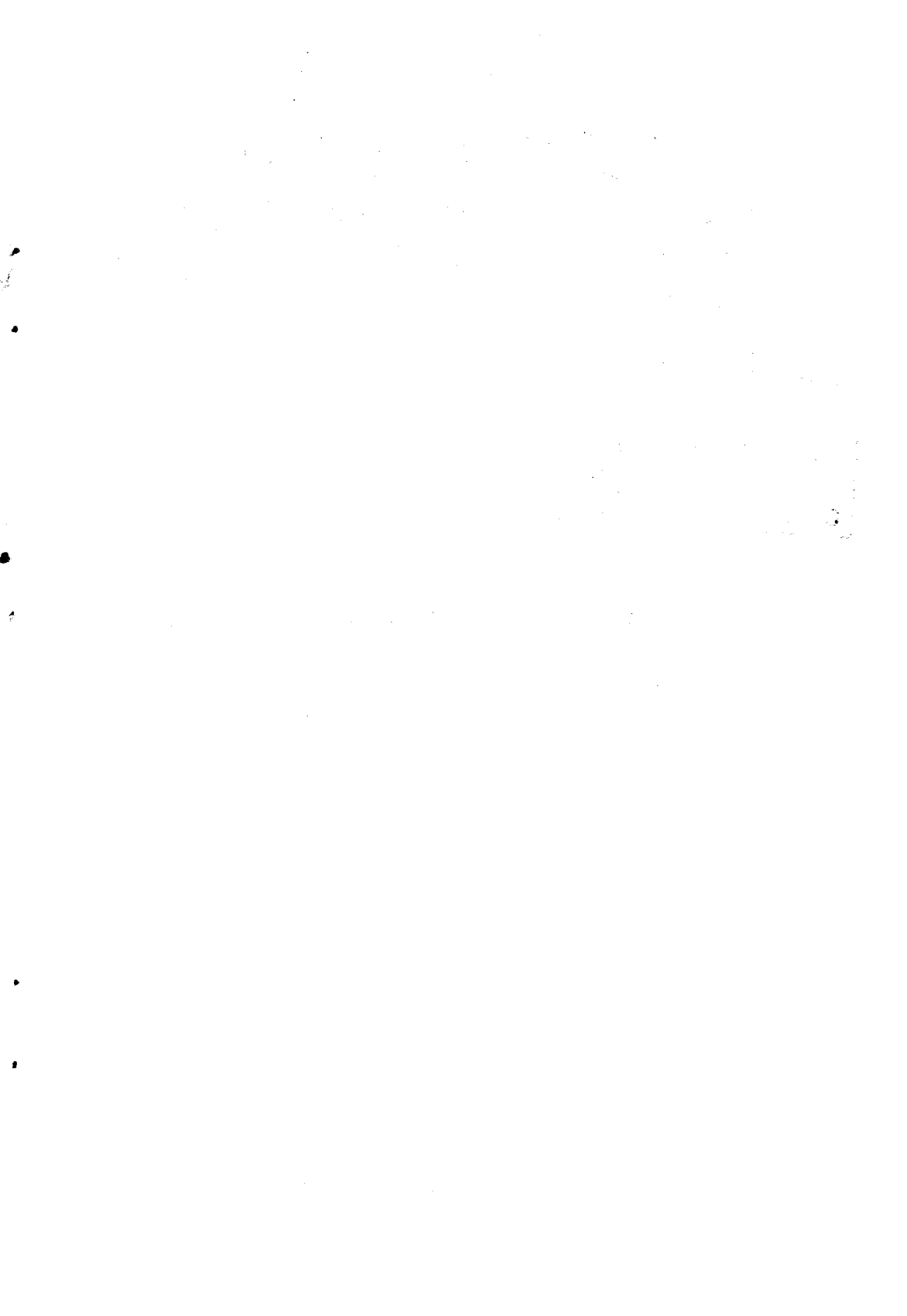
الدُّكْتُورُ فَيْحَةُ مُحَمَّدٍ فِيضُ الْعَقْدَةِ

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الأمانة

٤ شارع جنديرة بدران شبراخيت - مصر



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ،

فقد شغل الحديث النبوي الشريف كثيرا من العلماء والمفكرين منذ طرقت كلمات النبي ﷺ الأذان وأثرت في العقول والنفوس ، فأخذوا يتأملون هذا الأسلوب المميز لينهلوا من مضامينه الدينية ، وجوانبه البلاغية ما لا حصر له .

ولقد شهد البحث العلمي منذ خطواته الأولى جهودا مكثفة للعناية بالحديث النبوي الشريف درسا وتحليلا وتحصيلا ، اتجهت في جانب كبير منها الى ايضاح ما يتضمنه من القضايا الدينية ، وما يحتويه من الآداب الخلقية السامية ، كما اتجهت في جانب آخر يعضد هذا الجانب الى ابراز بعض الجوانب البلاغية التي يتسم بها أسلوب النبي ﷺ .

ولئن كان الجانب الأول قد حظى بالنصيب الأوفى من الدرس والبحث ، فان الجانب الثاني لم يحظ الا بمجموعة من المحاولات التي جاء معظمها متناثرا ضمن بعض المباحث البلاغية والأدبية غير المتخصصة كما هو الحال عند ابن رشيق في كتابه النعمدة حيث أورد بعض الأحاديث وعلق على ما لاحظته فيها من جوانب تتصل بما يعالجه في كتابه من القضايا .

وكما فعل بعض علماء البلاغة الذين بذلوا جهودا مكثفة لايضاح أسس وأبواب البلاغة العربية ووضحين الفروق بينها بالتحليل والشرح

والتمثيل ، كما فعل عبد القاهر الجرجاني صاحب أسرار البلاغة ،  
ودلائل الاعجاز •

وان كان هناك من دراسات متخصصة فى هذا المجال فهى تمثيلية  
قلة ظاهرة حيث لا يستطيع اندارس أن يقف منها الا على عدد محدود  
مختلف المنهج والطابع مثل كتاب « المجازات النبوية » للشريف الرضى  
الذى جمع فيه مجموعة كبيرة من أحاديث النبى ﷺ يربط بينها وجود  
أنماط متنوعة من البلاغة ، ولكنه ذكرها واحدا تلو الآخر بادئا بذكر كل  
حديث شريف ثم معلقا عليه تعليقا يمثل ما لاحظته فيه من وجوه البلاغة  
مجملا تارة ومفصلا تارة أخرى •

والى جانب ذلك وجدت بعض الدراسات الحديثة التى تمثل جهود  
بعض الباحثين والعلماء المحدثين الذين يتناول بعضهم الحديث النبوى  
الشريف بالدرس والتحليل اللغوى والبلاغى القائم على شرح ما يتضمنه  
الحديث من ألفاظ اللغة وجوانبها ، ثم ايضاح ما به من وجوه البلاغة  
وأسرارها وما يتضمنه من قضايا دينية وما يدور حوله من المعانى  
المتعلقة بها •

ويتناول بعض آخر الحديث النبوى من جوانبه البلاغية من خلال  
تتبع هذه الجوانب تتبعا بلاغيا بالتحليل والنقد أو تتبعا أدبيا يربط من  
خلاله الظاهرة بمجموعة من الأمثلة التى توضحها ثم مجملا التعليق عليها  
اجمالا عاما •

ولقد رأيت أن أضم الى هذه الجهود السابقة جهدا لعله يضيف  
اليها جانبا جديدا من خلال دراسة قائمة على بحث الخصائص البلاغية  
واللغوية لأسلوب الحديث النبوى الشريف بحثا عما اجتمع فى هذا  
الأسلوب من أسباب ووسائل متنوعة بتنوع مجالات التعبير ، ومحقة

لغاياته وقيمه وأسرار سموه ، وما يتميز به من قوة التأثير والاقناع  
والقدرة على المعالجة ، وكيفية جميع ذلك ووسائله ، وسبله المتعددة .

ولقد اتجهت فى ذلك - كما سيرد تفصيله ان شاء الله تعالى -  
الى جانبى الأسلوب « اللغوى والبلاغى » فى اطار دراسة تحليلية  
تأملية باحثة مدى مساهمة كليهما فى خدمة الآخر من جهة ، ومدى  
التقاءهما لتحقيق خصائص الأساوب المتنوعة التى ستتضح فى كل  
موضع من مواضع هذه الدراسة - ان شاء الله تعالى - من جهة ثانية .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعله عملا صالحا مقبولا دائما  
النفى .

والله ولى التوفيق والسداد .

د . فتحية محمود فرج العقدة

٢١ سبتمبر ١٩٩٣ م  
٤ ربيع الثانى ١٤١٤ هـ

## التمهيد

عنيت الدراسات النقدية والبلاغية بقضايا الأسلوب وما يتعلق به من وسائل التعبير وغاياته ، وما يتصل بذلك من اتجاهات وآراء وأنماط .

وكانت العناية بوسائل التعبير ومكوناته من أبرز هذه القضايا حيث شغلت الأذهان بما ترد عليه من أشكال أسلوبية متنوعة ، وما ينطوي عليه كل منها من المعانى والأغراض .

كما كانت العناية ببحث مقاييس التعبير وضوابطه ، معايير حسنة وقبحه ، جودته وردائه ، من أبرز ما شغل العقول ، وتطلب البحث والدرس ، فتعددت فيه الاتجاهات ، وتنوعت الآراء والمذاهب .

وإذا كانت الدراسات النقدية والبلاغية قد اتخذت طابعين بارزين مستقلين من بعض الجوانب التي شكلت طابع البحث والدرس في كليهما، فإن ضرورة التقائهما وترابطهما ظلت ضرورة ملحة تهدف الى تأكيد التكامل بينهما ، تحقيقاً لعناية تعميق انظرة التحليلية للنصوص ، وسبر غور جميع عناصرها ، ومحاولة بحث أسرار تكوينها وتميزها ، وما تنطوي عليه من قدرات فنية واتجاهات فكرية .

ذلك أن المجالين النقدي والبلاغي انما يتعاملان مع شيء واحد ، ألا وهو « الأسلوب » بما ينطوي عليه من جوانب بلاغية ونقدية ، تسعى جميعها الى تحقيق غايانه ، وتنطوي في مجملها على ما يحققه من درجة الجودة ، وأسباب التميز ، وتتصل بما يضاف عليه طابعا خاصا من القوة والعمق ، أو الضعف والسطحية وغير ذلك مما يمكن أن نطلق عليه في مجمله « خصائص الأسلوب » .

وحيث يؤخذ الأسلوب مأخذ الدرس والتحليل بلاغيا ونقديا فإنه يتم التعامل معه من منطلق واحد ، هو كونه وسيلة تعبيرية متكاملة يتم عبرها نقل فكر المتكلم وغرضه الى المتلقى في اطار جامع للكثير من السمات والخصائص المتصلة باتجاهات المتكلم ، وفكره ، وانفعالاته ، ومشاعره ، وذوقه ، وقدرته على التعبير ، وما يمتلكه من قدرات لغوية ، ووسائل بيانية وخيالية ، وكذلك علاقاته بالأشياء من حواه سلبا وايجابا مما يشكل في مجموعه نمطا أسلوبيا خاصا بذلك المتكلم .

لذا كان من الضروري - حتى يصل الأسلوب الى مستوى تعبيرى دقيق - أن يراعى المتكلم طبيعة الموقف الذى يعبر عنه ، ويفطن الى ما يناسبه من الألفاظ من جهة ، كما ينظر الى تلك الألفاظ التى يكون منها أسلوبه من جهة أخرى فيختارها اختيارا دقيقا ، ويرتبها ترتيبا تحقق من خلاله القدرة على أداء غرضه ، ويراعى أحوال المتلقين فكريا ونفسيا ليؤتى أسلوبه ثماره فيديم فيقنعهم بفوائده ، ويوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه مراعى فى ذلك تفاوت قدراتهم عقليا ونفسيا ، فهما وشعورا .

ومن النقاد والبلاغيين من عنى بالتنبيه الى ركيزة الأسلوب التى يتخذ منها مادته ويشك منها مظهره وجوهره وهى الألفاظ .

فهناك من ذهب الى أن «أحد الأصول فى حسنه - أى الأسلوب - وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازا - وضعا - لا ينكره الاستعمال ولا يبعد فيه» (١) .

وهناك من عنى بعلاقة اللفظ بالمعنى وصلة ذلك بنجاح التعبير وحسنه وقوة تمكنه وعمقه ذاهبا الى « أن الكلام لا يستحق اسم

البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك « (٢) » .

ومن المعلوم أن هذه القضية قد شغلت العلماء والباحثين مستغرقة الكثير من الوقت والجهد والصراع بين الآراء المتضادة ، ومحاولات التوفيق بين بعض الاتجاهات المتقاربة ، واستخلاص الأسس التي تحقق أصولاً ثابتة لا خلاف حولها .

ومن جانب آخر نجد التطور اللغوي يحتل جانباً من جهود هؤلاء العلماء الذين أدركوا ما يطرأ على ألفاظ اللغة من تطور وفق تطور الاستعمال ومجالاته مما ينشأ عنه تغير معاني بعض الألفاظ من عصر الى عصر كما هو الحال في العصرين الجاهلي والإسلامي (٣) .

أما بالنسبة لما يتعلق باللفظ من الطاقات الصوتية التي يعول عليها في العديد من مجالات الإيقاع والتأثير ، وما يلازمهما من جوانب دلالية وأشارية ، فذلك من أهم الجوانب التي يمكن القول بأنها تمثل إحدى الركائز التي يبنى عليها الكثير من الخصائص الأسلوبية .

ولقد أشار البعض الى طرف من مظاهر ذلك حيث رأى أن الأصوات « تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر » (٤) ، وأن الألفاظ المتقاربة جرساً - كما هو الحال في التجنيس مثلاً - لا بد أن ترد على شاكلة مخصوصة بحيث تحقق قيمة معنوية الى جانب كونها محققة

(٢) الجاحظ البيان والتبيين ١/١١٥ .

(٣) انظر في هذا المجال - على سبيل المثال - : الجاحظ : الحيوان

٠ ٣٤٧/٢

(٤) ابن سنان الخفاجي : تمر الفصاحة : ٥٤ ، وانظر أيضاً :

٠ الوساطة : ٤٦٢ .



قيمة صوتية « فلنك لا تستحسن تجانس اللفظتين الا اذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا » (٥) •

غير أنه من الضروري ملاحظة ما ينشأ من العلاقات الصوتية بين الألفاظ داخل السياق ، ولابد أيضا من مراعاة الربط بين هذه العلاقات من جهة وما تحققه من علاقات أخرى مع المواقف التي تعبر عنها ، والغايات التي ترمى إليها ، وما يدل عليه جميع ذلك من قدرات لغوية تتعلق بخصائص الأسلوب في هذا الجانب ، وقدرات فنية تتعلق بهذه الخصائص وبقدرة المنشئ لهذا الأسلوب على تنوع وسائله في جانبي التعبير والتأثير المرتبطين بغايات الأسلوب ومجالاته من جهة أخرى •

ومن أمثلة ذلك ما يحدث من علاقات صوتية ناشئة عن التكرار ، وهو مجال واسع يستوعب الكثير من الظواهر الصوتية ، ويحقق العديد من الغايات المرتبطة بما يدل عليه من المواقف وما يرد عليه من الأنماط •

فقد يكون التكرار قائما على ترديد لفظ واحد ، أو بعض أحرف لفظ ، أو مجموعة من الألفاظ المشكلة جزءا من جملة ، أو جملة تامة •

وقد يكون التردد الصوتي الناشئ عن تماثل الألفاظ صوتيا ناشئا عن العلاقات الاشتقاقية بينها •

كما قد يكون ناشئا عن علاقة التجانس •

وقد يكون اللفظان المكرران متضادين معنى متحدين لفظا •

كما قد يكون هناك علاقة اتحاد بين بعض الألفاظ المشتركة جرسا

ووزنا ، فيسهم ذلك في تحقيق قدر كبير من الجوانب الدلالية والغايات  
التي يرمى اليها الأسلوب .

وقد تنشأ العلاقات الصوتية بين الألفاظ ارتكازا على قوة صيغة  
اللفظة الواحدة في ذاتها من جهة ، ثم تلاقى هذه الصيغة مع مثيلة لها  
داخليا سياقتها في لفظة مرادفة أو قريبة من مدلولها .

وقد تنشأ هذه العلاقات الصوتية عن طريق تقليب مشتقات  
الأصل اللغوي الواحد ، واستخدام حروفه المكررة ومعانيه المتلازمة  
بحيث يسهم ذلك كله في جانبي التعبير والتأثير .

وهذه المجالات المتنوعة الواسعة مما يحقق للأسلوب الكثير من  
الخصائص التي يكتسب من خلالها قوة تميزه ودقة أدائه والدلالة على  
براعة منشئة ومدى تمكنه اللغوي من الألفاظ ، والأسلوبى من التعبير  
عن المواقف التي يلائم في كل منها بين طرق التعبير ومجالاته وغاياته .  
وسوف يرد تفصيل القول في هذه الخصائص في موضعه من الدراسة  
ان شاء الله تعالى .

وفي اطار الخصائص الأسلوبية العديدة يجد الأسلوب جانبا كبيرا  
من قوته مرتكزا على ما يشتمل عليه من التراكيب التي ترتبط قوتها  
بقوة بناء عناصرها من جهة وقوة بناء أجزاء الأسلوب الذي ترد به  
هذه التراكيب من جهة أخرى .

هذا فضلا عما تقوم عليه هذه التراكيب من أنماط التعبير  
واتجاهاته ووسائله ، كأن يكون قائما على الاطناب أو الایجاز ، أو قائما  
على الحقيقة أو المجاز ، أو قائما على ركائز لغوية تمنحه العديد من  
خصائصه وتبرز دلالاته وغاياته كالتقديم والتأخير والتعريف والتكثير ،  
والعطف ، والافراد والجمع والتعليق ، والقصر ، والاثبات والنفي ،

والتقسيم ، والتكرار وغيرها مما يقتضيه الموقف من وسائل التعبير وأنماطه .

كما قد يحقق التركيب في شكله العام الكثير من الخصائص البلاغية واللغوية من خلال ترابط أقسامه وقيامها على الجمع الشامل لجوانب قضية واحدة أو أكثر في شكل سلسلة من الحلقات المتتالية التي تتصل كل منها بالأخرى اتصالا سببيا أو جزئيا أو غير ذلك كما سيرد إيضاحه في موضعه ان شاء الله تعالى .

وعلى وجه الاجمال فانه يمكن القول بأن التركيب الأسلوبى يكشف عن الكثير من الخصائص اللغوية والبلاغية لما ينطوى عليه من العديد من القدرات ويصدر عنه من المنطلقات مما دعا الى القول بأن « تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها لأن التركيب أعسر وأشق » (٦) وأن « الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملازمة اللفظة التي تليها » (٧) .

أما بالنسبة للتصوير البيانى وبحث خصائصه المرتبطة بوروده داخل أنماط متنوعة من الأساليب صدورا عما تدل عليه من المعانى ونعبر عنه من المواقف فانه يمكن القول بأن فضل الدراسة هنا لا يرجع الى مجرد تصنيف أنماط التعبير البيانى الى أقسامها المعروفة في أبواب البيان العربى من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها ، أو بيان أقسام كل نوع من هذه الأبواب وما يشتمل عليه من عناصر ويدل عليه من المعانى والأغراض فقط بل يكون فضل الدراسة في هذا المجال حين تستطيع التوصل الى بيان قيمة هذه الأساليب وبحث العناصر التي أسهمت في

(٦) ابن الأثير : المثل السائر ١/٢١٣

(٧) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز : ١١٧

بيان هذه القيمة ، والخصائص التي منحتها تميزها وشأنها فوردت على  
شاكلة مخصوصة مدعمة بأسباب القوة والتأثير •

وهنا يمكن بحث العديد من أسباب ثراء الأسلوب البياني وعمقه  
انطلاقاً من تأمل ما يقوم عليه من جوانب بلاغية ولغوية متعددة ، منها  
عناصر التمهيد لمضمون الصورة ، والاشتغال على عناصر جذب الانتباه  
الى الفكرة ، وكذلك تأمل عناصر الشرح والتفسير، وتنوع الأساليب  
خبراً وإنشاء ، حقيقة ومجازاً ، وبحث العناصر الحسية المبرزة للمعاني  
المجردة فى صور مأموسة ، وكذلك بحث الفروق بين المقضادات أو  
المتماثلات ظاهراً مع تفاوت بينها وغير ذلك •

كذلك يمكن استنتاج الكثير من خصائص الأسلوب البياني من  
خلال التوقف لدى ظاهرة تنوع الأساليب وترابطها فى الموقف الواحد  
كالاتجاه الى جمع أطراف المعنى بين جانبيين أو أكثر ، أو التدرج من  
العام الى الخاص أو العكس بلوغاً الى بيان مغزى محدد أو دلالة معينة  
وغير ذلك مما يعين على استكشاف الكثير من خصائص الأسلوب وأسرار  
قوته وأسباب تميزه عن غيره ومدى ما حققه من درجات القوة •

وفى جانب آخر يجب تناول خصائص هذا الأسلوب البياني  
بالنظر الى ما ينطوى عليه من ظواهر بلاغية ولغوية أخرى تبرز دلالاته  
وتحقق له الكثير من ميزات البيان كما هو الحال فى ظاهرة تقابل العناصر  
والتقائها •

ذلك أن التقابل - خاصة - له فضل بيان حسن النقيض ببيان  
سوء نقيضه مما هو معروف فى علم البديع من جهة •

كما أنه حين يرد متضمناً فى أسلوب بياني يكون له فضل تجسيد  
أو تشخيص أو تقريب المعانى المتشابهة فتصير قريبة معروفة بعد أن

كانت بعيدة غير مدركة ، واضحة مألوفة بعد أن كانت غامضة غريبة من جهة أخرى .

ومن الضروري هنا مراعاة خصائص الأسلوب البياني القائم على تقابل العناصر والتناقضات في ضوء تنوع مجالاته الفكرية وقضاياها كما سيرد تفصيله في موضعه من الدراسة إن شاء الله تعالى .

أما بالنسبة لما تحققته الأساليب البيانية من مجالات التأثير وأبعاده من خلال ما تقوم عليه من خصائص متنوعة متصلة بتراكيب هذه الأساليب ، وما تشتمل عليه من العناصر ، وما يدل عليه كل عنصر في موضعه من الدلالات ويرتبط به من مجالات التأثير فذلك أيضا مجال واسع الدرس والبحث لما يستوعبه من خصائص الأسلوب المتنوعة ونظرا لما يقوم عليه من كثرة ركائز بيان المعاني وتحقيق الأغراض سواء منها ما يتعلق بالألفاظ أم بالوسائل البيانية المساعدة على تحديد المضمون وتجسيد الفكرة كالجوانب الخيالية أو العناصر الحسية أو ما يتصل بعوامل التأثير الشعوري المتنوعة .

ومن خلال بحث هذه الخصائص يمكن التوصل الى استنتاج الكثير من الحقائق المتصلة بخصائص بناء الصورة البيانية وتكامل عناصرها . ذلك أن البحث في هذا المجال يقوم على العناية بدراسة وسائل أداء المعاني ومعالجة المضامين من جهة ، وكيفية إيصال تلك المعاني والمضامين في إطار من التأثير والاعادة من جهة أخرى .

ومن خلال ذلك يتسع المجال لمراعاة كيفية اختيار عناصر الصورة البيانية بما يناسب جانبي التعبير والتأثير والمعالجة من جهة ، وكيفية بناء بعضها على بعض ومدى ترابطها واتساقها ، والاتجاهات التي تتميز بها خصائص الأسلوب في أحواله المختلفة وغير ذلك من جهة أخرى .

مما يكشف عن قيمة الأسلوب البياني ، ومدى ما حققه من درجات التماسك والعمق من خلال ارتكازه على عناصر مبنية فى شكل متدرج يسوده النمو أو التصاعد نحو غاية محددة كما سيرد تفصيله أيضا فى موضعه من هذه الدراسة ان شاء الله تعالى •

كذلك تجدر العناية بدراسة خصائص هذا الأسلوب البياني دراسة مفصلة تقوم على محاولة استيعاب اتجاهاته فى جانبه الفكرى المجرد والدلالى المحدد ارتباطا بتنوع مجالات التعبير وأغراضه من جهة ، وتنوع مقاييسه التى يتخذ منها وسائل دقيقة للتحديد والضبط ، ونقل المفكرة من اطارها العام المجرد الى مجال دلالى خاص محدد ، أو من نطاق محدود الى مجال مطق مجرد من جهة أخرى كما سيرد تفصيله أيضا فى موضعه من الدراسة ان شاء الله تعالى •

وعلى وجه الاجمال فانه يمكن القول بأن بحث خصائص الأسلوب من جانبه البلاغى واللغوى انما هو اتجاه الى بحث اتجاهاته وأسرار سموه وما يتسم به من جوانب تميزه وتوضح قيمته ، وبحث مظاهر ذلك كله من خلال تحليله تحليلا يجمع بين جانبه العام والخاص مما يكشف عن خصائصه العامة التى تضم الكثير من الظواهر المتقاربة ، والخاصة التى تقوم على تنوع المواقف والمنطلقات الفكرية المختلفة ، من خلال بيان مقومات ذلك ودعائمه ، وايضاح كيميائته ، والسمات التى يبرز عليها ، والجوانب البلاغية واللغوية التى تؤثر فيه وتمنحه طابعه الخاص فى كل حال مما يجعله متميزا ظاهر الملامح على النحو الذى يصطبغ به •

وحين نتجه الدراسة نحو الأساوب النبوى الشريف فانها تستقى من خصائصه منهجها واتجاهها ومنطلقاتها ، ذلك أنه زاخر بالكثير من الخصائص البارزة التى تدعو الى بحث أسرارها وأسبابها وبيان طبيعتها وأنماطها واتجاهاتها •

ولم يكن ذلك كله ليتحقق بمعزل عن قيام هذه الدراسة على جانبين بارزين ، أما أحدهما فهو الاستقراء العام للأساليب موضع الدراسة ، ومحاولة استخلاص ما تنتسم به من سمات عامة ، وجمعها فى إطار واحد تحت ما يلائمها من مسميات تجمع خصائصها العامة •

وأما الثانى فهو دراسة كل من هذه السمات فى جانب خاص من الدراسة ، وتحليله تحليللا لا يقوم على الوصف ، وتقسيم أجزاء الموضوع الواحد كل فى جانب ، ثم الحكم العام عليه ، بل تحليله تحليللا يقوم على تحقيق غاية هذه الدراسة من بيان خصائص هذا الأسلوب مما يكشف عن جوانب من قيمته ، وأسرار سموه ، وأسباب تأثيره ، وإقناعه ، وقوة دلالته •

لذا فقد قسمت هذا الكتاب — مستعينة بالله تعالى وهو ولى التوفيق — الى عشرة فصول مبدئية بدراسة مقومات بلاغة النبى ﷺ ومصادرها وخصائصها العامة فى الفصل الأول ، محاولة فى ذلك بيان منطلقات هذه البلاغة وأسسها التى تشكل مجموعة من المقومات والمصادر التى تطبع الأسلوب النبوى الشريف بطابع خاص وتمنحه ما اتضح به من خصائص التعبير التى سمت به الى ما ورد عليه من درجات القوة والتميز ووجوه الفضل •

أما الفصل الثانى فقد جعلته لبحث « خصائص ألفاظ أسلوب الحديث النبوى الشريف » ، وقسمت ذلك الى قسمين : أولهما : « الألفاظ والموقف فى أسلوب الحديث النبوى الشريف » باحثة فى ذلك مكانة الكلمة فيما ترد فيه من الأساليب وتدل عليه من الأحوال والمواقف وما تلائمها من الأوضاع داخل سياقتها ، وما تؤديه من الوظائف المتعددة وما يترتب على جميع ذلك من الأمور وثانيتها : « دور الألفاظ فى بلاغة النبى ﷺ بين المجالين اللغوى العام والدينى الخاص » باحثة فى ذلك

ما تمتاز به البلاغة النبوية من دقة تحديد دلالات الألفاظ والتعريف بالمبهم منها وتوضيح الغامض، وإبراز الدلالات الجديدة التي لم تكن معروفة من خلال ورودها ضمن أساليب بلاغية متنوعة الأنماط، مبرزت في كل حال أهمية الدلالة ووظيفتها وقوة أثرها، وباحثة في ذلك الاتجاهات الأسلوبية المتعددة بتعدد المواقف والدواعي بغرض التوصل إلى خصائصها المتنوعة .

أما الفصل الثالث : فقد جعلته بعنوان « الأسلوب والموقف في بلاغة النبي ﷺ » باحثة ما ينطوى عليه ذلك من خصائص بلاغية ولغوية تتعلق بأهمية الأسلوب في الدلالة على الموقف الذي يوضحه أو يصوره أو يبين درجة قوته أو هوانه ، وشدته أو ضعفه ، وسموه أو ضعة سأنه . وكذلك أهمية ما يمتاز به من خصائص في نقل المضمون إلى السامع نقلا مصحوبا بما يمكن له في عقله ونفسه بما يحمله من عناصر التأثير والاقناع وما ينضمه من إيحاء ودلالة . كذلك أهميته في الدلالة على دقة منسئة في انتقاء أوضاعه، واختيار عناصره، وكيفية بنائه، وربط أجزائه بعضها ببعض تقديما وتأخيرا ، تعليلا وتمكينا في العقل والنفس ، واختيارا للعناصر المقربة للفكرة أو الرابطة لها بغيرها أو الحاصرة أطرافها أو المبرزة أهميتها وما إلى ذلك مما سيتضح في موضعه ان شاء الله تعالى .

كذلك ما يتعلق بخصائص الأسلوب في هذا المجال من تنوع بتنوع المواقف والأحوال والشخصيات التي يوجه إليها أو يصفها أو يتعلق بها بسبب من الأسباب ، والأغراض التي يرمى إلى تحقيقها مما يفتح المجال لاستكشاف العديد من الأصول والقواعد الأسلوبية التي يبنى عليها هذا الأسلوب الشريف منهجه في التعبير عن المواقف الفكرية والنفسية الدقيقة الملائمة للأفعال النحسية الظاهرة ، أو بيان شأن الفكرة قياسا على نقيضها ، أو وضعا لمثال يحتذى من خلال تجسيد الصفات المجردة



فى شكل نموذج عملى أو ما الى ذلك مما سيرد تفصيله وايضاح خصائصه  
ان شاء الله تعالى •

أما الفصل الرابع : فقد جعلته لدراسة « الخصائص الصوتية  
والدلالية لألفاظ الحديث الشريف » •

ونظرا لتعدد مجالات البحث والدرس فى هذا النطاق الواسع بعيد  
المغور فلا بد للدراسة أن تتجاوز النظرة الوصفية السطحية السريعة الى  
شئ من التأمل والعمق فى محاولة للتوصل الى الغايات بتأمل الوسائل  
والأسباب ، والتعرف على طبيعة العلاقة الرابطة بين اللفظ ومعناه وأثره  
وقيمته ودلالته العامة فى سياقه والخاصة فى ذاته وصلة ذلك بجرسه  
الخاص وما يتردد من ايقاعات عامة ناشئة عن تلاقى أصوات غيره من  
الألفاظ فى سياقه وما يتحقق بين ذلك كله من علاقات من جهة ومن  
دلالات على القضايا التى يعالجها التعبير مؤكدا أو موضحا ، ناهيا  
أو أمرا ، مرغبا أو مرهبا أو غير ذلك من جهة أخرى ، وما يتصل بجميع  
ذلك من مجالات شعورية تستمد من صوت الكلمة أو جرسها وترديدها  
أو ترديد بعض أحرفها أو غير ذلك من أنماط التأثير والايحاء ومجالتهما •  
ودراسة هذه المجالات وتأمل خصائصها المتنوعة وبحث أسسها  
أمور تدعو لاستكشاف ما تتعلق به هذه المجالات من ظواهر واتجاهات  
 وأنماط تسعى الدراسة فى هذا الفصل لايضاها وبيان أضرب كل منها  
كما سيرد فى موضعه باذن الله تعالى •

أما الفصل الخامس : فقد خصصته لبحث « أنماط الأساليب  
البيانية فى الحديث النبوى الشريف وخصائصها » ، بغرض بيان تنوع  
أنماط هذه الأساليب ارتباطا بما تدل عليه من المعانى وترتبط به من  
المواقف مما يؤثر فى طرق المعالجة ويكسب الأسلوب خصائصه المتميزة  
ومكانته الخاصة •

كما تهدف الدراسة في هذا المجال الى تحقيق غاية هامة تتجاوز ذلك التصنيف المعروف لأساليب البيان على الوجه الذي يرد عليه في أبواب علم البيان العربي من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ، أو بيان أقسام كل نوع من هذه الأبواب وما يشتمل عليه من عناصر ، الى بحث القيمة البلاغية واللغوية لهذه الأساليب في البيان النبوي ، وبحث العناصر التي أسهمت في بيان هذه القيمة ، والخصائص التي منحتها تميزها وشأنها فوردت على شاكلة مخصوصة مدعمة بأسباب القوة والتأثير .

أما الفصل السادس : فقد جعلته بعنوان « من الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف » انطلاقاً من طبيعة أهمية دور الألفاظ والتراكيب اللغوية الواردة في سياق الصور البيانية في جوانب الإيضاح والتأثير والوصف ودرجة أداء الفكرة وتحقيق أبعاد المعنى مما يكون له أثره بطبيعة الحال في القدرة على استنباط خصائص الأساليب وبيان أسباب تفاضلها وكشف مصادر تمايزها . وتأمل هذه الجوانب التي يلتقى خلالها الأسلوب البياني العام بالعناصر اللغوية وتراكيبها الخاصة في شكل تحليلي يبصر التوصل الى ما يسود هذه الأساليب من اتجاهات وما تصطبغ به من خصائص وسمات يمكن تصنيفها تصنيفاً يكشف عما تنطوي عليه من أسس وقواعد عامة من جهة وملامح وسمات خاصة من جهة أخرى مما يكون له في مجمله الأثر الجلي في الكشف عن القيمة اللغوية والبلاغية لتلك الأساليب ، وهو ما تسعى للدراسة بوجه عام الى تحقيقه والوقوف عليه .

أما الفصل السابع : فقد جعلته بعنوان : « تقابل عناصر الأسلوب البياني والتقاؤها » ، باحثة في ذلك ظاهرة تميز بها الحديث النبوي الشريف تميزاً ظاهراً يسترعى الانتباه والتأمل حيث تتركز الكثير من

الأساليب البيانية على دعامتين من دعائم إيضاح المعانى وإبرازها فى شكل محكم من خلال النقاء النقيضين اللذين يمثلان جانبيين متقابلين فى إطار من التصوير البيانى ذى العناصر المتقابلة إبرازا لفكرة واحدة مصحوبة بمؤكداتها وبراهينها وعوامل تميزها •

ونظرا لتنوع مجالات التعبير وقضاياها فإن المتأمل لجوانبه من خلال الوقوف على خصائصه اللغوية والبلاغية يستطيع الوقوف على اتجاهاته العديدة وأنماطه المتنوعة مما يفسح المجال بطبيعة الحال لتصنيف ذلك والتوصل الى ما يحققه من قيمة بلاغية ولغوية متشعبة الأسباب بعيدة الغور كما سيتضح من خلال الدراسة ان شاء الله تعالى •

أما الفصل الثامن : فقد عمدت فيه الى دراسة « بناء الصور البيانية بتكامل عناصرها » تحقيقا لفكرة النظر الى الصورة وتأملها — أسلوبا عاما ، وبناء داخليا وخصائص مميزة — ككل لا يتجزأ مهما اتخذت من الأوضاع ، واشتملت عليه من العناصر وعبرت عنه من القضايا والمجالات ، فهي فى كل حال وحدة كلية لا يمكن تجزئتها أو تفكيك عناصرها أو ابعاد بعض جوانبها عن البعض الآخر •

وهنا لابد من السعى الى بلوغ غاية هذه الدراسة حيث الكشف عن خصائص الأسلوب البيانى وبيان اتجاهات بنائه وطرق كل اتجاه وأنماطه وكيفية تنوعه بتنوع قدرة المتلقى فكريا وشعوريا وحسبيا ، والنظر الى محاوره وأسسها فى كل حال إبرازا لهذه الخصائص التى يرد عليها وما يتعلق بها من أسباب القوة التى تمنحها قيمتها المتميزة •

أما الفصل التاسع : فقد خصصته بدراسة « الصورة البيانية فى الأحديث النبوى الشريف بين المجالين الفكرى المجرى والدلالى المحدد » هادفة فى ذلك الى تتبع خصائص الأسلوب فى جانب بارز من جوانبه ، وهو القدرة على الالمام بجانبى التعبير — المضمون الفكرى ، والمظهر

التعبيري عن طريق اللغة - بشكل بياني خاص ، يحقق الأسلوب من خلاله غايتي التحديد والتوضيح لما هو مجرد عام أو مبهم غامض ، وذلك بالقدر الذي يعتمد إليه المتكلم - ﷺ - ، وبالتأثير المحدد الذي ينشده من وراء تعبيره .

وهو تتبع يهدف كذلك الى التعرف على ما يتضمنه الأسلوب في هذا الجانب من قدرات خاصة على انتقاء الألفاظ والصور الموحية وما يرتبط به من قدرات متعددة على ربط الأسلوب بالموقف ، ونسج التركيب على وجه مخصوص ، وتكثيف التعبير ليصل الى مختلف القدرات الفكرية ، ويعالج ما تضمنه من القضايا معالجة مجردة من حدود الزمان والمكان .

وقد ختمت الكتاب بفصل عنوانه « من الخصائص البلاغية واللغوية للأسلوب القصصي » لما لاحظته من تميز الأسلوب القصصي في الحديث النبوي الشريف بالكثير من الخصائص والسمات التي تشكل في جملتها مجموعة من الأسس التي تنطلق منها بلاغة النبي ﷺ محققة الكثير من الأغراض والمقاصد مما يمنحها طابعا فريدا مصطبعا بما صدرت عنه من شخصية لها ملامحها وصفاتها وقدرها من السمو الروحي والتميز الديني .

ولما وجدته في ذلك من مجال واسع لا يتوقف لدى ما تناوله بعض الدارسين مما يتعلق بالأحاديث المتضمنة قصصا متعلقة بالزمن السابق على عصر النبي ﷺ ، بل تشمل مجموعة الأحاديث المتضمنة قصصا يمثل فيها الماضي والحاضر والمستقبل مجموعة من الحلقات المتصلة التي يعد كل منها جزءا من كل له ملامحه وقدرته على البقاء في الفكر والخيال والنفوس ، نظرا لما يتميز به هذا القصص من خصائص تجعله قادرا على نقل المعاني الذهنية والأحوال النفسية من حالة تجريدية غامضة الى حالة من التشخيص الذي تسند فيه الأحداث

المرتبطة بمنطلقات ذهنية أو شعورية أو واقعية أو غيرها إلى شخصيات  
هوائية يتاح للعقل تأملها ، وتفسح للنفس فرصة الانفعال بها وتكوين  
موقف ازاءها .

وهذا بطبيعة الحال مجال واسع تهدف الدراسة إلى الوقوف على  
التجاهاته المتميزة وخصائصه العامة منها والخاصة وسماته وأنماطه  
المتعددة كما سيتضح باذن الله سبحانه وتعالى في موضعه من الدراسة .

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق والسداد

# الفصل الأول

من مقومات بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم

ومصادرها وخصائصها العامة

لبلاغة النبي ﷺ مقوماتها التي استمدت منها خصائصها المتميزة والتي جعلتها ترد على هذه الشاكلة السامية التي تفضل بلاغة أولئك الفصحاء الذين تمتعوا بذلك المستوى اللغوي والبلاغي الرفيع فراحوا يتبارون في ميدان فسيح من القول المتعدد الأساليب والمتنوع الفنون .

فمن المعروف أن منطلق هذه البلاغة وأساسها يتجاوز كونها بلاغة إنسان أوتي قدرا عاليا من الموهبة اللغوية والبلاغية فحسب إلى كونها بلاغة إنسان تلقى القرآن الكريم من ربه عز وجل ، وهيبء لهذا التلقى تهيئة الهية ، ثم هيبء كذلك لا يصاله للناس وافهامهم — على تفاوت لهجاتهم وعقولهم وبيئاتهم — أصوله وأأسسه ومنهجه بطريقة مقنعة مؤثرة تصل إلى القلوب والعقول في اعتدال والتزام تام بالحق والصدق. فلا تدنو من المبالغة ولا تتهاوى دون الغاية .

لذا فان الصدق ، وقوة البيان ، وسلامة الفطرة والمنطق ، بالإضافة إلى حسن الخلق ، والقدرة على تخير الكلمة المناسبة للموقف المناسب تشكل كلها مجموعة من أهم المصادر التي انطلقت منها هذه البلاغة .

ولقد لس الصحابة رضوان الله عليهم ذلك كله وشهد به النبي ﷺ نفسه ، فقد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قوله : « يا رسول الله

ما رأينا أنصح منك فقال ﷺ : « ان الله لم يجعلنى لحانا ، اختار لى  
خير الكلام ، كتابه القرآن » (١) •

وصدورا عن هذا المنطلق الجامع لكل أسس البلاغة وقوى المنطق  
القولى والعملى ودعائم التعبير ورد أسلوب النبى ﷺ متميزا بدقته  
اختيار الكلمة ، والقدرة على وضعها موضعها من السياق وتخير  
الاطار الأسلوبى المناسب لها على شاكلة مخصوصة متسقة مع ما تعبر  
عنه من المواقف وتهدف اليه من الغايات •

ولقد سمت هذه البلاغة ، وعلا قدرها بفضل ما كان يتمتع به النبى  
ﷺ من دراية بها ، وعلم بمقاييسها ، وتقدير لقيمة الكلمة التى يوجهها  
الى الناس ، وعلم بآثارها فى النفوس ، ومكانتها الدينية المؤثرة •  
وعلى سبيل الاجمال فانه يمكن القول بأن كثيرا من الأحاديث  
النبوية الشريفة تقرب اليها بعض أصول هذه البلاغة ، وتوضح سماتها  
العامة التى تشكل مجموعة من المنطلقات والأسس الجامعة للكثير من  
خصائصها •

منها : ما يتصل بسمو الذوق النقدى والبلاغى ، وتمييز  
الأسلوب الجيد ذى المضمون الهادف القائم على المعالجة الفنية السديدة  
وقوة التعبير والتأثير •

ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ  
قال (٢) : « اهجو قريشا فانه أشدّ عليها من رشقٍ بالنبل ، فأرسل  
الى بن رواحة فقال : اهجهم ، فهجاهم ، فلم يُررض ، فأرسل الى كعب بن

(١) الدمشقى : البيان والتعريف : ٤١٠ وأخرجه الديلمى والشيرازى

فى الألقاب عن أبى هريرة رضى الله عنه •

(٢) صحيح مسلم : ٣٥٧/٥ •

مالك ، ثم أرسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان ، قد آن  
لكم أن ترسلوا الى هذا الأسد الضارب بذنبه ••• قالت عائشة : فسمعت  
رسول الله ﷺ يقول لحسان : « أن روح القدس لا يزال يؤيدك  
ما نافحتَ عن الله ورسوله » • وقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :  
« هجاهم حسان فشفى واشتقى ••• »

ومن ذلك أيضا تقديره ﷺ لبعض أبيات من الشعر وثناؤه عليها  
لما تتصل به من سمات القوة وما تصدر عنه من منطقات وتحققه من  
الغايات •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال  
رسول الله ﷺ (٣) : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل » (٤)

وفى رواية : « أشعر كلمة تكلمت بها العرب ••• »

وفى رواية : « أصدق بيت قاله الشاعر »

وفى رواية : « أصدق بيت قالته الشعراء »

ومنها :

ما يتصل بالقدرة على اثبات المعانى وتأكيد الدلالات وايضاح  
القضايا الهامة بربطها بما يحقق ذلك فيما يقتضيه من المواقف عن طريق  
التعبير الذى يتجاوز الوسائل اللفظية، الى التجارب العميقة، التى تجمع  
القول والفعل فى اطار واحد مما يكون له بالغ الأثر فى ابراز الحقيقة  
وتجسيد الموقف واثباته فى الجانبين الفكرى والنفسى •

(٣) صحيح مسلم : ١١١/٥ •

(٤) المراد بالباطل : الغانى المضحل ☞



ومن أمثلة ذلك ما روى عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ أن رجلا سأله عن وقت الصلاة فقال له (٥): «صَلِّ مَعَنَا هَذِينَ - يعنى اليومين - فلما زالت الشمس أمر بلالا فأذّن ، ثم أمره فأقام الظهر ، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقيّة ، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر ، فلما أن كان اليوم الثانى أمره فأبردَ بالظهر ، فأبردَ بها فأنعمَ أن يُبردَ بها ، وصلى العصر والشمس مرتفعة ، أخرها فوق الذى كان، وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق ، وصلى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل ، وصلى الفجر فأسفَرَ بها ، ثم قال : أين السائل عن وقت الصلاة - فقال الرجل : أنا يارسول الله . قال : وقت صلاتكم بين ما رأيتم .» •

ومنها : ما يتصل بالأساس الخلقى الذى لا يخفى دوره فى تخير الألفاظ وتحريّ أقوى السبل لملاءمة للمواقف ، والقدرة على التأثير والانتعاج ، والملاءمة بين الأسلوب وحال المتلقى فكريا ونفسيا • ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت (٦) :

« استأذن رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السّام عليكم ، فقالت عائشة : بل عليكم السّام واللّعة • فقال رسول الله ﷺ : يا عائشة : انّ الله يحب الرفق فى الأمر كله • قالت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : قد قلت : « وعليكم » • وفى رواية « قد قلت عليكم » وفى رواية عن جابر بن عبد الله قال : « سلّمَ ناسٌ من يهود على رسول الله ﷺ ، فقالوا : السّام عليك يا أبا القاسم • فقال : وعليكم •

(٥) صحيح مسلم : ٢٥٩/٢ •

(٦) صحيح مسلم : ٩/٥ •

فقال عائشة وغضبت إذ ألمتسمع ما قالوا ؟ قال : بلى قد سمعت فرددت عليهم ، وانما نجاب عليهم ولا يجابون علينا » •

ومنها : ما يتصل بالقدرة على وضع الحقيقة مكان الوهم ، والصواب مكان الخطأ بأسلوب يتفق والقدرات العقلية المتفاوتة للمتقين ، ويسمى بالوضوح وقوة التركيز •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ (٧) وجد شاة ميته "أعطيتها مولاة" ليمونة من الصدقة فقال رسول الله ﷺ : « هلا انتفعتم بجلدِها ؟ قالوا : انها ميتة ، فقال : « انما حرم أكلها » •

وفى رواية : « هلا أخذتم اهابها فدبغتموه فانتفعتم به ؟ » •  
وفى رواية : « ألا أخذوا اهابها فدبغوه فانتفعوا به » •

ومنها : ما يتصل بشرح ما أشكل فهمه وبيان ما تعذرت الاحاطة به •  
ومن أمثله ذلك ما روى عن علقمة عن عبد الله قال : لما نزلت : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا : أيثنا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ (٨) : « ليس هو كما تظنون ، انما هو كما قال لقمان لابنه :

« يا بُنى لا تُشرك بالله انَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ » •

ومنها : ما يتصل بالتنبيه الى ما غفل عنه مع وضوحه فى سياقه تأكيداً على حقيقة وجوب ربط الجزء بأكمله ، وعدم التوقف لدى جانب من الأسلوب فى عزلة عن السياق العام الذى ورد به ، وتحقيقاً للفهم السديد والمأما بجمع جوانب المعنى ، وإثباتاً لدلالته •

(٧) صحيح مسلم ٦٥٩/١ ، ومختصر صحيح البخارى : ٢٥٥ •

(٨) صحيح مسلم : ٢٢٩/٦ ، وشرح صحيح البخارى : ٨٧/١ •

ومما يوضح ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله ( قال ) : أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة (٩) : لا يدخل النار ان شاء الله من أصحاب الشجرة احد الذين بايعوا تحتها ، قالت : بلى يا رسول الله . فانتهرها . فقالت حفصة : « وان منكم الا واردة » فقال النبي ﷺ : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » ومنها :

القدرة على بيان معانى الألفاظ وايضاح دلالاتها وما تحققه من وظائف وغايات فكرية بياننا لما يرتبط بها من القضايا ودفعنا لما قد يتصور من الخطأ وسوء الفهم .

ومن مثله ذلك ما روى عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال (١٠) : لما نزلت : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » قال له عدى بن حاتم : يا رسول الله : ائنى أجعل تحت وسادتى عقاكين ، عقالا أبيض ، وعقالا أسود أعرف الليل من النهار ، فقال رسول الله ﷺ : « ... انما هو سواد الليل وبياض النهار » .

ومنها : القدرة على شرح المعنى بتجاوز الايضاح المباشر للنص الى ما وراءه من الأسس والدلائل المنقعة التى يكون فى ايضاحها دليل عليه ، واظهار اعنائه ، واثباته لحقيقته وتحقيق لغايته .

ومن ذلك ما روى عن قتادة بن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ (١١) : « ألهم التكاثر » ، قال : يقول ابن آدم :

(٩) صحيح مسلم : ٣٦٥/٥ .

(١٠) صحيح مسلم : ١٤٤/٣ .

(١١) صحيح مسلم : ٨١٥/٥ .

مالى • مالى • قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك الا ما أكلت فأفنيته ،  
أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت • • »

ومنها : ما يتصل بتحديد معنى خاص غير معروف ، وبيان ما يتصل  
بِهِ من تفاصيل ، وربطه بموقف غيبي محدد اختص به •

ومنه ما روى عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال (١٢) :  
« يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ » • قال : نزلت في عذاب  
القبر • فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، ونبيُّ محمد ﷺ •  
فذلك قوله عز وجل : « يثبت الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ » •

ومنها : توجيه الخطاب العام توجيهها خاصا مفصلا يتم عبره تحقيق  
دلالة العامة من جهة ، وتأكيد مغزاه الخاص من جهة ثانية • ولا يخفى  
ما لهذا الأساس الأسلوبى من قدرة بلاغية على التأكيد والايضاح وبيان  
شأن القضية التي ينطوى عليها التعبير في جميع جوانبه ، فضلا عن  
بيان آثارها وقوة دلالتها •

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما  
أنزلت هذه الآية : « وأنذر عشيرتک الأقربين » دعا رسول الله ﷺ  
قريشا ، فاجتمعوا ، فعم وخص ، فقال (١٣) :

« يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مرة بن  
كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من

(١٢) صحيح مسلم : ٧٢٢/٥ ، ومختصر صحيح البخارى ٢١٣

(١٣) صحيح مسلم : ٤٨٢/١ ، ومعنى سألها بيلالها : سألها •

النار ، يا بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم أنقذوا  
 أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ،  
 يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فانى لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن  
 لكم رحماً سأبلكها ببالها » •

ومنها : القدرة على بيان ما يتعلق بشأن اللفظ القرآنى الواحد من  
 السمو والفضل وشرح ما يدل عليه من الأمور الغيبية والمواقف الهامة  
 وما يتصل بجميع ذلك من أحوال لم تكن معروفة ومن ذلك ما روى عن  
 أنس رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ (١٤) ذات يوم بين أظهرنا  
 إذ أغفى اغفائة ، ثم رفع رأسه مبتسماً ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول  
 الله ؟ • قال : أنزلت على أنفا سورة ، فقراً : بسم الله الرحمن الرحيم :  
 « إِنبأ أعطيناك الكوثر ، فصلٌ لرَّبِّك وانحر ° ، ان شانتك هو الأبتَر »  
 ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم • قال فانه نهر  
 وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتى يوم  
 القيامة ، أنيته عدد النجوم ، فيُخْتَلَجُ العبدُ منهم فأقول : رب انه  
 من أمتى ، فيقول : ما تدري ما أحدثت بعدك » •

ومنها : القدرة على تأييد المعانى وتأكيدا بربطها بما يدل عليها  
 ويوضحها من ألفاظ القرآن الكريم ، مما يكون له كبير الأثر فى اثبات  
 المعنى الذى يتضمنه الحديث من جهة ، وايضاح معنى الآية الكريمة من  
 جهة ثانية •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال (١٥) :  
 « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فاذا طلعت من مغربها

(١٤) صحيح مسلم ، ٣٧/٢ ، الشانىء : المبغض • الأبتَر : المنقطع

العقب ، وقيل : المنقطع عن كل خير • يختلج : ينتزع ويقتطع •

(١٥) صحيح مسلم : ٣٧٤/١ •

آمن الناس كلهم أجمعون ، فبومئذ لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا » •

ومنها : القدرة على الكشف عن حقائق الكثير من المواقف الغامضة ، وإيضاح عللها الحقيقية التي يتغافل عنها فتصير في حكم المجهول •  
ومن ذلك أيضا موقف الداعي الذي لا يستجاب له وتأيد ذلك بدلائله المنعقة وأسبابه الحقيقية وربطه بما يدل عليه من الآيات القرآنية الكريمة •

وذلك فيما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (١٦) : «أيها الناس • إن الله طيب» ، لا يقبل الاطيِّبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا اننى بما تعملون عليم» وقال : «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه الى السماء : يا رب • يارب • ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذّيّٰ بالحرام ، فأننى يُستجابُ لذلك» •  
ومنها : قوة الفصاحة والقدرة على إيصال الفكرة فى ألفاظ واضحة يفهمها كل من يسمعها صدورا عن ادراك أهمية الكلمة وخطورتها وآثارها ، وحرصا على أداء أمانة التبليغ ، وعظما بتفاوت أحوال المتلقين علما وفهما •

لذا كان ﷺ إذا أراد أن يتكلم استنصت الناس كما يدل على ذلك ما روى عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ فى حجة الوداع (١٧) : «استنصت للناس • ثم قال : لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» •

(١٦) صحيح مسلم : ٥١/٣ •

(١٧) رياض الصالحين : ٢٤٥/٢

وإذا تكلم تمهل وأفصح وأسمع وأفهم ، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت (١٨) : « كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه » • وعنهما أنها قالت (١٩) : « ان رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسر دكم ••• » •

ومنها : ما يتصل بالقدرة على جذب ذهن المتلقى بيث عناصر التشويق وإثارة الانتباه والمتابعة المحببة الى نفسه كما هو الحال فيما يظهر فى كثير من الأحاديث الشريفة من الأساليب القصصية ، وكما يظهر فى غير هذا المجال من قدرة على ايجاد حوار هادف يجعل من المتلقى مشاركا فى التوصل من خلاله الى غاية يستطيع أن يقرّ بها ويستخلصها بنفسه ، وكما يظهر فى غير ذلك من المجالات كما سيرد ايضاحه فى موضعه من الدراسة ان شاء الله تعالى •

ومنها : ما يمتلكه النبى ﷺ من ثروة لغوية مميزة تقوم على عدة اتجاهات منها : التعريف بألفاظ كانت معروفة الدلالة من قبل بشكل عام فيرد التعريف بها فى سياق الحديث الشريف على غير المعروف ، ومنها التعريف بدلالات ألفاظ لم تكن معروفة من قبل كما يدل على ذلك سياق الحديث الذى ترد به ، ومنها التعريف بدلالة ألفاظ غير مألوفة أجمل ذكرها مقترنة بغيرها من الكلمات المألوفة مما يستدعى الاستفسار عنها فيرد التعريف محددًا واضحًا ، كما سيرد تفصيله فى موضعه من هذه الدراسة ان شاء الله تعالى •

ومنها : الارتكاز على العديد من الطاقات الصوتية والدلالية للألفاظ والقدرة على انشاء العديد من العلاقات السياقية بينها بحيث ترد محققة

(١٨) رياض الصالحين : ١٤٤/٢

(١٩) صحيح مسلم : ٣٦١/٥

العديد من الوظائف المتصلة بما تعبر عنه من المواقف ، وما ترمى اليه من الغايات ، وما تؤثر فيه من المجالات الفكرية والشعورية •

ونظرا لما يتميز به أسلوب الحديث النبوي الشريف من الشراء والعمق وقوة التمكن اللغوي فقد تعددت مجالات هذه الطاقات اللفظية صوتيا ودلاليا واتسعت دوائرها ومظاهرها فصارت مشكلة مجموعة من المقومات والمصادر كما سيرد تفصيله •

ومنها : القدرة على استخدام التعبير البياني استخداما محققا غايات الأساليب التي يرد بها كإيضاح المبهم وتفصيل الجمل وتقريب البعيد ووضع الحدود الفاصلة بين ما يبدو متماثلا مع تفاوته أو متقاربا مع تباعده •

وهذه الجوانب مجتمعة تمثل مجموعة من المصادر والمقومات التي تمنح الدارس مجموعة متميزة من الانطلاقات التي يستطيع بم تأملها مرتبطة بما يتصل بها من الخصائص والسمات البلاغية واللغوية الوقوف على أسباب تميز هذه البلاغة ، وتفرد هذا الأسلوب ، وأسرار تأثيره في النفوس وسرعة اقتناعه للعقول وما فيه من جوانب التشويق ويسر المتناول مما يهيئ حسن الاقبال عليه ، والرغبة في متابعته والافادة بمضمونه •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه يمكن القول بأن الأسلوب النبوي الشريف قد تميز بخصائص كثيرة ومتنوعة ، منها ما يمكن القول بأنه عام يمثل خطوطا أساسية بارزة لهذا الأسلوب ، ومنها ما هو خاص يمثل جوانب دقيقة تتصل بالمواقف والقضايا والاتجاهات الفكرية المتعددة التي تعبر عنها أساليب الحديث الشريف في كل حال من أحواله •



وهذان الجانبان يلتقيان بطبيعة الحال لدى نقطة واحدة مترابطة الاتجاهات ، ذلك أن الخصائص الدقيقة التي يشتمل عليها كل أسلوب فى تعلقه بموقف معين أو فكر خاص أو قضية معينة يمكن أن يتقاربفى خصائصه، وأسلوب بعض الأحاديث الأخرى التي يجمع فيما بينها اتجاه عام واحد تشكل كل منها جانبا من جوانبه ، وبذلك يلتقى الجانبان فى هذا الاطار الواحد على شكل حلقات متواصلة يتم التقاؤها لدى مجموعة عامة من النقاط التي تعد بمثابة السمات العامة والخصائص الواضحة لهذا الأسلوب النبوى الشريف •

ومن أظهر الخصائص العامة لهذه البلاغة وأجمعها للكثير من خصائص أسلوب الحديث النبوى الشريف صفة « الایجاز » التي تحتل مكانا بارزا رفيعا فى البلاغة العربية لما تتضمنه من الفوائد ، وتؤديه من الوظائف حيث تقوم على « إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ » (٢٠) ، وفيه تكون الألفاظ غير مقصودة فى أنفسها ، وإنما المقصود هو المعانى والأغراض التي احتيج الى العبارة عنها بالكلام ، ( فيصير ) اللفظ بمنزلة الطريق الى المعانى التي هي مقصودة ، وإذا كان طريقتان يوصل كل منهما الى المقصود على سواء فى السهولة الا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر فلا بد أن يكون المحمود منها هو أخصرها وأقربها الى القصد « (٢١) •

فالایجاز يصل بالأسلوب الى أقصى درجات الرفع والسمو حيث تكون العبارة مختصرة ، والمعانى متعددة ، فيها ثراء ، وعمق ، وقوة دلالة •

(٢٠) ابن سنان : سر الفصاحة ٢٠٠

(٢١) السابق : ٢٠٣

ولقد أدرك هذه الميزة كثير من علماء البلاغة حتى أنهم ذهبوا الى  
تعريف البلاغة جملة بها (٢٢) •

وللايجاز فى الحديث النبوى الشريف طابعه الخاص الذى يصدر  
عن تميز الحديث عن سائر الكلام ، لذا استحق أن يوصف بصفة خاصة  
به لا يتصف بها غيره من كلام سائر الناس وهى ما أطلق عليها النبى ﷺ  
« جوامع الكلم » •

ولقد عنى علماء الحديث بهذه الميزة التى يتميز بها كلام النبى ﷺ  
عناية ظاهرة ، فراحوا يطنون ما يعرضون له من الأحاديث تحديلا  
يوضح ما تنطوى عليه من المعانى الكثيرة الشاملة لأكثر القضايا الدينية  
فى كلمات موجزة معدودة كما هو الحال فى تحليلهم لحديث « الحلال  
بيّن والحرام بيّن ••• » وحديث « انما الأعمال بالنيات ••• » (٢٣)  
فمما قيل فى الحديث الأول :

« أجمع العلماء على عظم موقع هذا الحديث ، وأنه أحد الأحاديث  
التي عليها مدار الاسلام ( حيث ) قال جماعة : هو ثلث الاسلام وان  
الاسلام يدور عليه ••• وقال القرطبي : لأنه اشتمل على التفصيل بين  
الحلال والحرام وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب ، فمن هنا  
يمكن أن يرد اليه جميع الأحكام » (٢٤) •

والذى يتأمل الحديث النبوى عامة من هذا الجانب يستطيع أن يميز  
فيه ضربين من اليجاز ، أما أحدهما فهو ما يظفر فى صورة كلمات قليلة

(٢٢) انظر على سبيل المثال : الصنائع لابى هلال العسكري •

(٢٣) انظر على سبيل المثال عمدة القارىء ٢٩٩/١ ، فتح البانى ١٢/١

(٢٤) عمدة القارىء : ٢٩٩/١

دالة على قضية واحدة متعددة الجزئيات والمضامين والمعاني فيما روى عن حذيفة رضى الله عنه من قول النبي ﷺ : « كل معروف صدقة » (٢٥)، فكلمة « كل » جعلت المعنى شاملا لجميع وجوه المعروف ، لا يستثنى من ذلك شيء قل أو أكثر ، ذلك أنها أضيفت الى كلمة « معروف » وهى كلمة نكرة دالة على جميع وجوه الخير ، ثم ان ورود كلمة صدقة فى الخبر قد أفاد تحديد نوع الجزاء المباشر للمعروف الذى صنع فهو صدقه .

فصار الحديث بهذا المقتضى مشتقلا على كل وجوه المعروف وعنى توضيح الجزاء المباشر المرتبط بصنعه .

وكما يتضح ذلك أيضا فى هذا الايجاز الرفيع الذى يتضمن قضية دقيقة من أهم القضايا التى تنطوى عليها أحوال النفس البشرية فيما روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما من قول الرسول ﷺ : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الشر ريبة والخير طمأنينة » (٢٦) وغى رواية : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك وان أفتك المفتون » (٢٧) ، فهو قول موجز جامع لقضية دقيقة متشعبة الاتجاهات والمسالك، فان عرض الريب والتردد فى النفس فليتركها الى ما يطمئن اليه القلب المؤمن لأن الخير هو الذى تسكن اليه النفس وتستريح ، والشر هو الذى يبعث الريب والتردد والفرع .

والأمثلة على هذا النوع من الايجاز كثيرة كثيرة ظاهرة ومنها بالإضافة الى ما سبق قوله ﷺ : « من حسن اسلام المرء تركه مالا

(٢٥) الأصبهاني : الأمثال ٢٣

(٢٦) السابق : ٢٤ .

(٢٧) نفسه .

يعني « (٢٨) ، « من لا يرحم لا يُرحم » (٢٩) « ان الحياء من الايمان » (٣٠) وغيرها من الكلام الموجز الذي يتضمن كل حديث منه قضية واحدة متشعبة الاتجاهات والجوانب .

وأما انضرب الثاني فهو ما يظهر في صورة حديث طويل يظنه القارئ والسامع من باب الاطناب لا الايجاز ، وهو في حقيقته من الايجاز المرتبط بموهبة النبي ﷺ البيانية وقدرته اللغوية وسرعة بديهته، حيث يأتي الكلام في هذا الضرب مشتملا على مجموعة كبيرة من القضايا المتنوعة التي يتلو بعضها بعضا وترتبط جميعها في اطار أسلوب العطف أو غيره لتشك كل جملة منها أو عبارة موجزة قضية محددة ، بحيث يرى المتأمل لهذا الضرب من الكلام كأنه أمام مجموعة متتالية من الأحاديث الجامعة ، ومن هذا الضرب ما روى عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال (٣١): «ان أشرف الحديث كتاب الله . وأوثق المعرى كلمة التقوى . وخير الملل ملة ابراهيم . وأحسن السنن سنة محمد ﷺ . وأحسن الحديث ذكر الله . وأحسن القصص هذا الكتاب . وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها . وأحسن الهدى هدى الأنبياء . وأشرف القتل قتل الشهداء . وأعظم الضلالة الضلالة بعد الهدى . وخير العلم مانع . وخير الهدى ما اتبع . وشر العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى . وما قتل وكفى خير مما كثر وألهى . ونفس تنجيها خير من أماراة لا تحصيها . وشر العاذلة حين حضور الموت . وشر الندامة ندامة يوم القيامة . ومن شرار الناس

(٢٨) الأصبهاني : الأمثال ٣٤

(٢٩) السابق : ١٠٢ .

(٣٠) الدمشقي : البيان والتعريف ٤٣٠

(٣١) الأصبهاني : الأمثال : ١٦٠ : ١٦٢

من لا يأتي الحمعة الا دبرا ••• وخير الغنى غنى النفس • ورأس الحكمة  
 مخافة الله • وخير ما ألقى في القلب اليقين • والنوح من عمل الجاهلية •  
 والغلول من جمر جهنم • والكز كنز من انار • والشعر من مزامير  
 ابليس • والخمر جماع الاثم • والنساء حباثل الشيطان • والشباب  
 شعبة من الجنون • وشر المكاسب كسب انربا • وشر الماكل أكل مال  
 اليتيم • والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى فى بطن أمه •  
 وملاك الأمر خواتمه • وشر الروايا روايا الكذب وكل ما هو آت غريب •  
 وسباب المؤمن فسوق وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة  
 ماله كحرمة دمه • من يتألّ على الله يكذبه • ومن يغفر يغفر له • ومن يعف  
 يعف الله عنه • ومن يكظم الغيظ يأجره الله • ومن يعرف البلاء يصبر  
 عليه ، ومن لا يعرفه ينكره • ومن يسمع يسمع الله به • ومن يستكبر  
 يضعه الله • ومن يطع الشيطان يعص الله ، ومن يعص الله يعذبه الله»

فبالرغم من أن الأسلوب هنا قد اتخذ مظهرا عاما من الاطالة  
 المشككية بالنسبة الى ما سبق ذكره الا انه فى الحقيقة ينطوى على  
 مجموعة كبيرة من صور الايجاز فى أرفع صورته •

وقد أتاح هذا الايجاز للأسلوب مجموعه من سمات القوة  
 الأسلوبية حيث نجد : التتالى ، والتلازم ، والوقفات الذهنية ، وقوة  
 التركيز ، والتدرج من الأعلى الى ما يلزمه ويستتبعه ، ثم اظهار  
 حسنه باظهار سوء ما يناقضه •

وحين يتدبر العقل ما اشتمل عليه من المعانى يجد مجموعة كبيرة  
 يحتاج كل منها الى وقفة فكرية لفهمها واستيعابها، ولكنه لا يلبث فى كل حال  
 أن يجد معنى جديدا يحتاج هو أيضا الى وقفة فكرية فيها تدبر وتركيز  
 فكرى ثم لا يلبث أن يجد غيره وهكذا فى تناول مستمر واحكام تام •

وهو أسلوب يتطلب قوة فكرية ، وسرعة بديهية ، وقدرة على سوق الألفاظ الدالة على المعانى الذهنية والنفسية المقنعة المؤثرة ، وقوة على معرفة ما يناسب المقام من تقديم عظيم النفع للناس فى أسلوب يجمع القوة والسهولة فى آن واحد .

ويتخذ هذا الأسلوب النبوى الشريف ضربا آخر من القوة التعبيرية القائمة على تناول المعنى الواحد من جوانبه المتعددة حتى يحيط به احاطة تامة لا تترك دقيقة منه دون تناول كما هو الحال فى هذا الحديث الشريف الذى يصف فيه النبى ﷺ القرآن انكريم قائلا : « ان الله أنزل هذا القرآن أمرا وازجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا ، فيه نباكم ، وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، لا يخلقه طول المدد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الحق ليس بالهزل ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به فلج ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى الى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ، والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه . . . » .

فهو وصف دقيق جامع محيط بجوانب المعنى العام كله ، وكل جزئية من جوانبه تلتقى بما يتلوها من الجزئيات الأخرى من جهة وتلتقى بالمعنى الكلى العام من جهة ثانية وكأن جميع الجزئيات خيوط قوية مترابطة فى نظام متناسق لتلتقى كلها عند نقطة واحدة .

والى جانب هذا نجد تقسيما داخليا للمعانى فكل مجموعة من الجزئيات تتصل فى قوة بمعنى واحد مكونة بدورانها حول هذا المعنى الواحد وحدة مستقلة ذات جوانب متعددة تتصل تلقائيا بوحدة أخرى مماثلة .

يدرك هذا دَلَه إذا ما نظرنا الى منطلق هذا الوصف في صورة سؤال  
عن القرآن الكريم وصفاته •

فلا يجد المجيب عن هذا السؤال أسرع الى ذهنه من كون القرآن  
الكريم كتابا منزلا من الله عز وجل على نبيه ﷺ يتضمن خير الناس  
وصلاح أمورهم في الدنيا والآخرة •

ولئن حاول المتكلم التفصيل في ذلك فإنه يظل ماضيا في التأكيد  
على نفس هذه الفكرة ، كأن يوضح وجوب الايمان به، والتمسك بما يتضمنه  
من آيات الله البيّنات ، وضرورة تلاوته وما الى ذلك •

وبالرغم من صواب هذه الاجابة الا أنها لا تشتمل على ما اشتمل  
عليه حديث النبي ﷺ من المعاني الكثيرة الواردة في بيان وحسن تقسيم  
وقوة دلالة في جمع واضح وموجز ودال •

وقد لاحظ ذلك صاحب « تحرير التحبير » فقال : « فانظر الى  
انسجام هذه العبارة ، وما جاء فيها من البدع غير مقصود ، تشهد  
الخواطر السليمة أنه كلام مسترسل ، ... فصلوات الله وسلامه على  
من بعث بجوامع الكلم وأوتى هذه الفصاحة الرائعة وعلى آله وصحبه  
وسلم » (٣٢) •

ويلحق بالضربين السابقين ضرب ثالث من ايجازه ﷺ وقوة تركيز  
عباراته وجملته بصورة دقيقة •

حيث يستهل بعض الأحاديث بجملة موجزة قوية الدلالة تعلق  
بالذهن فتشغله بالتفكير في المعنى الذي يتسع مداه ، وتعمق دلالته الى  
الحد الذي يظل فيه العقل أمام مجموعات من المعاني التي تحملها

الألفاظ دون تناء أو توقف ، فتكون هذه الوقفة العقلية ممثلة مرحلة أولى أو قسما مستقلا غى بداية الحديث الشريف .

ثم يتبع ذلك مرحلة ثانية أو قسم آخر يرد فيه المعنى المجرد السابق الذكر فى صورة توضيحية يضرب فيها النبى ﷺ المثل بواحد أو أكثر من المعانى التى يحتملها التعبير الأول ثم ينمو ذلك كله بتنمية الأمثلة حتى يكون قد قدم للمخاطب مجموعة كافية من الأدلة على صحة كثير من المعانى الأخرى التى يمكن أن تقاس عليها .

من ذلك ما روى عن عقيل بن طلحة أن النبى ﷺ قال : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، ولو تفرغ من دلوك فى اناء المستسقى ، ولو تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وأسبال الأزار فانه من الخيلاء ، والخيلاء لا يحبه الله وإذا سبَّك رجل بما يعلم فيك فلا تسبه بما تعلم فيه فانه يكون أجر ذاك لك ووباله عليه » وفى رواية أخرى عن أبى ذر رضى الله عنه « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » (٣٣) .

ففى بداية الحديث الشريف نجد قوله ﷺ « لا تحقرن من المعروف شيئا » وهى كلمة موجزة قوية الدلالة تحتل كل وجوه المعروف دون تحديد ، وتتطلب وقفة ذهنية تأملية خاصة ، وبالانتقال الى ما تلاها فى بقية الحديث نجد مرحلة ثانية من التقريب الحسى للمعانى بوضع مجموعة من الصور الحسية التى تدخل تحت أنماط المعروف وتمثل أدناها مرتبة ليتخذ منها السامع مثلا يقيس عليه كل ما مائله أو سما عنه .

ولقد أحسن الجاحظ التعبير عما لاحظته من قوة الإيجاز فى البلاغة



النبوية ، وما تتسم به من قوة التعبير وثناء المعنى حين قال فى وصف كلام الرسول ﷺ : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثرت معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ٠٠٠ » (٣٤) •

وتلتقى الكثير من مظاهر هذه البلاغة النبوية أيضا فى ميزة أخرى جامعة للعديد من خصائص البيان فى الحديث الشريف ، وهى :  
« الايضاح والتقرير » •

وهنا يجد الدارس أنماطاً كثيرة واتجاهات متنوعة تختلف باختلاف المواقف والمناسبات التى يلقى فيها الحديث كما تختلف باختلاف المخاطبين أو السامعين عامه •

ويمكن ايجاز هذه الأنماط والاتجاهات فى بعض مظاهر هذا الايضاح وذلك التقرير • فمن أجمع الخصائص المتصلة بهذا الجانب ما أثر عن النبى ﷺ من اعادته بعض العبارات أو الكلمات وتكراره اياها عدة مرات صدورا عما يستدعى ذلك من الأسباب •

فقد روى البخارى والترمذى عن أنس - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ « كان اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لتفهم عنه ، واذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا » (٣٥) • وفى رواية أخرى عن أنس - رضى الله عنه - « كان رسول الله ﷺ يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه » (٣٦) •

(٣٤) الجاحظ : البيان والتبيين : ١٧/٢

(٣٥) صحيح البخارى : ٢٥/١ ، والترمذى : ٣٠٤/٤ وانظر رياض

الصالحين : ١٤٣/٢

(٣٦) تيسير الوصول : ١٩٨/٤

فالغرض من الاعدادة - كما هو واضح هنا - أن يفهم الكلام ،  
أو يعقل ليثبت في ذهن السامع ، ويتقرر المقصود منه في عقله ونفسه  
فتتحقق فائدته .

ودواعى التكرار أو الاعدادة فى البلاغة العربية عامة تفهم من ربط  
الكلام بالمقام وبأحوال المخاطبين ، يقول عبد القاهر الجرجانى : « ينبغى  
أن يعلم أنه كما يكون ( التأكيد ) للانكار قد كان من السامع فانه يكون  
للانكار يُعلم أو يُرى أنه يكون من السامعين» (٣٧) ويقول السيوطى:  
« من سنن العرب التكرير والاعدادة ارادة الابلاغ بحسب العناية  
بالأمر » (٣٨) .

ومن الخصائص العامة لهذا الأسلوب النبوى الشريف - فضلا عن  
ذلك - دقة اختيار الألفاظ والأساليب وقوة ربطها بالمواقف التى تعبر  
عنها ، ومراعاة ملاءمتها لأحوال المخاطبين وقدراتهم الفكرية المتنوعة  
ومشاعرهم وواقع حياتهم ومنها العناية بوسائل بيان المعانى سواء منها  
ما يتصل بالعناصر اللغوية الصوتية ، والدلالية ، أو عناصر الشرح  
والتفصيل ، أو ما يتصل بتراكيب الأسلوب تقديما وتأخيرا ، فصلا  
وبوصلا ، خبرا وانشاء ، تقسيما وجمعا وغير ذلك .

وكذلك ما يتصل بالتصوير البيانى وما يتضمنه من وسائل التقريب  
والبسط والتحديد والتأثير والاعتناع .

وكذلك ما يتصل بعناصر التشويق وجذب الذهن كما هو الحال فى  
الأساليب القصصية ، وكما يتضح فى غير ذلك من الأساليب القائمة  
على جعل المثلى طرفا فى حوار هادف يصل من خلاله الى تقرير

(٣٧) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز ٢٥٢

(٣٨) السيوطى : المزمهر ١/٣٢٢ .

الحقيقة التي يتضمنها الأسلوب من خلال الفهم الناشئ عن المناقشة الهادئة واثارة انتباهه الى ما غفل عنه والأخذ بيده الى فهم ما شق عليه من الأمور ، أو اخباره بما يجهل منها •

كما يتضح ذلك فى بث العناصر الممهدة للفكرة والمهيئة لاستيعابها من خلال التقديم المجلل لها ، أو التنبيه الى جانب خفى منها أو ما الى ذلك •

وإذا كان فى هذا الاجمال بيان للملامح عامة بارزة لخصائص هذا الأسلوب النبوى الشريف ، فان الدراسة التحليلية المفصلة - بلاغيا ولغويا - للأسلوب فى الفصول الثانية سوف تسعى الى ايضاح الخصائص الدقيقة التي اتسم بها الأسلوب فى الأحاديث اشريفة التي تتضمنها الدراسة فى كل فصل من فصول هذا الكتاب ان شاء الله تعالى •

## الفصل الثاني

### من خصائص الألفاظ في الأسلوب النبوي الشريف

• أولا : بين الألفاظ والموقف في أسلوب الحديث النبوي الشريف •

تحتل خصائص البلاغة الفبوية في هذا الجانب الكثير من درجات القوة والسمو مكتسبة أهميتها من وضع القضايا والمواقف والدلالات في مواضعها الموحية بأهمية كل منها وأثره ، وبيان درجة خطورته أو جانب تميزه وفضله •

لذا تعددت مظاهر هذه الخصائص وكثرت كثرة ظاهرة صدورا عن قوة تركيز المعاني ، ودقة تحديد الدلالات ، وما يحمله ذلك من الأثر •

من ذلك وضع اللفظة موضعا موضحا خطورتها في اطار من التجريد والتعميم اللذين ينطلقان بها من قيود المواقف الخاصة ، والتحديد والحصص ، الى هذا الاطار الذي تكتسب فيه مرونة وسعة وعمقا ، فتصير صالحة للارتباط بالكثير من المواقف والدلالات ، والارتباط كذلك بالكثير من درجات التأثير النفسي المتعلق بالترهيب أو الترغيب ، فتدفع الى تأمل المعنى قبل النطق بالتعبير الدال عليه ، وتأمل الأثر النفسي لهذا التعبير قبل اصداره ، وتأمل ما يترتب على ذلك الأثر من أمور •

وتحمل — فضلا عن ذلك كله — خاصة الاشتغال على قوة الاسترجاع والمعالجة لما سبق من المواقف ، وتأملها تأملا يدعو الى محاولة التخلص من آثار بعضها •

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة من أنه سمع النبي ﷺ يقول (١):  
« ان العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق  
والمغرب » .

ومن أبرز هذه الخصائص وأدق مظاهرها اشتغال بعض الأساليب  
على قدر كبير من المعالجة اللغوية القائمة على نقد الأسلوب  
وبيان أخطاء الاستعمال اللغوي لبعض العبارات في أحوال معينة  
ومواقف خاصة ، تقوم فيها هذه المعالجة بدور التوجيه وتصحيح  
الخطأ وبيان السبب اثباتا للصواب في الذهن وقوة تأثير واقناع به .

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه من أن رسول الله  
ﷺ قال (٢) : « اذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لى ان شئت ؛  
ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة فان الله لا يتناظمه شيء أعطاء » .

فهنا نجد تحديد الموقف « وهو وقف الدعاء » وربطه بأداة  
الشرط « اذا » فى صدر الحديث مما يساعد على قوة ربط الشرط  
بجوابه ، ثم اتباع ذلك بالنهى تصحيحا وتوجيها « فلا يقل : اللهم  
اغفر لى ان شئت » ثم اتباع ذلك بلكن التى يتبعها الصواب مما يناسب  
مقام الدعاء وسهوه وما يلزمه من دقيق المعانى وقوة الدلالة : « ولكن  
ليعزم المسألة وليعظم الرغبة » ثم الانتهاء بما يحمل برهان ذلك وسببه  
اقناعا به وتأكيذا وترسيخا له فى نفس وعقل السامع « فان الله  
لا يتناظمه شيء أعطاء » .

ومما يرتبط بذلك من الخصائص الأسلوبية واللغوية ما يبنى عليه  
من أمور ترتبط بنفس الأسس وتقوم عليها ؛ فاذا كان الدعاء يرتبط

(١) صحيح مسلم : ٨٣٦/٥

(٢) صحيح مسلم : ٥٢٧/٥

بالرغبة فى الاجابة ، فان انتظار الاجابة لا بد أن يرتبط بأداب تعبيرية تتفق وعمق الأصل الذى يصدر عنه موقف الدعاء ، وهى من أدق وأخفى المعانى النفسية التى تحتاج الى إيضاح وتوجيه ومعالجة ، لذا نجد دقة التعبير عنها فى الحديث النبوى وإيضاحها محددة دقيقة دالة على نتائجها وآثارها ، ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - من قول النبى ﷺ (٣) :

« يستجاب لأحدكم ما لم يعجل » فقوله : « ما لم يعجل » تحديد لحال الداعى ، وتوضيح لما ينبغى أن يكون عايه من أمل لا ينقطع ودعاء لا يفتر ، ورغبة دائمة ، وانتظار متصل مع يقين ثابت •

وإذا كان معنى هذه الجملة « مالم يعجل » محتاجا الى شيء من الايضاح الذى يزيل ما قد يتعلق بها من المعانى العامة ، فان ما يليها من الجمل تأتى موضحة لها حيث يتبعها النبى ﷺ بهذا التفصيل الذى يقول فيه : « فيقول » [ أى الداعى ] : « قد دعوت فلان ، - أو - فلم يستجب لى » وفى رواية : « يستجاب لأحدكم مالم يعجل ، فيقول : قد دعوت ربي فلم يستجب لى » وفى رواية : « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بائثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل ، قيل : يا رسول الله : ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لى ، فيستحسر (٤) عند ذلك ويدع الدعاء » •

واللفظ فى الحديث الشريف محدد الدلالة لا يقصد به الا ما ورد

(٣) صحيح مسلم : ٥٧٨٧/٥

(٤) حسر واستحسر اذا أعيا وانقطع عن الشيء والمراد أنه ينقطع عن الدعاء ، ومنه قوله تعالى : « لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون » أى لا ينقطعون عنها •

لأجله فى سباقه ، فهو يرتبط بمعناه دون سواه وحين يحاول من سمع الحديث أن يعيده فينسى هذا اللفظ ويضع موضعه ما يبدو أنه مرادف له أو مؤد دلالاته يردّه النبي ﷺ دون أن يسمح له بهذا التبديل الذى يترتب عليه قدر من تغيير دلالة اللفظ الأصلي المنتقى لغرض معين •

ومن الأدلة الواضحة على ذلك حديث رواه سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن رسول الله ﷺ قال (٥) :

«إذا أخذت مضجعتك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم نى أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجأ منك الا إليك ، آمنت بكتابتك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت واجعلهن من آخر كلامك ، فان مت من ليلتك مت على الفطرة • قال : فرددتهن لأستذكرهن فقلت : آمنت برسوك الذى أرسلت • قال : قل : آمنت بنبيك الذى أرسلت » ففى هذا التعديل اللغوى الدقيق للكلمات بيان وتديد للمعنى ، وأشعار بانفروق الدقيقة بين الدلالات المتقاربة ، فجملة : «آمنت برسوك الذى أرسلت » لا تحل محل : «آمنت بنبيك الذى أرسلت » • وتميز : «انما رده لأن قوله : «آمنت برسوك » يحتمل غير النبي ﷺ من حيث اللفظ ، واختار المازرى وغيره : أن سبب الانكار أن هذا ذكر ودعاء فينبغى فيه الاقتصار على اللفظ الوارد بحروفه ، وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف ، ولعله أوحى إليه ﷺ بهذه الكلمات ، فيتعين أداؤها بحروفها ، وهذا القول حسن ، ووقيل : لأن قوله : «ونبيك الذى أرسلت» فيه جزالة من حيث صيغة الكلام ، ووقع جمع النبوة والرسالة ، فاذا قيل : رسولك الذى أرسلت ، فان هذا الأمر مع ما فيه من تكرير لفظ «رسول وأرسلت»

وأهل البلاغة يعيونه .. ( غانه ) لا يلزم من الرسالة النبوة  
ولا عكسه ... » (٦) •

ويرد مثل هذا الأسلوب الذى يعنى فيه النبى ﷺ بتحديد دلالات  
الألفاظ وبيان الفروق بين هذه الدلالات فى أنماط أسلوبية متنوعة بتنوع  
المعانى والمواقف •

لفظة «عبد» ولفظة «رَبّ» لا ينبغى أن نضافا الى غير الله سبحانه  
وتعالى ، ونظرا لأهمية هذه الدلالة ومنعا للوقوع فى خطأ الاستعمال  
اللغوى المتعلق بها فان النبى ﷺ يوضحها أيضا مفعلا مؤيدة بسببها  
أو علتها ، وواضعا البديل الذى يستغنى به عن الاستعمال الخاطيء •

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال (٧) : قال رسول الله ﷺ :  
« لا يقوان أحدكم عبدى ، فكلكم عبيد الله ، ولكن ليقل : فتاى ، ولا يقل ،  
العبد ربى ولكن ليقل سيدى » • وفى رواية (٨) :

« لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم  
اماء الله ، ولكن ليقل غلامى وجارىتى وفتاى وفتاتى » •

ذلك أن « حقيقة العبودية انما يستحقها الله تعالى • وأما غلامى  
وجارىتى وفتاى وفتاتى فليست دالة على الملك كدلالة عبدى مع أنها  
تطلق على الحر والمملوك ، وانما هى للاختصاص » (٩) •

ونجد ضربا من هذه الدقة اللغوية يتخذ مظهرا آخر من مظاهر  
تصويب الاستعمال اللغوى لبعض الألفاظ التى تتقارب دلالاتها أو

(٦) صحيح مسلم : ٥/٥٦١

(٧) صحيح مسلم : ٥/١٠٦

(٨) صحيح مسلم : ٥/١٠٥

(٩) صحيح مسلم : ٥/١٠٦



تتماثل ، ولكن بعضها يكون أفضل استعمالاً من بعض ارتباطاً بأدب  
التعبير وتحسين الأسلوب .

ومن هذا القبيل ما روته عائشة - رضى الله عنها - قالت (١٠) :  
« لا يقولن أحدكم : خبثت نفسى ، ولكن ليقل كَفَيْتَ نفسى » .

« وانما كره لفظ الخبث لبشاعة الاسم ، وعلمهم الأدب فى الألفاظ ،  
واستعمال حسناتها وهجران خبثها ، قالوا : ومعنى لقيت كَفَيْتَ ، ووفانى  
ابن الأعرابى : معناه : ضاقت ، فان قيل : فقد قال ﷺ فى الذى ينام  
عن الصلاة فأصبح خبيث النفس كسلان ، قال القاضى وغيره : جوابه :  
أن النبى ﷺ مخبر هناك عن صفة غيره ، وعن شخص مُبْتَهَم مَذْمُوم  
الحال ، لا يمتنع اطلاق هذا اللفظ عليه (١١)

وحين ترتبط اللفظة بمعنى غيبى غير معلوم وغير داخل فى اطار  
علم المتكلم مطلقاً ، فانه يجب عليه تركها الى غيرها من الألفاظ المرتبطة  
بالدلالات الظاهرة الداخلة فى اطار علمه ، وهنا نجد تصويب النبى ﷺ  
أخطاء التعبير بأسلوب يمتزج فيه اتجاهه الخلقى فى التعامل بدقته  
فى التعبير

ومن مظاهر ذلك ما يتضح فى حديث رواه عامر بن سعد بن أبى  
وقاص عن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ (١٢) : أعطى رهطاً -  
وسعد جالس - فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم الى ، فقالت :  
يا رسول الله : مالك عن فلان ؟ فوالله انى لأراه مؤمناً . فقال : أو مسلماً .  
فسكت قليلاً ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لقاتلى فقالت : مالك عن فلان ؟

(١٠) صحيح مسلم : ١٠٧/٥

(١١) صحيح مسلم : ١٠٧/٥

(١٢) شرح البخارى : ٧٩/١

فوالله انى لأراه مؤمنا • فقال : أو مسلما • ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت  
لمقاتلى ، وعاد رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا سعد ، انى لأعطى الرجل  
وغيره أحب الىّ منه خشية أن يكبه الله فى النار » •

فهنا يلفت النبى ﷺ نظر المتكلم الى تعديل كلمته ، غير أنه يعود  
لترديدها ، فيقتضى هذا الموقف تكرار لفت نظره تأكيدا لضرورة التعديل ،  
وحين يعود مرة أخرى لاستعمالها يكرر النبى ﷺ تنبيهه حتى يعدل عما  
يقول ، ثم ينتهى الأسلوب بهذه النهاية الجامعة التى تحمل سبب هذا  
التعديل وذلك الرفض « انى لأعطى الرجل وغيره أحب الىّ منه خشية  
أن يكبه الله فى النار » فتأتى معلنة تعليلا منطقيا ، واضحا مزيلة ما يتعلق  
بالموقف من وهم وفهم مخالف للحقيقة •

وحين ترتبط المعالجة اللغوية فى الحديث الشريف بمواقف أخرى  
متنوعة فانها تنبثق فى كل حال عما يلائمه من خصائص أسلوبية تتفق  
ودرجة خطورته حتى يصير من الواضوح والقوة بحيث يضع الحدود  
الفاصلة والحلول القوية التى يمكن قياس غيرها من المواقف عليها مما  
يضىء على الأسلوب طابع التجريد والتميز •

فحين يكون الخطأ الأسلوبى غير ملحوظ ، وما ينطوى عليه من  
أسباب دقيقة دعت الى رفضه غير ظاهرة ، فاننا نجد نمطا من المعالجة  
الأسلوبية المرتبطة بهذا الموقف دون سواه ، من ذلك ما رواه عدى بن  
لحاتم من أن رجلا خطب عند النبى ﷺ فقال (١٣) :

« من يطع الله أو رسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى » فقال  
رسول الله ﷺ : « بنس الخطيب أنت » ، فهنا نجد مبادرة بربط أسلوب

الرجل بالحكم عليه أولا ، ثم اتباع ذلك مباشرة بوضع الحل المناسب وذلك بالتصريح الواضح بالأسلوب الذي يجب استعماله فى هذا الموقف حيث يقول : « قل : ومن يعص الله ورسوله ، ( قال ابن نمير ) : فقد غوى » • فقد تضمن هذا التعليق تعبيراً مناسباً للمقام ، أما سبب الانكار فهو : « تشريكه فى الضمير المقتضى للتسوية ، وأمره بالعطف تعظيماً لله تعالى بتقديم اسمه » ( ١٤ ) •

وحين يكون الخطأ الأسلوبى ناشئاً عن عدم مناسبة السؤال للمقام تكون الإجابة — ان حصلت — موقعة فى أمر يوجب المشقة والحرَج لما يتعلق به من صعوبة التنفيذ والالتزام ، نجد الأسلوب فى هذه الحال يتسم بطابع خاص من المعالجة المتفككة وهذا الموقف تمام الاتفاق •

ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو هريرة — رضى الله عنه — قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال ( ١٥ ) : « أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً • فقال رسول الله ﷺ : لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم • ثم قال : ذرونى ما تركتكم ، فانما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فدعوه » • فكلمة « نعم » فى مواجهة هذا السؤال بالرغم من ايجازها تحمل معنى الالتزام الواجب لغير الممكن مما يوقع السائل وغيره من سائر من يُفرض عليهم هذا الأمر فى حرج دائم لا قدرة لهم عليه ، فالسؤال لا مجال له ، ولا يصح أن يوجد أصلاً ، لذا اقتضى هذا المقام عدم الإجابة بالرغم من تكرار السؤال ثلاث مرات • ثم صار الأمران هما : السؤال المكرر ، والصمت عن الإجابة فى حاجة الى بيان وتعليل ،

( ١٤ ) صحيح مسلم ٥٢٢/٢ ، ٥٢٣ •

( ١٥ ) صحيح مسلم ٤٨١/٣ •

وهنا أتى القسم الثالث من الحديث وهو يتضمن شرحا مفصلا وبيانه واضحا في قوله : « لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم » فالاجابه يترتب عليها الوجوب لذلك لم تحصل ، والوجوب يترتب عليه عدم الاستطاعة ، ولذلك فانه لم يحصل أيضا . وكى لا يتكرر مثل هذا الموقف الذى قد يصدر فى مواقف مماثلة أتى قسم رابع من هذا الأسلوب المتعلق بايضاح ما يجب وترك ما لا يجب فى ألفاظ مجردة تجريدا عاما لتصلح لجميع المواقف المماثلة بقوله : « ذرونى ما تركتكم فانما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شىء فعدوه » .

ومن هذا القبيل أيضا - أو هو قريب منه - نهى النبى ﷺ عن كثرة الكلام فيما لا ينفع وتعليه لذلك بأسلوب مقنع متصل بأسبابه ونتائجه فقد روى ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قوله (١٦) ، « لا تتكرر الكلام بغير ذكر الله ، فان كثرة الكلام قسوة للقلب ، وان أبعد الناس من الله القلب القاسى » .

وهكذا نجد حرص النبى ﷺ على بيان أهمية الكلمة ، ووضعها فيما يناسبها من المواقف والأحوال وضعا لا يماثله فيه غيرها من الألفاظ ولا يحل فيه محلها لاختلاف دلالاته ، أو لكونه غير مؤد لما تؤديه من الوظائف وما يترتب عليه من الأمور .

## ثانياً : دور الألفاظ فى بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم بين المجالين اللغوى العام والذنى الخاص

ومن أظهر ميزات البلاغة النبوية دقة تحديد دلالات الألفاظ والتعريف بالمبهم منها • وتوضيح الغامض ، وإبراز الدلالات الجديدة التى لم يكن يعرفها الناس بمفهومها الإسلامى المحدد الذى ورد بالأحاديث النبوية الشريفة ممثلاً ثروة لغوية دينية مميزة •

ولم يرد التحديد الدلالى فى الحديث الشريف جافاً مجرداً مما يوضح أهميته أو خطورته ، بل انه ورد ضمن أساليب بلاغية متنوعة الأتماط ، متلائمة مع ما تعبر عنه من المواقف ، وترمى إليه من الغايات ، مبرزة فى كل حال أهمية الدلالة ووظيفتها وقوة أثرها •

ويتخذ الأسلوب فى ذلك مجموعة من الاتجاهات البارزة ، منها التعريف بألفاظ كانت معروفة الدلالة من قبل بشكل عام ، فيرد التعريف بها فى سياق الحديث الشريف على غير المعروف منها •

ومن ذلك ألفاظ : «الرَّقُوب» و «الصُّرْعَة» و «المُفْلِس» • ولما كانت دلالات هذه الألفاظ معروفة من قبل معرفة عامة ، فان التعريف بدلالات جديدة لها يحتاج الى قدرة أسلوبية بارعة تتجسج فى ترسيخ هذه الدلالة الجديدة التى يراد اثباتها لأهميتها وارتباطها بأمر تتعلق بالقضايا الدينية الهامة •

لذا فان الاستهلاك بالاستفهام أو السؤال عن هذه الألفاظ مع سبق المعرفة بها يعد واحداً من وسائل إثارة الذهن والتبنيه الى أهمية الموقف ، مما يستدعى بالضرورة استحضار وتذكر الدلالة المعروفة أولاً ، فاذا ما جاء التعريف أو التحديد الجديد مقترناً بها رسيخ بالذاكرة لمصادفته مفاجأة المعرفة الخاصة المخالفة لتلك المعرفة العامة السابقة •

وقد يتضمن الحديث الواحد في هذا المجال التعريف بلفظتين اثنتين ، تمثل كلتاها جانباً دينياً يتعلق بأمر له أهميته وقدره ، من ذلك ما يتضح في حديث شريف رواه عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ (١٧) : « ما تعدون الرقوب فيكم ؟ قال : قلنا : الذى لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذى لم يُقدَّم من ولده شيئاً . قال : فما تعدون الصُّرعة فيكم ؟ قال : قلنا الذى لا يصرعه الرجال . قال : ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب » .

فهنا بيان لعنيتين متعلقين بقضيتين من أدق القضايا المتصلة بقوى النفس ومقدار سموها . احدهما تتصل بقوة الصبر على المصائب الشديدة . والثانية : قوة النفس على كظم الغيظ . والاثنتان يجمعهما إطار واحد أو دلالة واحدة وهى « قوة الايمان » أو « الجهاد » أو ما يتصل بذلك من المعانى المرتبطة بقوة النفس على المدافعة فى سبيل هدف أعظم .

وقد جاء التحديد الدلالى هنا على عكس المعروف الشائع حيث ورد مناقضا له تماما ، نافية لمضمونه بليس ، ثم متخذاً من ذلك المضمون اتجاهاً عكسياً مناقضا له ليثبت مكانه ، ابرازاً لهذا النقيض بنقيضه ، وتمكيناً له فى النفس ، واقراراً له فى العقول .

فاذا كان « الرقوب » فى الظاهر من لا يولد له أو « من لا يعيش له ولد » (١٨) فهو فى الحقيقة الشرعية « من لم يمت له أحد من أولاده فى حياته فيحتسبه ، ( حتى ) يكتب له ثواب مصيئته به وثواب صبره عليه ، ويكون له فرطاً وسلفاً » (١٩) .

(١٧) صحيح مسلم : ٤٦٨/٥

(١٨) ، ١٩ نفس المصدر والصفحة .

وإذا كانت « الصرعة بضم الصاد وفتح الراء ( أصلها ) فى كلام العرب الذى يصرع الناس كثيرا فانه ليس كذلك شرعا ، بل هو من يملك نفسه عند الغضب ، فهذا هو الفاضل المدوح ، الذى قل من يقدر على التخلق بخلقه ومشاركته فضيلته بخلاف الأول » ( ٢٠ ) •

وكما يتضمن الحديث الواحد — هنا — التعريف بلفظتين متصلتين بدلالة واحدة ، فانه يتضمن فى مواضع أخرى التعريف بلفظة واحدة — معروفة الدلالة بشكل عام كذلك لدى السامعين — تتصل دلالتها الجديدة التى يتضمنها الحديث بكثير من القضايا المتعلقة بمهام الأمور ، ويستهل التعريف بها أيضا بمثل ما سبق من الاستفهام •

ومن هذا القبيل كلمة « المَفْئِيسِ » ، فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال ( ٢١ ) : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع • فقال : ان المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » •

ويستوعى الانتباه هنا مجموعة من الخصائص الأسلوبية ، منها استعمال كلمة « تدرون » ، بينما كان الاستعمال فى الحديث السابق لكلمة « تعدون » •

وبتأمل كلا العنوين وصلتهما بمضمون ما وردتا فى سياقه من الأساليب ، يتضح أن الاختيار اللغوى فى كلا الحالين مرتبط بما يقتضيه من المواقف والقضايا •

• (٢٠) صحيح مسلم : ٤٦٨/٥

• (٢١) صحيح مسلم : ٤٤٣/٥

فإذا كان المعنيان اللذان اشتمل عليهما الحديث الأول يتصلان بقوى النفس التي لا سبيل الى التيقن من العلم بها والمقطع فى الحكم عليها لخفائها ، فقد ناسب ذلك أن يكون مضمون السؤال بقوله : « ما تعدون » ؟ لأن ذلك - كما يقول اللغويون - من عد بمعنى حسب وظن .

وحين تغير مقام السؤال ودار مضمونه حول قضية تتصل بالعلم واليقين ، وكان الجهل بها من باب الغفلة الشديدة عن أمر مهم ، وكان الجانبان معا متعلقين بالدراية وعدمها ، ناسب ذلك أن يكون مضمون السؤال بقوله : « أتدرون » ، لأن ذلك - كما يقول اللغويون - من : درى الشيء أو بالشيء أى توصل الى علمه ، وأدرى الرجل بالشيء : أعلمه به .

ومما يجدر بالعناية والملاحظة أيضا هذه المجموعة من الخصائص الأسلوبية الواردة فى سياق تعريف « الفليس » تعريفا لم يعهده الناس من قبل مما يحتاج لغرابته الى الايضاح والتأكيد والتحديد مع التفصيل . وقد حقق هذه الغايات كلها استخدام حرف التوكيد ان ، وازضافة أمة الى ياء المتكلم - عَلَيْهِ - فى قوله « أمتى » وتحديد ذلك بيوم « القيامة » ، وذكر ما يوجب الدهشة لكونه غير ظاهر من وجود « صلاة وصيام وزكاة » فى أعمال ذلك الموصوف ، واقتران جميع ذلك - توضيحا وتفصيلا وتحديدًا - بغيرها من الأعمال المناقضة لها فقد « شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا » ولا يخفى ما يرتبط به تكرار كلمة هذا مع كل فعل مذكور ومعطوف على غيره من دلالات تتصل بتأكيد كثرة حصول هذه الأفعال ، وكثرة من لحقهم الأذى بخصوصها .

ثم يتبع ذلك اقترانه بنتائجه الحتمية المترتبة عليه ليصير ذلك الفليس



هو الفلاس الحقيقي الذي يستوجب أمره الدارانية به للحذر من الوقوع  
فى مصيره •

ومن الاتجاهات البارزة فى هذا المجال أيضا التعريف بدلالات ألفاظ  
لم تكن معروفة من قبل — كما يدل على ذلك سياق الحديث الشريف —  
مثل ألفاظ «الغيبية ، والعضه ، والهرج ، والمفردون ، والمجاهرين» •

فما ورد فى تعريف لفظه «الغيبية» وبيان الفرق الدلالى بين  
الفاعلين «اغتاب» و «بهت» مارواه أبو هريرة — رضى الله عنه — من  
أن رسول الله ﷺ قال (٢٢) : «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله  
أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت ان كان فى أخى ما  
أقول؟ قال : ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد  
بهته» • وهنا استهل الحديث أيضا بقوله : «أتدرون» فى سياق  
الاستفهام الذى سبق إيضاح أهمية البدء به •

ولا يخفى ما تتصل به الدارانية من مضمون هذا الحديث الدائر  
حول قضية تتصل بالعلم الواجب الذى يعد الجهل به غفلة شديدة عن  
أمر يتصل بصدق الايمان وقوته وما يرتبط بذلك من نتائج لها خطورتها •

ولا يخفى أيضا ما يدل عليه قول المسئولين : «الله ورسوله أعلم»  
من عدم العلم بهذه الدلالة ، ولا يخفى كذلك ما تدل عليه كلمة «أخ»  
واضافتها الى كاف الخطاب من المعانى ، ثم ما يدل عليه الجواب عن  
مسئال المسائل : «أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول؟» بقوله : ان  
كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته» من دقة تحديد  
الفرق بين دالتين متقاربتين تختلفان فى الدرجة وتتفقان فى الانتباه  
على صفة واحدة منهنى عنها •

وفى مجال الاخبار بدلالة لفظة مجهولة المعنى لدى السامعين ،  
وتتطلب معرفتها الانتباه الى ما تتضمنه من أصول تتصل بالدين والخلق .  
يرد الحديث مستهلا بالسؤال « ألا أنبئكم » ، ويتبع السؤال بالجواب  
مباشرة دون منح السامع فرصة الرد ، لأنه من المعلوم لدى السائل أن  
المسئول جاهل به .

ولما كان السؤال عن لفظ غير معروف مطلقا ، كان التعريف به  
من الانباء الذى يفيد الاخبار والاعلام .

فمن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ان محمدا ﷺ  
قال (٢٣) : « الا أنبئكم ما العضة (٢٤) ؟ هي النميمة القالة بين الناس ،  
وان محمدا ﷺ قال : ان الرجل يصدق حتى يكتب صديقاً ويكذب  
حتى يكتب كذاباً » .

ومن مظاهر الدقة الأسلوبية هنا ربط هذا التعريف بجائبين لهما به  
أوثق اصلة ، فالامتناع عن النميمة من الصفات الصادرة عن صدق  
الايمان وقوته ، والصدق له درجاته ، وكثرته تدل على ثباته ، وثباته  
دلت عليه صيغة المبالغة « صديقاً » ، والاتصاف بالنميمة من الصفات  
الملازمة لضعف الايمان مما يصدر عنه التخلق بعكس ما سبق من الكذب  
والاسراف فيه ، وملازمته مما يوصل صاحبه الى أشد درجاته سوءاً  
وهي ما تدل عليه صيغة المبالغة المضادة « لصديق » وهي « كذاب » .

(٢٣) صحيح مسلم ٥/٦٤٦

(٢٤) العضة : هذه اللفظة رووها على وجهين : أحدهما (العضة) بكسر  
العين وفتح الضاد على وزن العدة والزنة ، والثانى ( العضة ) بفتح العين  
واسكان الضاد على وزن الوجه ، والثانى هو الأشهر فى كتب الحديث  
وكتب غريبه ، والاول أشهر فى كتب اللغة . وتقدير الحديث : ألا أنبئكم  
ما العضة الفاحش الغليظ التحريم انظر صحيح مسلم ٥/٦٤٦

ومما أضفى على هذين المعنيين دقة وتحديدًا بارزين استخدام  
لفظة حتى التي تفيد الغاية .

ومن الاتجاهات البارزة في هذا المجال نفسه التعريف بدلالة كلمة  
غير مألوفة أجمل ذكرها مقترنة بغيرها من الكلمات المألوفة ، مما يستدعي  
الاستفسار عنها ، فيرد التعريف محددًا وواضحًا .

ومن هذا القبيل لفظة « الهرج » التي وردت فيما رواه أبو هريرة  
رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (٢٥) « يتقارب الزمان ، ويُلقَى  
الشح ، ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل » .

وفي رواية (٢٦) عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « لا تقوم  
الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر  
الفتن ، ويكثر الهرج ، وهو القتل القتل ، حتى يكتر فيكم المال فيفيض » .

ولم يرد في الرواية الثانية السؤال عن معنى « الهرج » بل ورد  
الايضاح المباشر له بصفة خاصة مما يشير الى دقة النبي ﷺ وحرصه  
على ايضاح ما يعلم أنه غريب أو خفى الدلالة خطير الأثر .

ومن الألفاظ التي استدعي ذكرها الاستفسار عنها أيضا « المفردون »  
فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال (٢٧) : كان رسول الله ﷺ يسير  
في طريق مكة فمر على جبل يقال له 'جمدان' . فقال: سيروا هذا جمدان  
سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله؟ قال : الذاكرون  
الله كثيرا والذاكرات » .

(٢٥) صحيح مسلم ٥/٥٢٧ ، ٥٢٨ ،

(٢٦) مختصر البخارى : ١/٢٤٩٦ ،

(٢٧) صحيح مسلم ٥/٥٣٤ ،

ومنها : « خرفة الجنة » ، فعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال (٢٨) • من عاد مريضا لم يزل في خرفة الجنة ، قيل : يا رسول الله وما خرفة الجنة ؟ قال : جناها •

ومنها كلمة « الاجهار » فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (٢٩) : كل أمتى معافاة الا المجاهرين ، وان من الاجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ثم يصبح قد ستره ربه فيقول : يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، فيبيت يستره ربه ، ويصبح يكشف ستره الله عنه •

ومن الملاحظ أن التعريف والتحديد الدلالى فى كل من هذه المواضع ورد مسبقا بما يشعر به وينبه الى أهميته أو خطورته أو تميزه وفضله وسمو قدره أو ضعة شأنه وهوانه •

من ذلك ما سبق به لفظ « الهرج » من سياق أوضح كونه امرا مهولا غريبا فقد بدأ الحديث بقوله : « لا تقوم الساعة حتى ••• » ثم أتبع ذلك بذكر مجموعة من المظاهر المرتبطة بالهول والشدة •

ومنه ما وردت فيه لفظه « المفردين » من سياق مشعر بأهميتهم وعظيم شأنهم حيث قال : « سبق المفردون » •

وكذلك ما ارتبط به ذكر « خرفة الجنة » من سياق مشعر بدلالاتها وما يرتبط بها من عظيم الشأن والأجر حيث ارتبطت بزيارة المريض ، وبصيغة الاستمرار الدالة على عدم الانقطاع فى قوله : « لم يزل فى خرفة الجنة » •

أما «المجاهرون» فقد ارتبط ذكرهم من أول الأمر بسياق مشعر بدمهم وسوء مصيرهم ، وهو أسلوب الاستثناء ، والمستثنى منه هو «الكل» «كل أمتى معافاة» فحكم الكل «المعافاة» وحكم المستثنى ضده ، مما يشعر بهوان أمرهم ، وبشاعة سلوكهم وذمه •

وهذه جميعها وغيرها من مظاهر بلاغة الأسلوب النبوي في هذا المجال ، وهي مظاهر لها قدرها وقيمتها في تمكين الدلالة في العقول وتقريرها بها ، لأن المعنى إذا ما وضع في سياق مشعر به قبل ادراكه محددًا ، ثم ورد بهذا التحديد الواضح المتميز كان بمثابة التكرار ، فكأنه ورد إلى الذهن مرتين ، مرة بشكل عام مجمل فيه بعض الإبهام ، ومرة بشكل واضح مفصل فيه دقة التحديد ، فإذا ما أضيف إلى ذلك جميع العناصر الأسلوبية التي ساعدت على ظهوره من استفهام أو إثارة ذهنية ، أو مقارنة فكرية ، أو استرجاع لما يتصل به من المعاني المشابهة أو المضادة ، أو غير ذلك اتضح ما تتطوى عليه هذه الأساليب من اتجاهات وخصائص تميزها •

ومن الاتجاهات البارزة أيضًا في هذا المجال ورود بعض الألفاظ المقترنة بتحديد دلالاتها المخصوصة من بين دلالات أخرى كثيرة يمكن أن يرتبط بعضها ببعض في الأذهان •

وحين تكون الألفاظ من هذا النوع الذي تتعدد دلالاته لتكون مجموعة من الدرجات المختلفة سموا وضعفاً ، فإن تحديد أحسن أو أقوى درجات هذه الدلالة يكون أمراً صعباً دقيقاً يتطلب كثيراً من مظاهر البراعة التعبيرية •

ومن هذه الألفاظ : «التقوى — الإيمان — الإسلام» فكل منها له درجاته ، وليس الناس في الاتصاف به سواء بل هم أيضاً درجات

نفى اتصافهم بها ، وفيما يترتب على ذلك من نتائج تتصل بمصائرهم •  
وتتضح مجموعة من خصائص دقة الأسلوب في هذا المجال في  
تعريف كلمة « المتقوى » أو « المتقى » في ايجاز وحصر محدد ومجرد  
يصلح لقياس جميع الأعمال الداخلة في اطار معناه عليه ليتبين قدره  
ودرجة وكيفية الالتزام به على هذا النحو الذي ورد في حديث شريف  
رواه عطية بن عروة السعدي الصحابي رضى الله عنه قال : قال رسول  
الله ﷺ (٣٠) « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به  
حذرا مما به بأس » •

فان الحذر مما به بأس يصدر عن الخوف ، والخوف في ذلك  
الاطر يصدر عن خشية الله ، وخشية الله تصدر عن اليقظة الایمانية وقوة  
المراقبة للنفس ، وذلك كله يرتبط بترك ما لا بأس به حذرا مما به بأس،  
وبه يكون العبد بالغا هذه المرحلة فيصدق عليه الوصف المحدد هنا •

ومن العناصر التي ساعدت على إبراز هذه الدلالة المحددة بهذه  
القوة استعمال « النفي » في صدر الحديث ، ثم اتباعه بالفعل « يبلغ »  
الدال على الارتقاء المستمر في وصول المراتب الأعلى ، ثم وصف  
المتحدّث عنه « بالعبد » وذلك لأن المقام مرتبط بالعبودية، ثم استخدام  
أن المصدرية مع ما تقتزن به من فعل مضارع دال على الاستمرار ثم  
ورود « من المتقين » في خبر « يكون » ليرتبط اسمها بهذا الخبر ويدخل  
في اطاره ثم استخدام حتى التي تفيد الغاية وترتبط بمواصلة السعي  
والتدرج في مراتب مستمرة الارتقاء في صعود متصل ، ثم اتباع حتى  
بالفعل المضارع « يدع » الدال على الترك المرتبط بما ذكر بعده من  
سببه وهو الحذر ، ثم اتباع هذا المفعول لأجله بما يوضحه ويحدد  
معناه •

وفضلاً عن ذلك كله لا يخفى فضل اختتام الحديث بهذا الجرس الصوتي المتردد الذى تحمله هذه الكلمات « ما لا يأس به حذرا مما به يياس » ليظل ذلك مترددا فى تجريد عام دائم فى الذاكرة كلما استدعاه موقف من المواقف التى يمكن قياسه عليها .

وفى اطار آخر نجد تعريف احدى درجات « الايمان » تعريفا يرتبط بنفى هذه الصفة أصلا عما لا يدخل فى نطاق هذا التعريف . وبناء عليه يتضح أنها درجة أولى فى سبيل حصول الايمان وتحققه فى القلب ، فعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ (٣١) :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وهنا نجد الایجاز ، ودقة الحصر ، والبدء كما فى الحديث السابق بيلا ثم حتى ، واتباع كل منهما بفعل مضارع مرتبط بالآخر ومرتب على حصوله ، وورود كلمة « أحد » مضافة الى ضمير المخاطبين ليفيد ذلك عموم الحكم ، وكلمة « أخ » مضافة الى « الهاء » العائدة على « أحد » ليفيد ذلك قوة الترابط والصدق والقوة ، وورود « ما » الموصولة مفسرة بنفس الفعل المضارع السابق الذكر وتعلق الجار والمجرور « لنفسه » بهذا الفعل ليحدث التماثل التام بين ما يجب لأخيه ، وما يجب لنفسه ، فتتحقق الدلالة الواحدة .

وكذلك ترد كلمة « الاسلام » فى سياق يحدد أحسن درجاته مرتبطة فى ذلك بمظاهر تدل على صدق النية وتمكن الاسلام فى خلق . وقلب صاحبه ، ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل رسول الله ﷺ (٣٢) : أى الاسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ بالاسلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

(٣١) المسقلانى صحيح البخارى : ١ : ٥٧/٥٦

(٣٢) السابق : ١/٨٢ ، وانظر ايضا : ٥٥ .

فالأول منهما فعل ظاهر فضله ، والثاني قول لا يخفى أثره ،  
والاثنان من مظاهر السلوك التي تنعكس آثارها على الآخرين في  
المجتمع الواحد • ولا يخفى ما فى دلالة الفعلين تطعم وتقرأ من دلالة  
الاستمرار وآثارها ، كما لا يخفى ما يرتبط بالأولى من كلمة الطعام  
وبالثانية من كلمة السلام ثم ما ورد بعد ذلك من قوله : « من عرفت  
ومن لم تعرف » من عموم وشمول مناسبين للمقام والدلالة ، ومحققين  
مع ما سبق ذكره جرساً صوتياً متصلاً بهذه المعانى المتمكئة فى سياقها  
المؤثرة فى أكثر من مجال معنوى وشعورى •

ومن هذا القبيل أيضاً بيان معنى التواضع مرتبطاً بدلالته الصادرة  
عن مظاهر واضحة من السلوك العام الذى يدخل فى أطاره جميع  
الأفعال التى تحصر معناه حصراً يسوده العموم من جهة والتحديد  
الشامل من جهة أخرى ، ومنه ما روى عن عياض بن حمار رضى الله  
عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٣٣) :

« ان الله أوحى الىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد »  
ولا يبنى أحد على أحد •

فقد حصر معنى التواضع فى جانبين «عدم الفخر» و «عدم البغى»  
وكلاهما يلازم الآخر ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً •

وقد ورد الفاعل فى كليهما نكرة تفيد عموم الحكم وصدقه على  
جميع الأفراد ، كما ورد ما يتعلق بمعنى الفعل فى كليهما « على أحد »  
مفيداً كذلك نفس الدلالة •

ولقد صدر الحديث «بان» التى تفيد التوكيد مبرزة أهمية القضية



لارتباطها بأمر الله « ان الله أوحى الى » . كما اختلفت الألفاظ بحسن التقسيم ، والمتناسق الصوتي القام الذي يدعو الى ربط المعانى بالفاظها فى الذاكرة على نحو ترديدي سهل الاسترجاع قوى التأثير فى النفس والفكر .

ومما يظهر دقته التعريف وفضله أن يكون اللفظ معروفا أو شائعا مألوف الاستعمال ، وبالرغم من ذلك فإنه يصعب تحديد دلالاته لما يتصل به من سعة الدلالة وعدم القدرة على حصر أوضاعه .  
ويكون الفضل والقدرة هنا واضحين اذا ما تضمن التعريف ايجازا ووضوحا وتحديدا دقيقا .

ومن ذلك تعريف كلمتى « البر والائتم » .

فقد روى عن النبىء بن سميعان الأنصارى قال (٣٤) : سألت رسول الله ﷺ عن البر والائتم ، فقال : « البر حسن الخلق ، والائتم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

فقد ورد مقياس وجود البر هنا مرتبطا بالخلق فهو « حسن الخلق » وقيل : « البر يكون بمعنى الصلة ، وبمعنى اللطف والمبرة ، وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة ، وهذه الأمور هى مجامع الخلق » (٣٥) وورد مقياس معرفة الائتم مرتبطا بالصدر وما يجول فيه من أمور وما يتعلق بها من مشاعر ، وهذا مجال واسع يستطيع به الانسان أن يتبين الكثير من الأمور التى لا يقطع فيها برأى واضح نهى تتردد فى صدره ولكنه أم يطمئن اليها ، والتبست بشعور الكراهية من أن يطلع عليها الناس وشعور الخوف من أن يكون ذنبا . فهذا مقياس

(٢٤) صحيح مسلم : ٤١٨/٥ ، والترمذى : ٢٤/٤

(٣٥) صحيح مسلم : ٤١٨/٥

دقيق لتعريف الأئمة ، يصلح هو وسابقه لقياس جميع الأمور الداخلة  
 في هذا الإطار العام غير المحدود •

ومن الكلمات التي ارتبطت في أذهان الناس بدلالات خاصة بالرغم  
 من كونها عامة غير محدودة كلمة «الصدقة» التي ترتبط — في الغالب —  
 بالعطاء المادي دون سواه •

وحيث ترد هذه الكلمة بدلالات متعددة المجالات فانها تحتاج  
 لترسيخها الى ضرب الأمثلة مما يعين على تأكيدها ، وايضاح قيمتها ،  
 وقياس غيرها عليها مما يماثلها أو يزيد عنها •

وتكون دقة الأسلوب في هذا المجال مرتبطة بإبراز وجوبها •  
 وتكون أحسن الأوضاع لذلك ، أن يصدر الأسلوب بذكر هذا الوجوب  
 ثم يتبع بضرب الأمثلة ، وهو ما تميز به هذا الحديث الشريف الذي  
 رواه أبو هريره رضى الله عنه عن محمد رسول الله ﷺ قال (٣٦) :

« كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطع فيه الشمس ،  
 قال تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل فى دابته فتحملة عليها ،  
 أو ترفع له عليها مقاعه صدقة ، قال : والكأمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة  
 تمسيها الى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » •

ومن الكلمات التي تحتاج فى ايضاح دلالتها الى قوة لغوية فذة  
 لى تحييط بها فى ايجاز جامع دون اطالة تنسى السامع أو تجعله يتعثر  
 فى تنفيذها لخطورتها وأهميتها كلمة « النجاة » •

فعن أبى أمامة عن عقبه بن عامر قال : قلت (٣٧) : يا رسول الله ،

(٣٦) صحيح مسلم : ٤٦/٣

(٣٧) الترمذى : ٣١/٤

ما النجاة ؟ قال : « املك عليك لسانك ، وليسمعك بيتك ، وابك على خطيئتك » .

ومن الخصائص اللغوية المميزة للأسلوب فى هذا المجال - فضلا عما سبق - الجمع بين السرد الوصفى العام من جهة ، وشرح بعض المفردات خلاله مما يبدو صعبا أو مبهما من جهة أخرى .

وقد يكون السياق طويلا بعض الطول ، لا يذللن معه أن هناك مجالا للشرح أو التفسير مما يوهم بأن الأمر صعب الفهم يحتاج الى بحث ومشقة لادراكه فيرد التفسير الموضح بمثابة الزيل لذلك الهم والمبين لذلك الغموض مشيرا الى أهمية اللفظة المشروحة والى قيمتها فى سياقها بين غيرها من العناصر .

وذلك يتضح فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (٣٨) :

« اذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب ، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة . والرؤيا ثلاثة :

فرويا الصالحة (٣٩) بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه ، فان رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ، ولا يحدث بها للناس . قال : وأحب القيد ، وأكره الغلّ والقيد ثبات فى الدين » .

(٣٨) صحيح مسلم ١١٩/٥

(٣٩) لعله من اضافة الموصوف الى صفته (انظر صحيح مسلم: ١١٩/٥)

فقد اشتمل قوله — ﷺ — والقيد ثبات في الدين على بيان معنى القيد في الرؤيا ، وبيان سبب قوله « وأحب القيد » مما يبرز دلالة كانت مبهمة قبل هذا البيان وقيل «أنما أحب القيد لأنه في الرُّجُلَيْن وهو كف عن المعاصي والشُرور وأنواع الباطل ، وأما الغل فموضعه العنق ، وهو صفة أهل النار ، قال تعالى : « انا جعلنا في أعناقهم أغلالا » و « اذ الأغلال في أعناقهم » (٤٠) •

وقد يكون السياق قصيرا موجزا مشتملا — مع ايجازه — على مجموعة من الكلمات التي يتطلب بعضها تفسيراً لما يتعلق بها من أسباب وصفات ، فيتبع النبي ﷺ الغامض منها بمعناه وسببه •

ومن ذلك ما رواه محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي ﷺ قال (٤١) « أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يُمَحِّصِي (٤٢) بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يُحشِّرُ الناس على عقبي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » •

وهكذا تعددت طرق تحديد دلالات الألفاظ بحسب ما تقتضيه كل منها من المواقف والدواعي ، مُؤَيِّدَةً في كل حال بما يبرز أهميتها وينقل أثرها ، وتميزها عن غيرها من الدلالات من وسائل لغوية وأوضاع أسلوبية لها خصائصها المتنوعة •

(٤٠) انظر : صحيح مسلم : ١٢٠/٥ •

(٤١) صحيح مسلم ٢٠١/٥

(٤٢) قيل : المراد : محو الكفر من مكة وسائر بلاد العرب وما زوى له صلى الله عليه وسلم من الأرض ، وقيل : ويحتمل أن المراد المحو العام بمعنى الظهور بالحجة والغلبة كما قال تعالى : « ليظهره على الدين كله » وجاء في حديث آخر تفسير الماحي بأنه الذي محيت به سيئات من اتبعه ، فقد يكون المراد بمحو الكفر هذا • انظر : ( نفس المصدر والصفحة ) •

## الفصل الثالث

### الأسلوب والموقف فى بلاغة النبى صلى الله عليه وسلم

للأسلوب أهميته فى الدلالة على الموقف الذى يوضحه أو يصوره أو يبين درجة قوته أو هوانه ، وشدته أو ضعفه ، وسموه أو ضعة شأنه .

وله أهمية — كذلك — فى نقل المضمون الى السامع نقلا مصحوبا بما يمكن له فى عقله ونفسه لما يحمله من عناصر التأثير والاقناع ، وما يتضمنه من ايجاء ودلالة .

كما أن له أهميته فى الدلالة على دقة منشئه الذى ينتقى أوضاعه انتقاء محمدا يمثل فكره وقدرته على اختيار الألفاظ الدالة على معانيه وآثارها ، واختيار مواضعها داخل التراكيب بشكل خاص ، فيقدم ما يرى له أثره حاك التقديم ويؤخر ما يترتب عليه أو يتلوه فى الأهمية ، أو يعقل له ، أو يمكن له فى العقل والنفس ، ويربط بين السابق واللاحق بما يختار من روابط عاطفة أو معللة أو مشبهة أو حاصرة للمعنى ومبرزة لأهميته ، أو مفيدة الشمول أو غير ذلك .

ويتنوع الاستعمال الأسلوبى كوسيلة للتعبير بتنوع المواقف والأحوال كما يتنوع بتنوع الشخصيات التى يوجه إليها أو يصفها أو يتعلق بها بسبب من الأسباب ، كما يتنوع بحسب الغرض الذى يرمى إليه المتكلم ، والهدف الذى يسعى به الى تحقيقه .

وبيان ذلك فى بلاغة أسلوب الحديث الشريف مجال واسع تُنعدد سماته ، وقوة ظهور ما يشتمل عليه من الخصائص البلاغية المتنوعة التى تكثر كثرة ظاهرة ممثلة قدرة النبى ﷺ البيانية والأسلوبية وتمييز بلاغته فى كل حال .

ومن سمات هذا الأسلوب في ارتباطه بالموقف الذي يعبر عنه ويدل عليه دلالة محددة ، قوة تعبيره عن المواقف النفسية التي لها من الخفاء ما يخرجها عن اطار الادراك الظاهر نظرا لتنوعها واختلاف أحوالها ودرجاتها الشعورية •

وحين تتفق الأفعال في الظاهر أو تتقارب ، ثم يكون التفاضل بينها متوقفا على اختلاف هذه المواقف النفسية ازاءها يكون الأسلوب الذي يتطلبه التعبير عن هذا التفاضل محتاجا الى الكثير من مظاهر الدقة والقدرة اللغوية •

ومن هذه الأفعال التي ترتبط في قدرها وقيمتها بما تصدر عنه من أحوال ومواقف نفسية « الصدقة » •

فمن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال (١) : « أتى رسول الله ﷺ رجلا ، فقال : • يا رسول الله : أى الصدقة أعظم ؟ فقال : أن تصدق وأنت صحيح صحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، الا وقد كان لفلان » • فلم يجب عما يقتضيه ظاهر السؤال من نوع الصدقة ذاتها، بل أجاب بهذا الأسلوب المسمى في علم البديع بأسلوب الحكيم المتضمن أفضل ما يقتضيه ظاهر السؤال ، لافتا نظر السائل الى أن التفاضل يرتبط بحال المتصدق نفسه ، لا بنوع صدقته فقط •

وبيان فضل أعظم الصدقات ، ببيان حال أفضل المتصدقين ، بلوغ بالأسلوب الى درجة من السمو البياني الموضح لحال دقيق خفى الدلالة بتعبير صريح ظاهر المعنى •

وقد ارتبطت قوة الأسلوب هنا بقوة الاجابة ، وتركيز ألفاظها ، وقوة دلالة كل لفظة فيها ، وانطوائها على معنى محدد واضح ، ووصف منحصر باطار يبرز دلالته •

وقد ارتكزت هذه السمات كلها حول أسلوب بيان الحال فى قوله : « وأنت صحيح صحيح » وما ارتبط بذلك من نتائج ملازمة لهذين الجانبين فى قوله : « تخشى الفقر ، وتأمل الغنى » ، فمن شأن الصحيح القوى الحرص ، ومن شأن الحريص الشح ، ومن شأن الصحيح الجمع والاستكثار أملا فى الغنى ، وخشية الفقر ، ومن شأنه ألا يوجد بعبء أو صدقة •

وقال الخطابى (٢) : « الشح أعم من البخل ، وكان الشح جنس والبخل نوع ، وأكثر ما يقال البخل فى افراد الأمور ، والشح عام كالوصف لللازم ، وما هو من قبل الطمع • قال : فمعنى الحديث : أن الشح غالب فى حال الصحة ، فمن سمح فيها وتصدق كان أصدق فى نيته ، وأعظم لأجره بخلاف من أشرف على الموت وآيس من الحياة ورأى مصير المال لغيره ، فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة الى حالة الصحة والشح رجاء البقاء وخوف الفقر • • • • • وقد قل غيره : المراد به سبق القضاء به للموصى له • • • • • فليس له فى وصيته كبير ثواب بالنسبة الى صدقة الصحيح الشحيح » •

\*ومما أسهم فى دقة التعبير وتحقيق غايته الوصفية هنا هذا التقابل بين الحالين المذكورين ، وتفصيل الوصف المتعلق بكل منهما ، والمكناية عن فوات الفرصة واقتراب انتهاء الأجل بقوله : « حتى اذا بلغت الحلقوم » مذكرا بآيات ومعانى القرآن الكريم •

ومما أسهم في ذلك أيضا هذا التوازن الصوتي المتجاور في صحيح شحيح ، واتباعه بهذا التقسيم الحسن المتضمن لجملتين تؤكد احدهما الأخرى في « تخشى الفقر وتأمل الغنى » واتباع جميع ذلك بالانتقال الى تصوير حال مضاد لسابقه مستهل بالنهي ومشمول على ما يفيد الغاية ثم الشرط ومتضمن لتفصيل الحال كما سلف ايضاحه •

ومن السمات الظاهرة للأسلوب هنا أيضا بيان أهمية الموقف وما يرتبط به من درجة العثم وقيمته بمقارنته بوصف حال وموقف آخرين يرتبطان به أشد الارتباط ، وتساعد هذه المقارنة على استحضار الموقفين شعوريا وخياليا في النفس والذاكرة بشكل دائم الاسترجاع كلما استدعت المواقف ذلك •

ومن أمثلة ذلك ما ورد في هذا الحديث الشريف الذي يصف أهمية السجود حال قراءة سورة السجدة بمقارنة ذلك بموقف يوضح دلالاته وعظيم شأنه ، فقد روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (٣) :

« إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا بويلته ، وفي رواية : يا ويلى ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمِرْتُ بالسجود فأبيت فلى النار » •

فهذه المقابلة بين الموقفين : موقف الطاعة والسجود ، وموقف العصيان والتكبر ، وما يرتبط بأحدهما من دخول الجنة وبالأخر من دخول النار يبرز دلالة هامة تتعلق بمكانة السجود وفضله ، ويثبت في الذهن فكرتين مترابطتين أتم الترابط وهما : بدء قصة الخلق وما يرتبط بها من أحداث ، وانتهاء الأمور الى مصائر مرتبطة بمقدماتها •



ويتخذ الأسلوب في هذا المجال أكثر من مظهر من مظاهر الدقة التعبيرية المرتبطة بتنوع المواقف. ومن ذلك بيان أهمية فضل الوالد على ولده وموقف الولد من والده ، وهو من الأمور التي تحتاج لبيانها الى اطلالة ، وعناصر اقناع ، ووسائل إيضاح متعددة تتوقف على مهارة المعبر في ذلك .

ولكن أسلوب الحديث الشريف يتجاوز ذلك كله الى ضرب من الايضاح الموجز القائم على وصف موقف واحد يصير ضمن هذا الأسلوب مثالا له دلالاته وأثره .

فمن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ (٤) : « لا يجوزى والد والدا الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ، وفي رواية : ( ولدٌ واداهُ ) » .

فهذا القصر بالنفي مع الاستثناء يحصر المعنى في هذا الاطار الموجز الواضح الذى ينطوى في ايجازه على ما لا حصر له من المعانى ، فجميع الأعمال التى يقدمها الولد لوالده - مهما جل قدرها - لا تعادل هذا العمل المصرح به فى الحديث الشريف هنا .

لذا فقد صار هذا العمل مثالا يقاس عليه ، وتعبيرا مجردا غير مقيد بشخص أو مكان أو زمن .

واقتران الفعل أو القول بموقف معين يبرز دلالاته وأهميته أو ضعة شأنه ، له مظاهره المتعددة ذات الخصائص البلاغية المتنوعة فى الحديث الشريف .

من ذلك اقتران الفعل بما يترتب عليه ويلازمه ويوضح دلالاته من  
النتائج المرتبطة به .

ومما ورد فى ذلك هذا التعبير عن منزلة قارئ القرآن الكريم فى  
أسلوب مرجز يوضح فضله وجزاهه ومنزلته فيما روى عن عبد الله بن  
عمر عن النبى ﷺ قال (٥) : « يقال - يعنى لصاحب القرآن - اقرأ  
وأرق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية  
تقرأ بها » .

وتستمد قوة التعبير عناصرها هنا من هذا الربط المحكم بين المعطوف  
والمعطوف عليه اللذين يكونان الفعل وجزاهه ( القراءة والارتقاء ) ثم  
تكرار العطف بما يؤكد سابقه ( الترتيل ) الذى يؤكد استمرار القراءة ،  
ثم اقتران ذلك بما يناظره ( كما كنت ترتل فى الدنيا ) ثم الانتهاء ببيان  
المنزلة التى تخرج الأسلوب الى اطار من التجريد الذى يمنح المعنى  
دلالة لها أثرها وقراؤها غير المتناهى عند حد معين .

ويوضع الفعل وجزاؤه فى سياق آخر من الأساليب التى تدعو  
الفكر الى المتابعة الدقيقة بما تحمله من عناصر التشويق ودقة التعبير  
ليصل من خلال متابعتها الى خلاصة تتمكن فى العقل بقوة اقناعها ، وتؤثر  
فى النفس بما تحمله من عناصر التأثير والتشويق ، ومن ذلك ما روى  
عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال (٦) : قال رسول الله ﷺ : « من  
أصبح منكم اليوم صائماً ؟ قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا . قال : فمن  
تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا . قال : فمن  
أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا . قال : فمن

(٥) الترمذى ٢٥٠/٤ .

(٦) صحيح مسلم ٦٧/٣ .

عاد منكم اليوم مريضا ؟ قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا • فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعن فى امرى الا دخل الجنة » •

فلقد اشتمل هذا الأسلوب على الكثير من عناصر التأثير والاقنعاع والايضاح والتفصيل لما بنى عليه من اطار قصصى قائم على ايضاح شخصية نموذجية فى المجتمع الإسلامى ، مقترنة بأفعال خلقية تمثل ركائز أساسية فى هذا المجتمع ، وقائم كذلك على أسلوب الحوار المبني على السؤال والجواب ، وعلى حسن التقسيم وقوة الايجاز ، وعلى الاجمال بعد التفصيل ، وحسن الانتهاء بالعبارة الموجزة فى أسلوب القصر المبني على النفى والاستثناء الجامع لأطراف المعنى والموضح أهمية وسمو شأن الصفات المذكورة سالفا •

ولنل هذا الأسلوب فضله فى قوة التمكن بالذاكرة لأنه شغلها بالمتابعة ورغبها فى المعرفة وأثار اهتمامها وتطلعها للاستنتاج قبل أن يقدم اليها المعنى مجردا •

وقد يقوم ذلك الأسلوب على بيان دقيق للملامح الشخصية التى أسندت اليها الأفعال والصفات مما يقوى عناصر الترغيب والتأثير عمقا وقوة ، ودلالة المعنى تمكنا وتجردا •

ومن ذلك هذا الحديث الذى رواه جرير بن عبد الله قال (٧) :

« جاء ناس من الأعراب الى رسول الله ﷺ عليهم الصوف ، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة ، فحث الناس على الصدقة فأبطلوا عنه ، حتى رثى ذلك فى وجهه قال : ثم ان رجلا من الأنصار جاء بصرّة من ورق ثم جاء آخر ، ثم تتابعوا حتى عرف السرور فى وجهه فقال رسول الله ﷺ :

«من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء»، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء» • فلقد لاءم الأسلوب هنا الموقف أشد الملاءمة ثم توسع دائرته بعمق دلالاته بما قام عليه من تفصيل ودقة وصف ومقابلة تنهض به لينطاق من ذلك المجتمع الذي جرت فيه هذه الأحداث الى المجتمع الأكبر في عمومته في اطار من التجريد التميز والعمق الدال •

وبصفة التجريد من أبرز خصائص الأسلوب في الحديث الشريف هنا وهي من أدق الخصائص المرتبطة ببلاغة النبي ﷺ في اطار تصوير المواقف وتوضيح مغزى كل منها وأثره وما يترتب عليه •

ففضلا عما سبق ذكره نجد كثيرا من الأساليب التي تصور المواقف الأخلاقية التي تصدر عن بعض أفراد المجتمع متخذة بذلك صفات شخصية يظهر تأثيرها العام أثناء التعامل مع بقية الأفراد فيمنحها ذلك طابع الخطورة أو الأهمية مما يدعو الى معالجتها •

ولكن مثل هذا النوع من السلوك لا تنتضح درجة خطورته أو أهميته الا في اطار من المعالجة الدقيقة التي تنتهي الى بيان المغزى العام لذلك الخلق أو السلوك وما يلازمه من أنماط الجزاء •

ويقدم لنا سياق الحديث الشريف كثيرا من هذه النماذج في اطار قصصى هادف ، فلا يمتحننا التصرف مجردا بل مسندا الى من قام به في شكل تجربة عملية خاصة بصاحبه ليخرج الينا أثر ومغزى ما يدور حوله من المضامين اخرجها قوى الدلالة والآخر •

فعن أبي هريرة (٨) رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة

طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله ، قال : أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس • من غش فليس مني « (٩) •

ولقد دعم الأسلوب ومنحه الكثير من خصائصه هنا دقة انتقاء الألفاظ المناسبة للفعل فالرجل « صاحب الطعام » وفي ذلك دلالة علي ملازمته لسلوكة ولما يقرتب عليه من الجزاء ، والعلاج موضوع في إطار استفهام انكاري مرتبط بسببه « أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس » ، وخطورة الموقف مرتبطة بخطورة أثره فـ : « من غش فليس مني » مما له قوى الدلالة وعميق الأثر في المعالجة الجذرية لهذا الموقف من جهة ولجميع ما يماثله من المواقف من جهة ثانية في إطار ما سبق ايضاحه من التجريد الملازم لخصائص الأسلوب هنا •

ومن هذا القبيل ما يتصل بأنماط من السلوك لها تأثيرها المعنوي في النفس ، فتترد مرتبطة بأساليب قوية التلاؤم معها بما تحتوى عليه من خصائص مناسبة لطبيعة كل منها •

ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة (١٠) رضى الله عنه أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يُقبَلُ الحسن فقال : ان اى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم ، فقال رسول الله ﷺ : « انه من لا يرحم لا يرحم » • وفى رواية : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل » •

ففى هذا الاطار الموجز الذى يتلازم فيه الشرط وجزاؤه هذا التلازم القوى المحكم وضع هذا المضمون العام الذى يصدق على عامة المواقف المماثلة ويؤكد قاعدة هامة تثبت اتفاق الجزاء والعمل فى كل حال •

(٩) الصبرة : الكومة المجموعة من الطعام ، أصابته السماء أى المطر .

(١٠) صحيح مسلم ١٧٤/٥ :

وحين يكون الموقف عكس الموقف السابق فلا بد أن يكون الجزاء عكس ذلك الجزاء أيضا •

ففى إطار أسلوبى آخر مصور لموقف مناقض لما سبق نجد تلاؤما من نوع آخر بين الأسلوب والموقف ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت (١١) : « جاءتنى امرأة ومعها ابنتان لهما فسألتنى ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرّة واحدة ، فأعطيتها اياها ، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا، ثم قامت فخرجت وابنتها ، فدخل علىّ النبي ﷺ فحدثته حديثها ، فقال النبي ﷺ :

«من ابتلى من ابنتى بشيء فأحسن اليهن كُنَّ له سترا من النار» •

وإذا كان الشرط هنا الابتلاء فإنه محتاج لبيان ما يترتب عليه حتى يرد الجواب محددًا به ومقيدا بدقة دلالة فليس كل من دخل فى إطار هذا الابتلاء بداخل فى إطار الجواب ولكن الجواب مرتبط بقط • بمن تقييد بصفة الاحسان •

فهذا البيان مرتبط بتلك الدقة التعبيرية الموضحة لدقائق المعنى ومقاصده •

ومن خصائص أسلوب الحديث الشريف فى هذا المجال — فضلا عما سبق — التقديم للمعنى بما يوضح مغزاه أو أهميته أو بما يوحى بهوله وخطورته •

ولهذا النوع من الأساليب الكثير من الخصائص الهامة التى ترتبط بأنماطه وما يرد فيه من الأوضاع •

من ذلك نمط يرد فيه هذا التقديم حاملا الحكم على ما سيرد ذكره ، فيكون ذلك بمثابة الاجمال لما سيأتى مفصلا ، والابهام لما سيأتى موضحا ، فيكتسب الأسلوب قوة تأكيد ، وفضل تمكن •

ومن هذا القبيل ما روى عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال (١٢) : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « الا أنبئكم بأكبر الكبائر ( ثلاثا ) الاشرار بالله ، وعقوق الوالدين وشهادة الزور • وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس فمزال بكررها حتى قلنا لبيته سكت » •

ولقد تعددت العناصر الأسلوبية المبرزة لدلالة هذا المضمون والمؤكدة خطورته ، من ذلك الاستتلال بالألا ، ثم استعمال الفعل المضارع أنبئكم خاصة دون أخبركم ، ثم استخدام صيغة التفضيل أكبر وازافتها الى الكبائر ، ثم تكرار ذلك ثلاثا ، ثم تفصيل ذلك دون انتظار اجابة من السامعين ، ثم ما صاحب ذلك كنه من هيئته ﷺ حال الكلام مما يبين خطورة الموقف « وكان متكئا فجلس » ثم اتباع ذلك بما يعبر عن شعور السامعين بذلك المغزى الهام « حتى قلنا لبيته سكت » •

ومن ذلك نمط يصدر فيه الحديث بالسؤال المتضمن التنبشير بما يرغب فى الاقبال على ما سيذكر بعده ثم يختتم بما يؤكد ذلك التصدير ويضعف اليه قدرا من بيان أهميته ومنزلته •

ومنه ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (١٣) :

« ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله • قال : اسباغ الوضوء على المكاره : وكثرة الخطى

• (١٢) صحيح مسلم ١/١٣١ •

• (١٣) صحيح مسلم ١/٥٣٧ •

الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط» وفي رواية :  
« فذلكم الرباط فذلكم الرباط » •

ومن ذلك نمط يرد فيه التقديم للمعنى بما يحمل مضمونا غريبا  
يدعو الى الاستفسار عن مغزاه مما يترتب عليه بالضرورة ايضاحه فيرد  
متمكنا فى الفكر والنفس ايما تمكن •

ومنه ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ  
قال (١٤) : من الكبائر شتم الرجل والديه • قالوا : يا رسول الله : وهل  
يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم • يسب أبا الرجل فيسب آباه ويسب  
أمه فيسب أمه •

فالى جانب ما يحمله هذا الأسلوب من « دليل على أن من تسبب  
فى شىء جاز أن ينسب اليه ذلك الشىء » (١٥) •

فانه لا يخفى ما تميز به أسلوبه من قوة الدلالة على المعنى  
باستخدام الكثير من السمات اللغوية كتقديم الخبر فى « من الكبائر »  
اشعارا بخطورته ، واطافة المسند اليه النكرة الى المعرفة التى تفيد  
العموم لا التعيين ثم بيان كيفية حدوث ذلك بتفصيله تفصيلا واضحا  
أزال ابهامه الذى تطلب الاستفسار عنه •

ومن خصائص الأسلوب فى هذا المجال — فضلا عما سبق —  
خاصة التفصيل مع الايضاح والتكرار المؤكد للمعنى ، بحيث يشتمل  
الحديث من أوله الى آخره على عناصر تسعى جميعها لتحقيق غاية  
واحدة فى اطار من البيان القوى والدلالة الظاهرة •

(١٤) صحيح مسلم ٢٧٧/١ •

(١٥) نفسه ٥



ومن أمثلة هذا النوع من الأساليب ما روى عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال (١٦): « يصبح على كل سيلا مني (١٧) من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهيلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمرٌ بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » .

فبالرغم من أن الحديث مشتمل على مقدمة جامعة لما فصل بعدها إلا أن هذا الاجمال قد تضمن نوعا من التفصيل الموضح لمغزى الحديث من أول الأمر ، وذلك بفضل ما اشتمل عليه من عناصر لغوية دالة ، فالفعل « يصبح » أفاد الاستمرار والتجدد ، ولفظ « كل » أفاد العموم وأضافته الى « سلامي » أفاد شمول الحكم وعدم استثناء شيء منه ، ثم أفاد لفظ « أحد » مثل ما أفادته كل السابقة من الشمول والعموم ثم أفادت كلمة صدقة منطلق الحكم المذكور ومحور الدائرة فيه ، لما تتضمنه من اجمال وتنطوي عليه من المعاني المتعددة التي تحتاج الى ايضاح لما تثيره من تطالع ذهني لفهم مغزاها وكيفية أدائها .

لذا نجد التفصيل مع الوضوح والايجاز في اطار واحد ليكون ذلك بمثابة وضع الحلول الكلية الشاملة أمام العقل الذي تطالع لفهم ما طرح عليه في المقدمة السابقة .

وفضلا عن ذلك كله فهناك سمة عدم الاكتفاء بوضع التفاصيل الموضحة فقط بل يتجاوز الأسلوب ذلك ليضع المعادل والمكافئ لهذه المعاني في شكل آخر من أشكال البيان الذي يتسق مع السياق

(١٦) صحيح مسلم ٣/٣٧٢ .

(١٧) سلامي : بضم السين وتخفيف اللام : أصله الاصابع وسائر الكف ، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله .

الأسلوبى العام ، فاذا كان لفظ الصدقة المذكور فى المقدمة قد اتضح بهذه الأنواع المذكورة : كل تسييحة ، وكل تحميدة ، وكل تهليلة ، وكل تكبيرة ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، فان المعادل والمكافئ لذلك كله « ركعتان يركعهما من الضحى » ، وفى ذلك الايجاز نجد عناصر التوضيح كاملة من حيث العدد والزمن والدلالة على فضل ذلك وكيف أنه يجزىء عن جميع ما تم ذكره قبله. ولقد ساهم فى ذلك الاطار الأسلوبى ما تردد من وقع صوتى له أثره البالغ فى تأكيد المعنى وترديد محوره فى الأذن بين كلمتى « كل » و « صدقة » وكذلك ما تردد من توازن صوتى من نوع آخر فى أوزان الكلمات تسييحة - تحميدة - تهليلة - تكبيرة ، فى جانب وكلمات : « أمر » و « نهى » فى جانب آخر ، ثم ذلك التوازن الناشئ عن ترديد كلمتين يجمعهما اشتقاق واحد وهما : ركعتان يركعهما ، ثم ذلك الرباط الذى تلتقى فيه نقطتا البدء والانتهاء « يصبح ، والضحى » .

ولتلاؤم الأسلوب مع الموقف فى الحديث النبوى فى هذا المجال - مجال التقديم للمعنى بما يوضح مغزاه وأهميته - مظهر قريب من النمط السابق - يقوم فيه الأسلوب على ترديد بعض الجمل التى تمثل دلالة الحديث كله وتحمل مغزاه مبرزة أهميته وخطورته وأثره فى اطار من التفصيل والتكرار والتدرج المعنوى من الأعلى الى الأدنى .

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (١٨) :

« كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى

بيت زوجها ، ومسئولة عن رعيتهما ، والخادم راع فى مال سيده ومسئولا  
عن رعيته ، — قال وحسبت أن ° قد قال — والرجل راع فى مال أبيه  
ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » •

ومن خصائص أسلوب الحديث النبوى الشريف فى مجال ملاءمة  
الأسلوب للموقف كذلك طابع وضع الحكم فى نهاية الحديث بعد ذكر  
مجموعة من الوجوه المقابلة الأحكام متقاربة ليرد ذلك الحكم فى نهاية  
الأمر مميزا واحدا منها •

ولهذا النوع من الأساليب فضله فى جذب الذهن الى متابعة هذه  
المجموعة التى يضمها اطار واحد باحثا عن أفضلها أو عن امكانية التساوى  
بينها فى الحكم •

ومن هذا القبيل ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال  
رسول الله ﷺ (١٩) :

« دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار  
تصدقته به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى  
أنفقته على أهلك » •

ولعل لتكرار الجمل على هذا النحو الذى يسوده حسن التقسيم  
ثم الانتهاء بجملتها منها مجاورة للحكم المشتغل على ترديدها له أثره  
الكبير فى قوة تمكن المعنى فى الأذهان والتأثير به فى النفوس فضلا  
عما لذلك كله من آثار صوتية تفتح للسامع مجال الاقبال والمتابعة  
فى اطار من الهدوء والراحة الموصولين الى الاقناع •

ومن خصائص الأسلوب أيضا في هذا المجال قوة تركيز العبارة واشتمالها على عناصر تتنوع بتنوع الموقف الذى تدل عليه تعبيرا وتأثيرا فى اطار من الايجاز الذى تنتمى الفاظه انتقاء دالا<sup>٢٠</sup> له من الثراء والعمق ما يحقق غايته •

وهنا نجد مجالا واسعا لمعالجة الكثير من المواقف التى قد تصدر عن بعض أفراد المجتمع أو تشكل سلوكهم العام مما يحتاج الى معالجة جذرية فى اطار خاص من الأساليب التى تناسبها •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه من أن رسول الله ﷺ قال (٢٠) : « اذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم • قال أبو اسحاق : لا أدري أهلكهم بالنصيب أو أهلكهم بالرفع » ، ( والرفع أشهر ٠٠٠ ) (٢١) •

فقوة تركيز الأسلوب هنا قائمة على ما تضمنه من مجاورة الحكم للمحكوم عليه من جهة والتصريح بنص كل منهما دون تمهيد أو تلميح اليه من جهة أخرى ، هذا فضلا عما تضمنه هذا القول الموجز من استهلال بأداة الشرط « اذا » التى استلزمت هذه المجاورة وذلك التلازم الذى اتسم بقوة الربط بين الأمرين فى احكام وتركيز ، أضف الى ذلك مالصيغة التفضيل التى تحملها كلمة « أهلكم » من ايجاز وقوة ردع وزجرا •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٢٢) :

(٢٠) صحيح مسلم ٤٨١/٥ •

(٢١) نفسه •

(٢٢) صحيح مسلم : ٥٠٢/٢ ومختصر صحيح البخارى : ٢٢٦/١ •

« إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والامام يخطب فقد لغوت »  
 وإلى جانب قوة تركيز العبارة وقوة الربط فيها بالشرط « إذا » نجد  
 تمييزها بتقيد المعنى وتحديد دلالاته في قوله ﷺ : « والامام يخطب »  
 بعد قوله : « يوم الجمعة » وفي ذلك تحديد للمقصد وتحقيق للمعاني  
 في آن واحد .

وتبلغ قوة التحديد والتركيز للأسلوب الموجز أقصاها حين يشتمل  
 الحديث الشريف على كلمتين الأولى منهما هي الجزاء والثانية تتضمن  
 الفعل الموجب لذلك الجزاء ، ومن أمثلة ذلك ما رواه الأحنف بن قيس  
 عن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ (٢٣) : « هلك المتنتظعون » (٢٤)  
 قالها ثلاثا .

ولعل تكرار هذه الجملة ثلاثا قد زاد دلالتها تأكيدا في الأذهان  
 وتأثيرا في النفوس ولعل قصرها بهذا الشكل مما يساعد على بقائها في  
 الأسماع والعقول ، هذا فضلا عن اشتغالها على فعلين الأول منهما نتيجة  
 وجزاء للثاني ، والثاني مقصم في اسم الفاعل المشتمل على الحدث  
 وفاقطه في آن واحد .

ولعل هذه النماذج من الأساليب توضح الكثير من خصائص التعبير  
 في هذا المجال ، ذلك أن قوة الأداء المعنوي صادرة — كما سلف الذكر —  
 عن مناسبتها للمواقف التي تعبر عنها ، لذا فإنها لم تقف عند الإيجاز  
 وحده ، ولا عند استخدام الأدوات الرابطة وحدها — ولا عند انتقاء  
 الألفاظ الدالة وحدها ، ولا عند غير ذلك من الخصائص التي سلف

(٢٣) صحيح مسلم : ٥٢٥/٥ .

(٢٤) المتنتظون : أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم

لذكرها في هذا الباب ، بل بالجمع بين جميع ذلك وأكثر منه اذا اقتضى الموقف ذلك ، وبالاكتفاء ببعضه حين يقتضى الموقف ذلك البعض .

فحين يكون الموقف متطلبا قدرا من البيان والايضاح ليقربه الى الادراك ويدخله مجال الوعي لما يرتبط بطبيعته من الخفاء ويتصل به من الابهام أو يتعلق به من أمور غيبية ، فان الأسلوب يتجه الى ضرب من ضروب التوضيح والتحديد يقوم على استعمال عناصر مساعدة على ذلك كالألفاظ المستخدمة في الوزن أو الكيل في مجال بيان المقدار ، والألفاظ الدالة على العدد لبيان الكم ، والدالة على التقسيم لبيان النسبة وما الى ذلك .

ولا يتوقف تميز الأسلوب في هذا المجال على استخدام تلك الألفاظ ، بل على ما ترد في اطاره من الخصائص الأسلوبية الأخرى التي تتنوع كذلك بتنوع ما تعبر عنه من المعاني وتناسبه من المواقف والأغراض .

فمن استخدام الألفاظ المرتبطة بالوزن لبيان المقدار تعبيرا عن موقف له من الخطورة والخفاء والأثر قدر كبير ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (٢٥) : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » . قال رجل : ان الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : ان الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢٦) .

(٢٥) صحيح مسلم : ٢٨٢/١ .

(٢٦) غمط الناس هو بفتح الغين واسكان الميم . ومعناه : احتقارهم . أما بطر الحق : فهو دفعه وانكاره ترفعا وتجبرا . الله جميل : قيل معناه : ان كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل وله الاسماء الحسنى وصفات

فلما كانت صفة الكبر من الصفات الصادرة عن القلب والمتعلقة  
 يقوى النفس التي لا تحصر درجات قدراتها ولا يمكن تحديدها قوة  
 أو ضعفا ، ولما كانت جميع درجات هذه الصفة مرفوضة وممقوته فقد  
 ناسب ذلك التعبير عن أدنى درجاتها لتقصير مثلا يقاس عليه ويعلم أثر  
 ما كبر عنه أو عظم ، وكان أكثر الألفاظ مناسبة لذلك « المثقال » الذي  
 أضيف بدوره الى أصغر الأشياء المعلومة وهي « الذرة » تعبيرا عن أدنى  
 درجات هذه الصفة وتقريبا للموقف وادخالا له الى مجال الإدراك  
 الحسى •

ولعل تقديم المسند المنفى الذى يشكل الحكم على المسند اليه  
 هنا ، وكون هذا المسند فعلا مضارعا له أثره فى تمكين الحكم والتأثير به  
 تأثيرا قويا يلفت الأذهان الى درجة خطورته ، ولعل ذلك ما دعا الى  
 الاستفسار عنه ثم دفع ايهام ما قد يتصور من وجوه غير داخلة فى  
 معناه ثم البلوغ فى نهاية الأمر الى وضع دلالة لغوية موضحة لدقائق  
 هذا المعنى فى هذا الأسلوب المحدد : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » •  
 ومن استخدام الألفاظ المرتبطة بهذا المجال أيضا فى اطار أسلوبى  
 يقتضيه الموقف كلمتا : « خفيف وثقيل » •

ومن أمثلته ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

---

الجمال والكمال وقيل : جميل بمعنى مجمل ككريم وسميح بمعنى مكرم  
 ومسمع وقيل : معناه جليل ، وقيل : بمعنى ذى النور والبهجة أى مالكمها  
 وقيل : جميل الأفعال بكم باللفظ والنظر اليكم يكلفكم اليسير من العمل  
 ويشيب عليه الجزيل ، ويشكر عليه صحيح مسلم : ٢٨٢/١ •

« كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ، سَبَّحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، سَبَّحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » .

فلما كان موقف التسبيح بهذه الكلمات من المواقف العظمى التي لها شأنها ، ولما كان ما يترتب عليه من الأجر أمرا له شأنه العظيم كان هذا وذاك من المواقف التي تتطلب نوعا من الأيضاح الأسلوبى الذى يبدخهما فى اطار الادراك العقلى ويقربهما الى مجال الوعى .

ولأجل ذلك كله كانت جميع الألفاظ المستعملة هنا بهذا التركيب الأسلوبى الخاص مؤدية وضائفها الدلالية على خير وجه . وبيان ذلك من تميز هذا الأسلوب صادر عن البدء بلفظة «كلمتان» التى تدل على ذلك العدد اليسير موحية بسهولة الأمر وقربه ، واتباعها بهذه الصفة المؤكدة للإيحاء السابق فى لفظة « خفيفتان » ، ثم اتباع ذلك بما يتعلق به من أداة النطق « اللسان » واتباع جميع ذلك بما يشكل ملازمة من حيث الأجر أو الثواب ، وفى الوقت نفسه يتعلق به من حيث اللفظ ، ويرتبط به فى دائرة دلالية واحدة فى لفظه «ثقيلتان» ثم ما أتبع به ذلك من متعلق يشير الى دلالة ملازمة لعناه «فى الميزان» موحية بفضله وشأنه ، ثم اتباع جميع ذلك بلفظ يدل على مكانة هاتين الكلمتين وتقريب قائلهما الى الله وهو لفظ « حبيبتان » ، ثم ورود نص هاتين الكلمتين بعد هذا التقديم المشوق اليهما والذى يحمل حكمهما وفضلهما .

هذا كله فضلا عما لقصر الجمل وما بينها من توازن مسوتى يحدثه ذلك الإيقاع الناشئ عن تماثل الأوزان وتوازى الجمل ، وتناسب ذلك كله مع الحركة الشعورية الناشئة عن ترديد قسمى الأسلوب : القسم الأول المشتمل على الوصف ، والثانى المشتمل على نص التسبيح ،



وتنظرار بعض كلماته وحسن انتهاء الجممل من آثار متعددة وميزات واضحة .

ومما يرتبط بهذا المجال استخدام الألفاظ المتعلقة بالكييل والقيمة وتنوعها بتنوع ما تتصل به من البلدان والمجتمعات مما يحمل الكثير من دلائل القدرة على الاحاطة بهذه الأمور والمنقة التعبيرية المحددة لكل منها .

ومن هذا القبيل ما روى عن أبي هريرة قال (٢٨) : قال رسول الله ﷺ : « مَنْعَتِ الْعِرَاقُ دَرَهْمَهَا وَقَفِيزَهَا ، وَمَنْعَتِ الشَّامُ مَدِّيَّهَا ، وَدِينَارَهَا ، وَمَنْعَتِ مِصْرَ أَرْدَبَهَا وَدِينَارَهَا ، وَعَدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ ، وَعَدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ ، وَعَدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى ذَلِكَ لِحْمِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمِهِ » (٢٩) .

أما استخدام ألفاظ العدد فلها مجالاتها المتعددة في أسلوب الحديث النبوى الشريف .

وتعدد هذه المجالات مرتبط بتعدد الواقع التى تستخدم فيها هذه الأساليب مشتمة على تلك الألفاظ .

فحين يكون الموقف مهولا خطيرا يرد الأسلوب المتضمن لفظ العدد مشتتلا على ما يوحي بذلك الزول مصدرا بالأمر متبوعا بما يؤكد

(٢٨) صحيح مسلم : ٧٤٥/٥ .

(٢٩) أما ( القفيز ) فمكيال معروف لأهل العراق ، وأما ( المدى )

فبضم الميم على وزن قفل وهو مكيال معروف لأهل الشام ، وأما ( الأردب )

فمكيال معروف لأهل مصر . أما ( وعدتم من حيث بدأتم ) فهو بمعنى

الحديث الآخر : ( بدأ الإسلام غربيا وسيعود كما بدأ ) انظر : صحيح

مسلم : ٧٤٥/٥ .

دلالاته ، ونجد كل لفظة من الألفاظ الموضحة لمداول العدد متبوعة بماء يبرز دلالتها وأثرها ، فضلا عما يتميز به الأسلوب فى شكله العام من احاطة تامة بجزئيات المعنى وسعى الى ابراز دلالة واحدة وأثر نفسى واحد .

ومن أمثلة هذا الضرب من الأساليب ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه من أن رسول الله ﷺ قال (٣٠) :

« بادروا بالأعمال سبعا ، هل تنتظرون الا فقرا مُنْسِيًا : أو غنى مُطْعِيًا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » .

ولعل وضع هذه التفاصيل التى تمثل مدلولات العدد داخل اطار الاستفهام له دلالاته الظاهرة وأثره الواضح فى قوة الأسلوب وتميزه بالاحاطة التامة بالمعنى فى تمكن يدعو الذهن الى المشاركة والمتابعة والاقتران التام .

وكما ورد التنكير معبرا عن الهول والخطورة ، فان التعريف يرد معبرا عن ظهور الأمر ووضوحه وكونه معروفا ظاهر الصفة لا سبيل الى إنكاره أو الجهل به ، ولعل ذلك كله يزداد ظهورا وتعريفا اذا ما أتبع العدد المعرف بالصفة المعرفة .

فاذا ما اجتمع ذلك فى وصف أمر منهى عنه مصدر بفعل دال على النهى أو الاجتناب أو الترك كانت العناصر الأسلوبية قد اكتملت فى تهيئة النفس والعقل لتقبل معرفة هذه الأتساء ، وتتهيئتها كذلك لتقبل ما تتلقاه من آثار المعانى ودلالات الأسلوب .

ومن هذا المقبول ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه من أن رسول الله ﷺ قال (٣١) :

« اجتنبوا السبع الموبقات (٣٢) • قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والنشوى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » •

فالبدء بالفعل اجتنبوا المتضمن ذم ما يطب اجتنابه وقبحه واتباعه بالعدد المعرف بأل «السبع» الدال على التعيين والحصر، ثم اتباع العدد بصفته «الموبقات» المعرفة أيضا ثم اتباع ذلك كله بتفصيل هذه الموبقات السبع ترتيب أسلوبى للمعانى والآثار النفسية بشكل محكم له قوته وفضله وآثاره المحققة غايته •

ولبيان سوء وخطورة مواقف أخرى نجد أسلوبا غير ذلك يتلاءم وطبيعة تلك المواقف ، ونجد العدد يرد فى اطار تركيب أسلوبى غير ما سبق •

فاذا كانت بعض المواقف تتطلب أهرا بالاجتناب فان بعضها يتطلب الاستعاذة منها ، واذا كانت هذه الاستعاذة تحسن فى أوقات معينة ومواقف خاصة فان الأسلوب يستهل بالنص على ذلك وبيانه من أول الأمر •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال (٣٣) : قال رسول الله ﷺ : « اذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع ، يقول :

(٣١) صحيح مسلم ٢٧٧/١ •

(٣٢) الموبقات : المهلكات • ويق بفتح الباء ويبق بكسرها اذا هلك •

أوبقه : أهلكه •

(٣٣) صحيح مسلم ٢٣٣/٢ •

اللهم انى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الحيا  
والمات ومن شر فتنة المسيح الدجال » •

فهذا النمط الإسلوبى الذى استهل بتحديد الموقف « اذا تشهد أحدكم »  
مشتملا على اذا الظرفية والفعل المضارع الدال على الاستمرار والفاعل  
المضاف الى ضمير المخاطبين والذى يفيد الشمول لجميع أفراد ذلك  
المجتمع نمط له أثره القوى فى جذب الذهن الى تلقى ما سيرد عليه  
محاوِلا البحث من خلال متابعتة عن جواب « اذا » الذى سيتضمن  
بالضرورة أمرا له أهميته ، وحين يضاف الى ذلك كله ورود الجواب فى  
صيغة من صيغ الأمر « فليستعذ » المشعر بزول المستعاذ منه فان درجة  
الشعور بالوقف تكون قد قويت مستمدة آثارها مما ورد ذكره بعدها  
فضلا عما سبق من قبل •

وحين يتبع جميع ذلك بهذا البيان الذى ورد بمثابة التكرار والتأيد  
للفعل السابق فى الفعل « يقول » الذى يتضمن ورود نص الدعاء فان  
ذلك كله يكون بمثابة التفصيل الموضح للمضمون والمعنيين على فهمه  
وتمكنه بعد أن تم تحديده وتعيينه وتنكيره لبيان هوله بهذا العدد المذكور •

ولعل قصر الجمل الدعائية هنا من أهم العوامل المساعدة على توضيح  
وتأكيد مغزى الحديث وتثبيت مدلوله فى النفس والفاظه فى الذاكرة •

وكثيرا ما يرد لفظ العدد فى الحديث الشريف ضمن أسلوب قصر  
هنيئذ فضل المعدود وعظم شأنه ومكانته ، ومن هذا القبيل ما روى عن  
أبى سعيد من أن النبى ﷺ قال (٣٤) : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة  
مساجد ، مسجدي هذا والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، » •

ومن هذا القبيل أيضا - مع استعمال ضرب آخر من الأساليب المتضمنة معنى القصر - ما روى عن جابر بن عبد الله الأنصاري من قوله : قال رسول الله ﷺ (٣٥) :

« أعطيت خمسا لم يُعْطهنَّ أحد قبلي ، كان كل نبي يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحر وأسود ، وأُحِلَّتْ لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا ، فأبى رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، وُنصِرْتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأُعْطِيَتْ لى الشفاعة » .

وفضلا عما تضمنه هذا الأسلوب من تحديد لغوى دقيق فى اللفظ « خمس » الفكرة الذى أفاد تعظيم شأن المعداد وبيان فضله ، فإن هناك العديد من العناصر اللغوية والخصائص الأسلوبية التى أسهمت فى تحقيق غايته فورد على هذه الصورة الواضحة المفصلة التى تجتمع جزئياتها المتعددة حول نقطة محورية واحدة تحقق دلالة تميّز وفضل نبوة الرسول ﷺ .

من ذلك بدء الحديث بالفعل الماضى الدال على تحقق الحدث وثبوته ، ومنه نفى المضارع « لم يعطهن » بلم التى تفيد - فى جانبها المعنوى - القلب الدال على عدم الحصول من قبل مطلقا ، ومنه توسط العدد « خمسا » النكرة بين هذين الفعلين الواردين - كما اتضح - مرة بالاثبات وأخرى بالنفى ، ومنه ورود المسند اليه للفعل المنفى نكرة دالة على العموم والشمول ، ومنه تأكيد جميع ذلك بالظرف « قبل » المضاف الى ياء المتكلم ، ومنه الاجمال الذى تضمنته هذه العبارة الاولى ، ثم التفصيل الذى اشتمل عليه الجزء الثانى من الأسلوب وهو بقية

الحديث الشريف ، ومنه الاهتمام بالايضاح وعدم الاكتفاء بالاشارة والايجاز حين يقتضى المقام ذلك فى بعض الجمل ، كما هو الحال فى : « بعثت الى كل أحمر وأسود » ، « أحلت لى العنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان » ، فلم يُكْتَفَ فى ذلك بما يدل عليه وحسب ، فلم يقل بعثت الى جميع الناس ولم يكف بقوله : أحلت لى العنائم فقط ، ولم يترك جملة وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا دون ايضاح لمعنى ذلك بل بين فى كل موضع ما يحتاج الى الايضاح ليرد الحديث بهذا البيان فى أسلوب محكم قوى الدلالة .

هذا كله فضلا عن استخدام الأفعال الماضية فى جميع المواضع تشبيها لدلالة الفعل الماضى الذى ورد فى بدء الأسلوب وتحقيقا لغاياته التى سبق ذكرها .

وفى أسلوب آخر يتضمن مغزى قريبا من ذلك فى اطار من التقسيم الحسن والتكرار المؤكد للمعانى التى تدور كذلك حول بيان فضل هذا الدين وأهله ، ما روى عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٣٦) : « فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وجعلت تربتها لنا طهورا اذا لم نجد الماء » .

ولا يخفى ما أفاده هذا التشبيه الدقيق الذى تشتمل عليه عبارة « جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة » من أثر فى المعنى ونقل واقعى للصورة التناسق التام فى هذه الصفوف التى يسودها جو روحى ، ولا تخفى أيضا دلالة ذلك التشبيه المتعلق بالتكريم والتفضيل ، ذلك كله

فضلا عما اشتملت عليه عبارة « وجعلت لنا الأرض مسجداً وجعلت قريتها لنا طهوراً اذا لم نجد الماء » من اطناب يحقق غايات عديدة ، كالتأكيد الذى يفيد التكرار ، والايضاح الذى يفيد التفصيل ، والاحتراس الذى تم تكميل المعنى به فى نهاية العبارة « اذا لم نجد الماء » دفعا لقتوم غير المقصود من المعانى .

وبتأمل المزيد من خصائص الأسلوب فى هذا المجال ارتباطا بما يعبر عنه من المواقف نجد بعض الكلمات تأخذ مركز الصدارة فى مستهل الحديث حين يتجه الأسلوب الى تصوير ما يمكن أن يتصور صعباً أو مستحيلاً من الأمور ، فلا يبادر النبى ﷺ بطرح ذلك الأمر فجأة دون تمهيد وتهيئة تمنحه صفة القبول والاقناع ، بل يبدأ بطرح كلمات تناسب الموقف فى اطار أسلوب يجذب الأذهان الى المتابعة ، ويدعوها الى الاستفسار والرغبة فى الفهم فتحصل لها الفائدة .

ومما يدل على ذلك استخدام الفعل الدال على صعوبة الأمر أو استحالة « عجز » فى اطار أسلوب استفهام موجه الى المخاطبين فى مستهل بعض الأحاديث التى تتضمن أمورا من شأنها أن يظن كونها مستحيلة أو صعبة التحقق .

ومنه ما روى عن مصعب بن سعد رضى الله عنه عن أبيه قال (٣٧) :

« كنا عند رسول الله ﷺ فقال : أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة »

فالاستهلال بهذا الاستفهام الموجه الى المخاطبين مشعر بنفى المستفهم عنه وهو العجز عما تضمنه السؤال ودخوله مجال الامكان

والقدرة مما هيأ لاستفهام آخر عن كيفية إمكان ذلك ، مما مكن للفكرة  
ويبلغ بها هذا المبلغ الذي اتسم بالوضوح والتفصيل ودقة التعبير .

ومن هذا القبيل أيضا ما ورد من الأحاديث مبينا فضل ومنزلة سورة  
بعينها أو بعض السور فى القرآن الكريم .

ومنه ما روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال (٣٨) : « أيعجز  
أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن ؟ قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟  
قال : قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » .

ولعل استخدام لفظ الثلث الدال على النسبة والتقسيم هنا من  
الألفاظ المعينة على بيان هذا الفضل وتقريبه الى الأهمام .

وفى غير هذا الأسلوب نجد اتجاهها آخر الى إيضاح المكانة والمنزلة  
وابراز أهمية المتحدث عنه بطرق أخرى اذا كانت طبيعة الموقف غير  
ما سبق .

فحين يكون للكلمة أو العمل الواحد جزءا متعدد الوجوه ومكانة  
لها من الفضل ما ليس لسواها ، يرد الأسلوب مصدرا بنص هذه الكلمة  
أو ذلك العمل ، متبوعا بالنص على هذه الوجوه المتعددة مشتملا على  
الكثير من وسائل تقريب الفكرة وإيضاحها وتحديدها .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ  
قال (٣٩) : « من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله  
الحمد وهو على كل شىء قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت  
له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان

• (٣٨) صحيح مسلم ٤٦١/٢

• (٣٩) صحيح مسلم ٥٤٦/٥



يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك ، ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياها ولو كانت مثل زبد البحر » •

وحين يكون الجزاء واحدا لمجموعة من الأعمال المتعددة الوجوه نجد الأسلوب مصدرا بانص على هذا الجزاء متبوعا بتفصيل تلك الوجوه التى تستحقه •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة أو عن أبى سعيد رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال (٤٠) : « سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله : أمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل كان قلبه معاقا بالمسجد اذا خرج منه حتى يعود اليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت ذات حسب وجمال فقالت : انى أخاف الله عز وجل ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »

وتصدير نص الثواب بهذا العدد المذكور فى أول لفظ من ألفاظ الحديث له دلالاته وقوة تحديده وحصره للمعنى فى اطار يدعو المتلقى الى المتابعة والاحصاء حتى تتم له هذه الأنواع السبعة ويبحث فى الوقت نفسه الذهن والانفعال على تأمل كل نوع والحرص على التخلق بصفات واحد على الأقل منها •

وبهذه الخصائص يكون الأسلوب قد حقق ثماره الفكرية والنفسية مرغبا ومقتنعا وبمبينا فضل التميز بما ذُكر •

والاستهلال بالعدد بوضعه فى أول لفظ من ألفاظ الحديث الشريف يرتبط بمقتضيات الموقف فى أحوال أخرى تعبر عنها الأحاديث الشريفة •

ومن ذلك التعبير عن صفات يكون فضلها باجتماعها ويكون وجودها مجتمعة له تميزه الظاهر ، فيرد لفظ العدد؛ الدال على هذه الصفات في مستهل الحديث مشعرا بأن المعدود أمر جامع لوجوه الفضل ، أو أمر متفرد في صفته •

ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال (٤١) : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان: من كان الله ورسوله أحبَّ اليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه الا الله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار » •

وقد يرد الأسلوب مصدرا بلفظ العدد اشعارا بزم المعدود ويأته ممقوت يجب نبذه والتخلص منه ، ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٤٢) :

« اثنان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، واننياحة على الميت » •

وحين لا يكون العدد مقصودا لذاته اما لكونه أمرا معروفا أو لكون المعنى واضحا بدونه ، فانه يرد لغايات أخرى •

منها — على سبيل المثال — زيادة الحث على العمل بمضمون الحديث ولفت النظر الى يسر الأمر وامكانه ، كما هو الحال في هذا الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (٤٣) :

(٤١) صحيح البخارى ٧٢/١ :

(٤٢) صحيح مسلم ٢٥٦/١ •

(٤٣) الترمذي ٢٣٨/٤ •

« ان سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي  
تبارك الذى بيده الملك » •

ومن خلال ذلك كله يمكن القول بأن لاستخدام هذه الألفاظ الدالة  
على العدد وما سبق بيانه من الألفاظ الدالة على الوزن أو على النسبة  
دلالاتها العديدة فى الحديث النبوى الشريف ومجالاتها الواسعة فى  
اطار هذه التراكيب الأسلوبية الهادفة مكتسبة فى ذلك الكثير من  
الخصائص ومحققة العديد من الغايات •

وبالانتقال الى غير ذلك من خصائص أسلوب الحديث الشريف  
فى هذا المجال ، فانه يمكن ملاحظة تنوع طرق الأداء الأسلوبى  
وما يتضمنه من وسائل التعبير وفقا لتنوع الشخصيات المتحدث عنها  
أو التى يوجه اليها أو يتعلق بها بسبب من الأسباب ، ارتباطا بتنوع  
هذه الشخصيات من جهة ، وتحققا للغرض الذى يرمى اليه الأسلوب  
من جهة ثانية ، وصدورا عن خلق النبى ﷺ وأدب تعبيره من جهة ثالثة •

وفى هذا المجال يستطيع الدارس أن يرى اتجاهات عديدة لأساليب  
التعبير تتجاوز مجرد أداء المعانى وايصالها للسامعين فى اطار من  
الاقناع والتأثير والافادة الى غايات أخرى تقتضيها المواقف التى  
تساق لأجلها هذه الأساليب •

ويمكن ملاحظة بعض هذه الخصائص فيما يتعلق بطرق التعبير  
التى خاطب بها النبى ﷺ الكثير من أعدائه الذين كان خطابهم يتطلب  
كثيرا من الحذق والاصابة وقوة الردع والقهر فى اطار من الأدب  
الرفيع الذى لا يخرج بالأسلوب النبوى عما تميزه به من خلق وسمو  
وقوة •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت (٤٤) :  
« استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم ،  
فقال عائشة : بل عليكم السام واللعنة • فقال رسول الله ﷺ :  
يا عائشة : ان الله يحب الرفق فى الأمر كله • قالت : ألم تسمع ما قالوا ؟  
قال : قد قلت وعليكم » وفى رواية : « قد قلت عليكم » ، وفى رواية  
عن جابر بن عبد الله قال (٤٥) : « سلم ناس من يهود على رسول الله  
ﷺ فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم فقال : وعليكم • فقالت عائشة  
وغضبت : ألم تسمع ما قالوا • قال : بلى • قد سمعت فرددت عليهم وانا  
نجاب عليهم ولا يجابون علينا » •

فاكتفاء النبى ﷺ بقوله : « وعليكم » دون تفصيل قول محقق  
للكتير من الغايات الأسلوبية ، منها : أنه حقق رد الدعاء بملوات الذى  
يتضمنه كلامهم عليهم دون تصريح يئأى بالأسلوب عما يليق به •

ومنها : كونه أقوى من التصريح لأن التصريح بالرد المساوى سهل  
التناول داخل فى مقدور الجميع • ومنها : كونه موجزا • ومنها كونه :  
محققا للرفق الذى ذكره ﷺ فى رده على عائشة « ان الله يحب الرفق  
فى الأمر كله » ومنها : كونه أقوى من دعائهم كما قال النبى ﷺ :  
« وانا نجاب عليهم ولا يجابون علينا » •

ويمكن ملاحظة غير ذلك من الخصائص فى مجالات أخرى يتطلب  
التعبير عنها قدرة خاصة على الاقتناع والمعالجة مراعاة لحال المخاطب  
وموقفه •

ومن ذلك تميز الأسلوب بالقدرة على اقتناع المنكر أو الشاك المتردد  
بطرق الاستدراج وضرب المثل وغير ذلك من وسائل الإقناع •

• (٤٤) صحيح مسلم ٩/٥

• (٤٥) صحيح مسلم ٩/٥

ومن هذا القبيل ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٤٦) :  
 جاء رجل من بنى فزارة الى النبي ﷺ فقال : « ان امرأتى ولدت غلاما  
 أسود • فقال النبي ﷺ : هل لك من ابل ؟ قال : نعم • قال : فمما  
 ألوانها ؟ قال : حمر • قال : هل فيها من أورك (٤٧) ؟ قال : ان فيها  
 كورقاً • قال : فأنى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزع عرق •  
 قال : وهذا عد أن يكون نزع عرق » •

والبدء هنا بالسؤال : « هل لك من ابل ؟ » له الكثير من من وجوه  
 التميز والفضل ، ففيه : لفت للمخاطب عن المضمون المباشر لكلامه ،  
 وفيه تهديئة لانفعاله ، وفيه صرف لذهنه الى مجال التمثيل الحسى  
 والتقريب باستخدام ما يناسبه من الأمثلة الواقعية التى يعيشها  
 ويلمسها • وفيه : استخدام صيغة الاستفهام التى تتيح للمخاطب فرصة  
 التفكير والمشاركة الذهنية للوصول الى نتيجة منطقية •

وفى الانتقال من هذا السؤال الى سؤال ثان عن ألوان هذه الابل  
 تمهيد لعقد المخاطب لتقبل ما سيقى عليه من الحزم المتعلق بذلك • وفى  
 السؤال الذى تلا ذلك كله تقريب تسديد للحقيقه التى يبحث عنها الرجل ،  
 وفى الانتقال الى السؤال الاخير فى هذه السلسلة المتصلة طلب لاجابة  
 هى بمثابة الحكم العقلى الموصل الى نقطة التقاء البدء والانتهاء وهى  
 فى الوقت نفسه بمثابة وضع الحل المقنع فى هذا الأمر •  
 أضف الى ذلك كله ما تميز به هذا الأسلوب من قدره على  
 استدراج المخاطب نحو وضع الح بنفسه ، ومساعدته على الخلاص من  
 ترددده وتساكه •

(٤٦) صحيح مسلم ٧٣٥/٣ •

(٤٧) الأورك هو الذى فيه سواد ليس بصفاف • ومنه قيل للرماد  
 أورك ، وللحمامة ورقاء ، وجمعه ورق بضم الواو وأسكان الراء كاحمر وخمر

ذلك كله فضلا عما يتميز به هذا الأسلوب من بناء المعانى بعضها على بعض فى شكل أجزاء متصلة بنى فيها اللاحق على سابقه فى اطار من التطور والنمو الموصل لها الى نقطة دلالية واحدة تنتهى لديها مجموعة المعانى السابقة •

وتتنوع طرق المعالجة فى أسلوب الحديث الشريف فى هذا المجال وفقا لطبيعة القضية التى تتطلب هذه المعالجة من جهة ، ووفقا لما تتعلق به من الشخصيات والملايسات من جهة ثانية •

فحين تكون قضية جماعية محتاجة لعلاج نفسى هادىء وقوى فى آن واحد ، ترد معالجتها وفقا لهذه الطبيعة فى اطار أسلوب مباشر مدعم بالوسائل التى يتطلبها هذا الموقف •

ويمكن ملاحظة ذلك فى مثل هذا الحديث الذى روى عن أبى ذر رضى الله عنه (٤٨) أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ ان بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة •••»

فقد بدأ أسلوب المعالجة بطرح هذا السؤال الذى يفيد انكار التجرد مما يتصدقون به واثبات خلافه واتباع ذلك بما يوضحه ويفصله ، ويتضمن اثباتا لحقيقة واقعة وعلاجا لآثار نفسية ، وتوجيها الى مجال أفضل مما يطلبه المخاطبون •

هذا كله فضلا عما يتضمنه الأسلوب من ربط جذرى قوى بين الموقفين المتقابلين المذكورين ، موقف المتصدقين بأموالهم ، وهؤلاء الذين لا يجدون ما يتصدقون به فى اطار واحد من المعالجة ، مدلوله أن الاجتهاد فى العبادة هو الأصل •

وارتباطا بطبيعة الموقف وشخصية المخاطب — كما سلف الذكر — يتنوع الأسلوب •

فحين يكون الموقف مرتبطا بوهم ، ومتعلقا بما لا أساس له من الحقائق الواقعية فان العلاج يأتى بأسلوب ملائم لذلك فى تخير دقيق أيضا لوضع المخرج والحل الذى يناسبه •

ومن هذا القبيل ما روى عن جابر رضى الله عنه قال (٤٩) : « جاء رجل الى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : رأيت فى المنام كأن رأسى قطعَ • قال : فضحك النبى ﷺ وقال :

« اذا لعب الشيطان بأحدكم فى منامه فلا يُحدِّثْ به إنسان » وفى رواية : « اذا نُعِبَ بأحدكم ولم يذكر الشيطان » •

فقد ورد الأسلوب هنا معالجا الموقف بصرف نظر المخاطب عنه ومتضمنا تجريدا عاما ليصلح لسواه من المخاطبين وليتسم بهذه المعالجة الشاملة لئلا هذه المواقف التى لا ينبغى أن تشغل الأذهان أو تؤثر فى النفوس •

ويحمل أسلوب النبى ﷺ غير ذلك من الخصائص اللغوية التى تقتضيها أحوال المخاطبين وطبائعهم ومواقفهم •

ومن أبرز هذه الخصائص — إضافة الى ما سبق — العناية بتضمين طرق التعبير الانفعالات النفسية التى تناسب المواقف المختلفة ، ومراعاة الآثار النفسية التى تترتب على هذه الطرق .

فإذا كان الموقف صادرا عن اجتهاد وحرص ، وكان فاعله مخطئا فيه عن غير قصد ، فان الأسلوب يتسم بتقديم ما يدل على تقدير الاجتهاد أولا ، ثم التوجيه الى الصواب ثانيا معالجة لهذا الخطأ .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبى بكره رضى الله عنه (٥٠) أنه انتهى الى النبى ﷺ وهو راكم ، فركع قبل أن يصل الى الصفا ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال « زادك الله حرصا ، ولا تعد » .

فبعد أن دعا له — ﷺ — بما يناسب اجتهاده وحرصه ، وجهه الى الصواب فى هذا الأسلوب الموجز « ولا تعد » .

وإذا كان الموقف صادرا عن أخطاء وقع فيها أناس مخصوصون وتحتاج معالجتها الى توجيه عام لسائر المسلمين ، فان الأسلوب يرد خاليا من تعيين المخطئين واستبدال ذكرهم باستخدام كلمات عامة لا تحمل تجريحا لمن أخطأ بل توجيهات عامة للسامعين ، تحقيقا للعناية وتجاوزا رفيعا عما لا جدوى من ذكره .

ومن هذا القبيل استهلال الكثير من الأحاديث التى تدور حول مواقف من هذا النوع بقوله ﷺ : « ما بال أقوام ؟ » ومثلها الكلمات العامة التى تتجاوز التخصيص الى التعميم ، والتجريح الى التوجيه .

ومن هذا القبيل ما روى عن أنس رضى الله عنه (٥١) أن أصحاب

(٥٠) مختصر صحيح البخارى ١٦٤/٦ .

(٥١) صحيح مسلم ٥٤٩/٣ .



النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر ، فقال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم لا أكل اللحم ، وقال بعضهم لا أنام على فراش ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سننتى فليس منى » •

وهو أسلوب مشتمل على خاصة مراعاة طبيعة هذه المواقف المذكورة ، والربط بينها وبين أحوال الناس وقضاياهم الدينية ، ومعالجة ما قد يطرأ على الأذهان من أمور مخالفة لحقيقة هذه القضايا ، بالإضافة الى تميز هذا الأسلوب بوضع هذه التوجيهات فى اطار خطبة عامة نظرا لعموم هذه القضايا وأهميتها ، وبالإضافة أيضا الى تقديم القنوة التى يقتترن من خلالها القول بالتجربة العملية ماثلة فى اسناد هذه الأفعال والأقوال الى ذات المتكلم ﷺ ومنتهاية بهذا الوعيد الذى يؤكد ضرورة الالتزام بما ورد فيها •

واهتماما بآثار الأسلوب فى المخاطبين وأحوالهم يرد التعبير مشتملا على عاطفة الشفقة ، متضمنا الحرص على ما يناسب جميع الأحوال العامة منها والخاصة المتعلقة بالمسامعين •

ومن أمثلة ما اشتمل على ذلك من الأساليب ما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه (٥٢) - أن سائلا سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة فى ثوب واحد ، فقال رسول الله ﷺ : « أو كلكم ثوبان ؟ » كما يرد الأسلوب مشتملا على عاطفة الرحمة وانفعال الشفقة مرتبنا بما يدل على ذلك من المظاهر ومفسرا ومعللا أسبابها ، وواضعا

الحدود الدقيقة التي لا ينبغي تجاوزها في اطار ما تتعلق به من المواقف التي تقتضى ذلك كله .

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال (٥٣) :  
« دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيب القيين، وكان ظئراً لأبراهيم، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّه وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وأبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذر فان، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا ابن عوف ! انها رحمة . ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ : ان الحين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول الا ما يرضى ربنا، وانا بفراقك يا ابراهيم لحزونون » .

وهى جمل موجزة دالة، مفيدة للعاطفتى الرحمة والحزن بهذه المظاهر التي يجب ألا تتجاوزها، وواضحة حدودا للتعبير عنها بتقبيد هذا التعبير بعدم تجاوزه لما يرضى الله .

أما حين تختلف العاطفة أو الانفعال صدورا عن اختلاف طبيعة الموقف فان أسلوب المعالجة يكون متخذا وضعا لغويا مناسبا لهما .  
فاذا كان الانفعال مذموما لما قد يصاحبه من مظاهر ويؤدى اليه من أعمال مذمومة قد تتجاوز آثارها فاعلها الى غيره يرد الأسلوب الملائم لذلك متضمنا معالجة محددة للموقف غير مشتمل على تفاصيل أو مناقشات مما لا يقتضيه الحال .

ومن أمثلة ذلك انفعال الغضب وما يصاحبه من مظاهر ويؤدى اليه من أقوال أو أفعال أو كليهما .

ومما ورد في ذلك ما روى عن عدي بن ثابت عن سليمان بن مُصرَد قال (٥٤) : « اسْتَبَّ رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمرا عيناه ، وتنتفخ أوداجه ، قال رسول الله ﷺ : « انى لأعرف كلمة لو قالها هذا لذَّهَبَ عنه الذى يَجِدُ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقال الرجل : وهل ترى بى من جنون ؟ » •

ففى هذه الجملة الموجزة معالجة شاملة عامة مُجرِّدة للموقف ، مرتفعة فى ذلك عن مستوى هذا الموقف الخاص الى وضعه فى اطار عام صالح لكل ما مثله من المواقف والأشخاص ، وفيها تحديد لمصدر الغضب ، وتلميح الى ما قد يتطور اليه من الأمور وينتج عنه من المشكلات ان استسلم له صاحبه حين لا يفظن الى ذلك المصدر الذى لا يملك بنفسه السيطرة عليه بل يستمدها من الله عز وجل فى هذه الاستعاذة المنصوص عليها ، وفيها — فضلا عن ذلك كله — الاعراض عن صاحب هذا الانفعال وترك مخاطبته الى غيره والاشارة اليه بهذا وبضمير الغيبة كما فى « عنه » و « يجد » ، وفى ذلك الكثير من الدلالات المرتبطة بموقفه وانفعاله الذمومين •

وحين يكون الموقف مرتبطا بانفعال القسوة وما يترتب عليه من ظلم وعدوان على الحقوق فان الأسلوب يرد متضمنا حكم ذلك مبينا درجته من السوء متضمنا الوعيد الشديد لصاحبه فى اطار موجزا قوى الدلالة والأثر •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن طاحه بن مُصرَف عن خيثمة قال (٥٥) :

• (٥٤) صحيح مسلم ٤٦٩/٥

• (٥٥) صحيح مسلم ٣٤/٢

« كنا جلوسا مع عبد الله بن عمرو اذ جاءه قهرمان (٥٦) له ، فدخل ، فقال : **أَعْطَيْتَ الرَّفِيقَ قَوْنَهُمْ ؟ قَالَ لَا . قَالَ : فَاَنْطِقْ فَأَعْطِيهِمْ .** قال : قال رسول الله ﷺ : **« كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قَوْتَهُ » .**

وتصدير هذا الأسلوب بقوله : **« كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا »** تعبير دقيق عن عظم هذا الاثم وبشاعته ، ووعيد شديد لصاحبه . ولعل البدء بالفعل **« كَفَى »** واتباعه بمتعلقه **« بِالْمَرْءِ »** وتذكير **« إِثْمًا »** واتباع ذلك كله بتفصيل سببه : **« أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قَوْتَهُ »** تأكيد وابرار واضح لهذه الدلالة المتضمنة للردع والزجر الشديدين .

ويتجه الأسلوب الى ضرب من التفصيل والتحديد وتشريك السامعين جميعا في مضمونه ، وبث العديد من عناصر جذب الذهن الى متابعتها ، والعديد من الالفاظ المحوية في الأذان بما تحمله من التحذير والوعيد ، والحرص على التبليغ والصدق في الأداء ، والكثير مما يتصل بذلك من الخصائص حينما يكون الموقف متضمنا مجموعة من القضايا التشريعية التي يترتب عليها تماسك المجتمع والمحافظة على مبادئه الدينية وحقوق أفراده .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال (٥٧) : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ : أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا : يَوْمٌ حَرَامٌ . قَالَ : فَأَيُّ بِلَادٍ هَذَا ؟ قَالُوا : بِلَادٌ حَرَامَةٌ . قَالَ : فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قَالُوا : شَهْرٌ حَرَامٌ . قَالَ : فإِنْ دَمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بِلَادِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ**

(٥٦) قهرمان : بفتح القاف واسكان الهاء وفتح الراء وهو الغازن القائم بحوائج الانسان وهو بمعنى الوكيل ، وهو بلسان العربس .  
(٥٧) مختصر صحيح البخارى ٤٠٨/١

هذا • فأعادها مرارا ، ثم رفع رأسه فقل : اللهم هل بَلَغْتَ ؟ اللهم هل بلغت ؟ فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدَ الغَائِبَ ، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » •

فالبداء بالنداء العام ، والانتقال الى السؤال عن اليوم ثم البلد ثم الشهر مما هو معلوم الحكم لدى المخاطبين تنبيه الى درجة أهمية الموقف وهوله واشعار بأهمية ما سيرد من المضامين على أسماع المخاطبين • ثم ان الانتقال الى وضع القضايا المتحدث عنها في هذه الألفاظ المحددة « دماءكم وأموالكم وأعراضكم » تركيز للمضامين على نحو يحفظها في الذاكرة فلا تجاوزها ، ووضع لدلالات هامة في الأذهان ، وايضاح للمحاور المركزية التي تدور حولها أسس الأمن وأصول المعاملات • ثم ان الرجوع الى ربط ذلك بما سبق ذكره من : اليوم والبلد والشهر في اطار تشبيه محكم واحد تقريب وتأكيد وقوة احكام للتعبير الدال الموحى بخطورة تجاوز هذه الحدود •

أضف الى ذلك ما يتميز به هذا الأسلوب من قوة الأداء وربط هذه الأحكام بما تلاها مما يؤكد أنه تبليغ مباشر لأمانة يؤديها النبي ﷺ في قوله : « اللهم هل بلغت » مرتين ، ثم الحرص على أن يكون هذا التبليغ عاما للجميع في قوله : « فليبلغ الشاهد الغائب » مما يؤكد المسؤولية العامة والخاصة عن جميع ذلك ، ثم قوة الانتهاء بهذه العبارة التي اجتمعت لديها كل الدلالات والمعاني السابقة « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » •

ويتجه الأسلوب الى ضرب آخر من الخصائص التي تطبعه بطابع شعورى منثق والموقف المرتبط به ، فيرد هادئا مسترسلا معبرا عن الفطرة والتلقائية جامعا بين السكينة والاستسلام والاقرار بالأصول والحقائق اذا كان الموقف متعلقا بالنوم وما يكتنفه من هدوء وسكينة ، ويتعلق به من تذكير بالنهاية وانتقال من الحياة والحركة اليها •

ومن هذا القبيل ما روى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال (٥٨):  
قال النبي ﷺ : اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع  
على شقك الايمن، ثم قل : اللهم اسلمت وجهي اليك ، وفوضت أمرى  
اليك ، والجأت ظهري اليك ، رغبةً ورهبةً اليك ، لا مأجأ ولا منجأ  
منك الا اليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، وبنبيك الذي أرسلت .  
• فان مُتَّ من ليلتك فأنت على افطرة • واجعلون آخر ما تتكلم به «  
قال فرَدَدَتْهَا على النبي ﷺ ، فلما بلغت : « اللهم آمنت بكتابك الذي  
أنزلت » قلت : ورسولك قال : لا • ونبيك الذي أرسلت » •

واستهلاك الأسلوب — هنا — باذا تحديد للموقف وربط للشرط  
بجوابه ، ثم ان اتباع ذلك بما تلاه مما يرتبط بالتهيئة لهذا الموقف اشعار  
بأهميته ، وأهمية ما يتعلق به ، واشعار للنفس باقبالها على الله سبحانه  
وتعالى ، أضف الى ذلك ما أتبع به من نص الدعاء الوارد فى هذه الجمل  
القصيرة المسجوعة التى يمنحها قصرها وإيقاعها طابعا شعوريا يتفق  
وذلك التردد النفسى لدرجات الانفعال بها ، فضلا عما تلتقى لديه  
دلالات الكلمات الواردة من المعانى المتلاحقة التى تتصل جميعها بجزئيات  
تسلم كل منها الى الأخرى حتى تتعاق فى نهايتها بدلالة كلية واحدة ترتبط  
بها معانى التسليم ، والتفويض ، والالغاء ، والنجاة ، والايمان الواردة  
فى هذا الدعاء •

كما يتجه الأسلوب الى اضافة صفات الوقار والاحاطة بالمعانى  
الملائمة للموقف ، والاشعار بأهمية ذلك الموقف وعظيم شأنه ، وبيان  
أنه موقف متميز المنزلة اذا كان متعلقا بالصلاة وما يرتبط بها من  
خشوع ووقار وسكينة •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٥٩) :  
كان رسول الله ﷺ إذا كبر فى الصلاة سَكَتَ مُهَنِيَّةً قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ، فَقُلْتُ:  
يا رسول الله : بأبى أنت وأمى أَرَأَيْتَ سَكَوتَكَ بَيْنَ التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ،  
ما تقول؟ قال : أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين  
المشرق والمغرب ، اللهم نقّنى من خطاياى كما يُنَقَّى الثَّوبَ الأَبْيَضَ  
من الدَّنَسِ ، اللهم اغسلىنى بالمُتَلَجِّ والماء والبرَدِ » •

ومن هذا القبيل أيضا اتجاه الأسلوب الى بيان هيئة المقبل على  
الصلاة وما يحسن به من هدوء الانفعال واطمئنان النفس واستعدادها  
لهذا الموقف العظيم بما يناسبه وما يصحب ذلك من أفعال ومظاهر ،  
وتعليل ذلك كله بما يوضحه ويؤكد مغزاه •

ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٦٠) : سمعت  
رسول الله ﷺ يقول : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعونَ وأأتوها  
تمشونَ وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما غابتكم فأتموا » وفى  
رواية : « فإن أحدكم إذا كان يعمدُ الى الصلاة فهو فى صلاة » •

ويشتمل الأسلوب على خصائص الافهام والايضاح والتحديد  
المتفكدة وشخصية المخاطب ونفسيته اذا كان صغيرا أو كبيرا ، فى اطار  
من التجريد الذى يجعله صالحا لجميع من سرى المخاطب من المتلقين ،  
وفى سياق يرتبط فيه القول بالفعل تأكيدا للأسس وترسيخا للمعانى  
فى الأذهان والنفوس •

ومما يوضح ذلك ما روى عن عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما

(٥٩) صحيح مسلم ٢/٢٤٣ •

(٦٠) صحيح مسلم ٢/٢٤٥ •

قال (٦١) : « كنت غلاما فى حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش فى الصحفة ، قال اى رسول الله ﷺ :

« يا غلام سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » •

فالبدء بالنداء تنبيها وجذبا لذهن المخاطب ، والانتقال الى ما تلاه من جمل قصيرة واضحة المعانى فى حسن تقسيم وترتيب على هذا النحو مما يناسب مقام التأديب من جهة ، وموقف تناول الطعام من جهة ثانية ، كما يناسب حال المخاطب وعمره من جهة ثالثة ، أضف الى ذلك ما يتميز به الأسلوب من ميزة التجريد التى تجعل منه قاعدة ومنهجنا صالحين لكل حال مماثل •

كما يشتمل الأسلوب على خصائص العمق وعدم الأخذ بظواهر الأمور صدورا عن خلق صاحبه ﷺ من جهة وارتباطا بنبوته ﷺ من جهة أخرى •

لذا ترد الكثير من الأساليب متجاوزة ظاهر حال المخاطب أو المتحدث عنه الى أمر آخر لا يقتضيه ذلك الظاهر وما يتعلق به من انفعالات ظاهرية •

ومن دلائل هذا النمط من الأساليب ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (٦٢) : تقدم طفيل وأصحابه فقالوا : يا رسول الله : ان دوساً قد كفرت فادع الله عليها ، فقيل : هلكت دوس ، فقال :

« اللهم اهد دوساً وائت بهم » •

ومن هذا القبيل أيضا ما روى عن سهل بن سعد الساعدي رضى

• (٦١) رياض الصالحين ٢/ ١٨٨

• (٦٢) صحيح مسلم ٥/ ٣٨٥



الله عنه أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقبضوا فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة إلا اتبعتها يضربها بسيفه — فقالوا : ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان • فقال رسول الله ﷺ : أما إنه من أهل النار • فقال رجل من القوم : لنا صاحبه أبدا • قال : فخرج معه كلما وقف وقف معه ، وإذا أسرع أسرع معه • فقال ، فجرح الرجل جرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه (٦٣) بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه فنقل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله • قال : ماذا؟ قال : الرجل الذي ذكرت أننا أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك فقلت أنا لكم به • فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فتقتل نفسه • فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : ان الرجل ليعمل عملاً أهل الجنة فيبدو للناس وهو من أهل النار ، وان الرجل ليعمل عمل أهل النار فيبدو للناس وهو من أهل الجنة •

وارتباطا بطبيعة الموقف وحال المخاطب وغير ذلك من الملابسات يرد الأسلوب متنوع المجالات في تعبيره عن الموقف الواحد فقد تكون طبيعة الموقف من الهول والأهمية والتميز بحيث يكون الحديث عنها متنوع المجالات متعدد الطرق •

وحينئذ نجد ورود الأسلوب المخبر عن مثل ذلك متعدد متنوعا من حديث إلى غيره ومن هذا القبيل ما يتعلق بالساعة من أمور وقضايا وعلامات وغير ذلك •

(٦٣) ذباب السيف : طرفه الأسفل • أما طرفه الأعلى : فمقبضه •

فقد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قوله (٦٤) : « بينما النبي ﷺ فى مجلس يُحدِّثُ القوم جاءه أعرابى فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدث • فقال بعض القوم : سمع ما قال فكفره ما قال، وقال بعضهم : بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال : أين 'أراه' السائل عن الساعة؟ قال : ها أنا يا رسول الله • قال : « فاذا ضيَّعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف اضاعها؟ قال : « اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » •

وتعبيرا عن نفس افكرة ، فكرة قيام الساعة ، نجد الأسلوب فى اطار آخر ، فاذا كان فى الحديث السابق متعلقا بعلامة من علاماتها ، فاننا نجده فى حديث آخر متعلقا بالاعداد لها •

ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال (٦٥) : « جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : متى قيام الساعة؟ فقام النبي ﷺ الى الصلاة ، فلما قضى صلاته قال : « أين السائل عن قيام الساعة؟ فقال الرجل : أنا يا رسول الله • فقال : ما أعددت لها؟ قال : يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا صوم الا أنى أحب الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : المرء مع من أحب ، وأنت مع من أحببت ، فما رأيت فريحَ المسلمون بعد الاسلام فرحهم بها » •

فبالرغم من أن السؤال واحد فى الصائين الا أن الاجابة عنه تنوعت بتنوع مجالات ذلك السؤال وما يرتبط بذلك من دواعى الموقفين والغاية المرتبطة بكليهما •

وإذا كان الأسلوب فى الحديث الأول قد اشتمل على اجابة مباشرة

• (٦٤) صحيح البخارى ١/١٤٢

• (٦٥) الترمذى ٤/٢٢

عن ذلك السؤال فذكر ما يتعلق بقرب قيام الساعة أو وقتها ، فان أسلوب الحديث الثانى قد اشتمل على ذلك النمط البلاغى المعروف بأسلوب الحكيم ، وهو أسلوب رفيع الشأن يلفت نظر السائل عمالا يخصه أو يرتبط بمجالات نفسه الى ما يخصه وينفعه متجاوزا بذلك الاجابة عما سأل الى اجابة عن سؤال آخر كان ينبغى أن يحل محل هذا السؤال ، اذا ورد ذلك السؤال : ما أعددت لها ؟ تنبيهها الى ما يجب أن يلتفت السائل اليه من مجالات الفكر فى هذا الشأن ، فلما أجاب الرجل ، ورد التقرير المتعلق بهذه الاجابة مجردا الفكرة ومؤكدا القاعدة وواضعا الأساس الذى ينطلق منه القول والعمل •

وقد يرتبط الأسلوب بغير ذلك من الخصائص ارتباطا بالموقف والحال الملبسين له فيرد واضعا صورة واقعية يستشعرها الحس بما تحمله من صوت وترتبط به من هيئة وتتعلق به من دلالات لا تنتهى فى الفضل والسمو •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن سؤل ﷺ قال (٦٦): «الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مصلاته الذى صلى فيه ما لم يحدث ، نقول : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه » •

أما حين لا يتطلب الموقف كلاما حيث لا يوجد مجال للتعليق فان أساليب التعبير يكون مكثفيا بالفعل فقط •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : «صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة ، فقمتم عن يساره ، فأخذ رسول الله ﷺ برأسى من ورائى فجعلنى عن يمينه » •

وهكذا يتنوع أسلوب الحديث النبوي الشريف بتنوع المواقف والأحوال ويتنوع الشخصيات والظروف المتعلقة بكل منها ، ويتنوع الأغراض التي يرمى هذا الأسلوب الى تحقيقها •

وبهذا التنوع وبتلك الملاءمة بينه وبين كل حال ، وصدورا عن ذلك البيان النبوي المرتبط بذات الرسول ﷺ وخالقه وفكره تعددت خصائص هذا الأسلوب فاكسب الكثير من مظاهر القوة التعبيرية •

وبذلك يمكن القول بأنه أسلوب متميز بوضع نماذج رفيعة من المناهج وأنماط التعبير المتضمنة العديد من الأصول والقواعد التعبيرية الهامة التي يضع الأسلوب من خلالها كليات وطرق التعبير عن المواقف الفكرية والنفسية الدقيقة الملائمة للأفعال الحسية الظاهرة ، أو بقران العمل بغيره اظهارا لقيمته ، أو يضع مثالا للصفة أو الخلق يقاس عليه ما سواه مما مائله أو نقص عنه أو زاد عليه ، كما يضع نماذج من الشخصيات التي يمكن احتذائها لتصير أمثلة جامعة للكثير من خصال الفضل ، أو يقرن التصرف العملي بالتقربور النظري الذي يوضحه متوصلا في ذلك الى بيان جزائه ومحددا حكمه •

وهو في جميع ذلك أسلوب متجه الى البسط والتفصيل أو التكرار والتأكيد ، أو التركيز والايجاز أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الموقف وملابساته التي تتعلق به •

وفي اطار ذلك كله نجد العناصر المساعدة على الايضاح والافهام والتحديد ، وتقريب الغريب من الافكار ، والبعيد من القضايا ، بارزة ومتعددة سواء ما يتصل بالعدد أو المقدار أو الوزن أو الكيل أو النسبة ، أو ما يتعلق بالانفعالات وآثار التعبير في أنفس المخاطبين ومشاعرهم وأحوالهم المتفاوتة وقضاياهم أو غير ذلك مما سبق ايضاحه •

## الفصل الرابع

من الخصائص الصوتية والدلالية لألفاظ الحديث الشريف

اللفظ خصائصه المتميزة التي تجعل منه وحدة صوتية دلالة تؤدي الكثير من الوظائف وتحقق الكثير من الغايات .

ذلك أن لفظ في ذاته من جهة ، وداخل التراكيب التي يرد بها من جهة أخرى العديد من المجالات التعبيرية والتأثيرية التي ترتبط بالقدرة على استخدام طاقاته الصوتية والدلالية فيما يرتبط به من مجالات الاستعمال وأنماطه .

ولقد كان تعدد هذه المجالات وتنوعها وسعتها هو الداعي الى كثرة البحث والدرس في هذا المجال الذي شغل النعويين والبلاغيين وانقاد قديما وحديثا .

وكان من أكثر القضايا اتساعا لاستيعاب العديد من هذه الجهود قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى وما تنطوي عليه من ترابط وتلازم وما تتعلق به من قضايا واتجاهات .

وكان منها أيضا العلاقة بين أجراس الحروف وأصوات الأفعال وما لوحظ في ذلك من قوة الصلة بينهما مما دعا الى القول بأن الصوت الأقوى قد 'جعل' للفعل الأقوى ، وأن الصوت الأضعف قد جعل للفعل الأضعف وهكذا (١) .

(١) انظر في ذلك - على سبيل المثال - ابن جني : الخصائص ١٥٢/٢

وكان منها أيضا العلاقة بين زيادة اللفظ ونقصه وبين المعانى التى يدل عليها فى كل حال من زيادة كذلك ونقص (٢) •

وكان منها - فضلا عن ذلك - أهمية الكلمة داخل سياقتها أو أهمية تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض وما يتصل بذلك من آثار وغايات (٣) •

وكان منها عنايتهم بدراسة الفصاحة وكونها من متعلقات الألفاظ ، وأن فصاحة اللفظ انما تكون باعتبار ما دل عليه من حسن المعنى ورشاقته وما يتصل بذلك من أمور (٤) ، كالمفاضلة بين الألفاظ وإيثار بعضها على بعض نظرا لما يتميز به ذلك البعض من الفصاحة والعذوبة (٥) •

وكان من ثمار تلك الجهود ما فطن إليه من ضرورة العناية بدراسة جرس الألفاظ والدعوة الى اتخاذها أساسا من أسس البحث البلاغى (٦) •

وكان من ثمارها أيضا الكثير من الملاحظات والنتائج التى 'توصل' إليها من خلال تأمل وجوه الاعجاز القرآنى وما يخص جانب الألفاظ فى هذا المجال فضلا عما يتعلق به من الجوانب الأخرى المتصلة بالتراكيب وغيرها •

---

(٢) انظر فى ذلك - على سبيل المثال - ابن الأثير : المثل السائر

٢٥٠/٢ وما بعدها •

(٣) انظر فى هذا المجال : عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز

(٤) انظر : العلوى الطراز ١/١٣٠ •

(٥) السابق : ١٣١ •

(٦) انظر : أمين الخولى : فن القول ٢١٧ •

ومما ورد في هذا المجال قول ابن الأثير : « ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم — من حيث انفرادها — قد استعملتها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك فإنه يفوق كلامهم ويعلو عليه ؟ وليس ذلك الا لفضية التركيب » (٧) .

ونظرا لتعدد هذه المجالات واتساعها فقد صار من الضروري للباحث أن يتجاوز النظرة السطحية السريعة في مجال هذه الدراسة الى شيء من التأمل والعمق محاولا من خلالها ان يتوصل الى الغايات بتأمل الوسائل والأسباب والتعرف على حقيقة العلاقة بين اللفظ ومعناه وأثره وقيمه ودلالته العامة في سياقه والخاصة في ذاته ، وما بين ذلك كله من علاقات بالقضايا التي يعالجها التعبير مؤكدا أو موضحا ، ناهيا أو آمرا ، مرغبا أو مرهبا ، أو غير ذلك . وما يتعلق به أيضا من مجالات شعورية تستمد من صوت الكلمة أو جرسها وترديدها أو ترديد بعض أحرفها أو غير ذلك من أنماط التأثير والايحاء ومجالتهما .

ومن الضروري أيضا النظر الى ما ينطلق منه جميع ذلك ويصدر عنه مما يشكل الأسلوب بطابعه الخاص ويجعله متميزا عن غيره .

ونظرا لطبيعة أسلوب الحديث الشريف وتعلقه بشخصية النبي ﷺ وقدرته ابيانية المعروفة على استخدام اللفظة بطريقة مميزة لها دلالتها وتعلقها بما تعبر عنه وتؤثر فيه وتعالجه ، فقد وردت ألفاظ هذا الأسلوب متسمة بالكثير من السمات التي يستطيع الدارس استنتاجها من خلال تأمل أنماط التعبير التي وردت بها ومجالات الاستعمال ودواعيه .

فاللفظ في بلاغة النبي ﷺ — من هذه الجهة — يمثل وحدة صوتية دلالية لها ايقاعها أو جرسها الذاتي من جهة ، والعام الذي يتسق

مع ما حوله من أيقاعات أو وحدات صوتية متعددة من جهة أخرى مؤدياً أغراضه في كل حال بالقدر الذي يتطلبه الموقف والمجال وأسلوب التعبير .

ومن أكثر الظواهر اللغوية في هذا المجال لفتاً للانتباه لكثرتها وظهورها وشمولها للكثير من الظواهر اللغوية والبلاغية وتحقيقها للكثير من الغايات ظاهرة التكرار .

فكثير من الأنماط اللغوية المعروفة التي يتناولها اللغويون والبلاغيون بالدرس والبحث كالجناس والترصيع والاشتقاق والسجع وما إلى ذلك تتصل بهذه الظاهرة التي تحقق الكثير من الغايات الأسلوبية أداءً وتأثيراً وتأكيذاً وإيضاحاً .

ويتأمل التكرار كظاهرة لغوية تعبيرية يمكن القول بأنها ذات شقين اثنين :

أما أحدهما فهو ما يتصل بالجانب الصوتي اللغوي وهو كونها ترديداً صوتياً لما تلقاه السامع من الحروف أو الكلمات أو العبارات مما يكون له أثره في الأذن من جرس وإيقاع ، وأثره في النفس ترغيباً أو ترهيباً أو خلافاً ، وأما الآخر فهو ما يتصل بالجانب المعنوي وهو كونها ترديداً معنوياً لما تلقاه الفكر من مضمون الكلام الذي ألقى إليه من قبل مما يكون له أثره في اثباته بالذاكرة وترسيخه في العقل والتأثير به في النفس . أضف إلى ذلك ما ينشأ عن تلاقي هذين الجانبين اللذين يخدم كل منهما الآخر بالقدر المنشود من وراء التعبير .

ومن أظهر جوانب هذه الظاهرة في الحديث النبوي الشريف ورود بعض الأحاديث مشتملة على كلمة أو أكثر تظل تتكرر مرادة المعنى الذي يمثل محورا مركزيا يدور اللفظ حوله مبرزاً دلالاته وأهميته من



خلال ترديد اللفظ الدال عليه دون أن يتجاوزه الى غيره من الألفاظ ،  
فيرد الحديث مستقلا بلفظة أو جملة قصيرة موجزة مرددة فى ايجازها  
بالقدر الذى يبرز الغاية منها •

ومن ذلك ما ورد فى مجال النهى عن « الغضب » فيما روى عن أبى  
هريرة (٨) رضى الله عنه أن رجلا قال للنبي ﷺ : « أوصنى قال :  
لا تغضب • فردّد مرارا • قال : لا تغضب » •

ومن ذلك — أيضا — ورود بعض الأحاديث مشتملة على مثل هذا  
التكرار فى مقدمة الحديث غير أنه يكون متبوعا بما يوضح مغزاه  
لبيان هوله أو شأنه أو أهميته أو غير ذلك •

ومنه ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (٩) : قال رسول  
الله ﷺ « رَغِمَ أَنْفُهُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ، قيل : من  
يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم  
لم يدخل الجنة » •

ومنه ما يرد اجابة مكررة عن سؤال مكرر كذلك لبيان فضله وابرار  
شأنه أو غير ذلك •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (١٠) : جاء رجل  
الى رسول الله ﷺ فقال : « من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال :  
أمك • قال ثم من ؟ قال : ثم أمك • قال : ثم من ؟ قال : ثم أمك  
قال : ثم من ؟ قال ثم أبوك » •

• (٨) رياض الصالحين ٨١/٢ •

• (٩) صحيح مسلم ٤١٧/٥ •

• (١٠) صحيح مسلم ٤١٠/٥ •

ويعبر التكرار في الحديث النبوي الشريف عن المواقف والنقضايا التي يتضمنها الأسلوب ويدرو حوارا تعبيريا دقيقا بما يحمله من الأيحاء ويؤديه من الأثر .

فكثيراً ما ترد بعض الألفاظ مكررة للتعبير عما ترتبط به من مواقف الهول والشدة ، أو الاسترحام والرجاء ، أو الوعيد والردع ، أو التبشير والترغيب ، أو ما إلى ذلك من المجالات الإيحائية التي تحملها الألفاظ المكررة ، فيكون تكرارها بمثابة المؤثر النفسى ، والمبرز المعنوى لدلالاتها ، وهو فى الوقت نفسه بمثابة التردد اللفظى الذى يثبتها فى الذاكرة تثبيتها ملازماً لما يرتبط بها من آثار نفسية ودلالية .

وهنا نجد للتكرار العديد من المظاهر الأسلوبية ، وقد يتضح مظهر واحد منها فى الحديث الواحد وقد تجتمع مجموعة من هذه المظاهر فى بعض الأحاديث لايضاح دلالات معينة .

ومن مظاهر التكرار أيضا وخصائصه فى أسلوب الحديث النبوي الشريف ورود الحديث مشتملا على مجموعة من الأقسام المتقاربة فى الطول والتي يستهل كل منها بجملة واحدة مرسدة فى الحديث كله ، على نحو واحد محققة بذلك غاية الأسلوب ودلالته ، ومؤكدة آثاره فى النفس .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (١١) : قال رسول الله ﷺ : « عوذوا بالله من عذاب الله ، وعوذوا بالله من عذاب القبر ، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، عوذوا بالله من فتنة المحيا والمات » .

تُتكرر جملة : « عوذوا بالله من » فى صدر كل جملة هذا قد حقق الكثير من الغايات ، منها : الايحاء بهول هذه الأمور المستعاذ منها وخطورتها ، ومنها : الدلالة على أن كلا منها يمثل خطرا مستقلا عن غيره ، ومنها : تأكيد الشعور بالخوف تنفيرا وترهيبا من شدتها وهولها .

ولقد ساعد على ابراز هذه الغايات وتحقيقها ذلك التحديد اللفظى والمعنوى الذى ترددت عبره صفة المستعاذ منه فى كل حال عن طريق اضافته الى ما يدل على نوعه ، مما هو واضح فى كلمة : «عذاب» فى : « عذاب الله » ثم : « عذاب القبر » ، وكذلك كلمة « فتنه » فى : « فتنه المسيح الدجال » ثم « فتنه الحيا والممات » .

ومما اجتمع فيه مجموعة متنوعة من هذه الخصائص وغيرها مما له الكثير من الآثار الأسلوبية والبلاغية ما روى عن عائشة رضى الله عنها (١٢) أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهؤلاء ادعوات : « اللهم انى أعوذ بك من فتنه النار ، وعذاب النار ، وفتنة القبر ، وعذاب القبر ، ومن شر فتنة الغنى ، ومن شر فتنة الفقر ، وأعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد ، ونق قلبى من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم فانى أعوذ بك من الكسل والهَرَمَ والمآثمَ والمغرَمَ » .

فقد اتخذ التكرار هنا مجموعة من المظاهر التى لاهمت موقف الدعاء المتضمن جانبيين : الاستعاذة والرجاء .

ولما كان الاستهلال بـ « اللهم » هو المناسب لمقام الدعاء في أكثر الأحوال ، ولما كان الدعاء هنا جامعا للكثير من القضايا والوجوه ، فقد لاءم ذلك أن تتكرر كلمة « اللهم » وتصير بمثابة المحور المركزي الذي تنطوق منه الدلالات الشعورية المرتبطة بحال الداعي من : انحرص ، والخوف ، والرجاء ، والتضرع وما الى ذلك •

ولما كان موقف الاستعاذة لا يكون الا من شئ خطير مهول ، فقد ناسب ذلك ودل عليه تكرار اسم المستعاذ منه مسبقا بـ « أعوذ بك » ومرتبطا بما يوضح دلالته من الألفاظ دون الاكتفاء بالإشارة اليه أو إعادة ضمير عليه ، وذلك في : « فتنة النار ، وعذاب النار » وكذلك في : « فتنة القبر ، وعذاب القبر » وكذلك هذا التكرار الذي يؤدي وظيفته دلاليه لها ايحاءها أيضا بدرجة خطورة الفتن المستعاذ منها ، وهول هذه الخطورة في : « ومن شر فتنة الغنى ، ومن شر فتنة الفقر » وهذا ما يتضمن — في نفس الوقت — تكرار الكلمة «فتنة» التي تكررت من قبل لتصير بمثابة المحور الثاني الذي يدور حوله جزء من أجزاء هذا الحديث الشريف ودلالاته •

ثم تعود الألفاظ الدالة على تأكيد وابرار هذه الدلالات في الظهور، حيث لا يكتفى هنا بالعطف على ما سبق — مع كونه تابعا له — بل يستهل بنص ألفاظ الاستعاذة في جملة : « وأعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال » ليحمل ذلك من الإيحاء ما يبرزه ويميز درجة هوله وشوره •

وهنا أيضا ظهور تكرار كلمة « فتنة » وكلمة « شر » وحرف الجر « من » ليشكل ذلك مجموعة من الروابط الصوتية التي تظل بترديدها مبرزة العديد من الدلالات مؤكدة الكثير من المشاعر وما يرتبط بها من الانفعالات •

وداخل هذه العلاقات الوثيقة بين الألفاظ والدلالات نجد الاستعانة والخوف مرتبطين بالرجاء والحرص ، حيث ينتقل الدعاء — مستهلا أيضا بـ « اللهم » — الى مجال تتكرر من خلاله ألفاظ : « خطاياي — الخطايا ، نق — نقيت ، باعد — باعدت » التي يجمع بين حروفها المكررة الاشتقاق من الأصول اللغوية التي ترجع اليها ، وكذلك تتكرر الألفاظ « من — كما — بين » لتمثل مجموعة من الوسائل التي تلتقى لديها جزئيات المعنى ، ثم يعود المحور العام الذي تدور حوله كل هذه الدلالات الى الظهور مرة أخرى فنجد قوله ﷺ : « اللهم فاني أعوذ بك » ثم نجد المستعاذ منه التابع لهذه الألفاظ كلمات جامعة يربط بينها العطف ، بالواو ، ويضم كل لفظتين منها وزن واحد في اطار مزاجية لفظية صوتية دالة ، وذلك في : « الكسل ، والمهرم » ثم : « المأثم ، والمغرم » .

هذا الى جانب ما تميزت به الألفاظ هنا من صفات التركيز الجامع للمعاني في احاطة بكل وجوه المعنى المتعلق بك جزئية من الجزئيات ، وتوجيه بعض الألفاظ في سبيل ذلك الى مجال التضاد كاستعانة من شر فتنة الغنى ومن شر فتنة الفقر ، وتوجيه بعضها أيضا الى أسلوب التشبيه المتتالي في تعدد لفظي واتحاد معنوي يؤكد بعضه بعضا مبرزاً دلالة واحدة كما هو الحال في « ونق قابي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بيني المشرق والمغرب » وهما مسبوقان بهذه الاستعارة التي مدت لهما وأبرزت شيئاً من دلالتيهما « اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد » .

وهكذا تعددت مظاهر التكرار وخصائصه في اطار حديث واحد وظهر كوسيلة لغوية أدت بجرسها وترديدها الصوتي العديد من الدلالات التي اجتمعت كلها لدى دلالة واحدة مرتكرة على بث الفكرة في الذهن واثباتها في العقل ، وانتقاء ألفاظ يقبل عليها السامع لما يجد فيها من تجاوب شعوري انفعالي مع خواطره ، ويستطيع اذا ما استرجعها أن

يعيدها لما اشتملت عليه من خصائص السهولة وحسن التقسيم والتنسيق والتوازن الصوتي .

ويتخذ التكرار مظهرا آخر من المظاهر الصوتية الدالة في الحديث الشريف ، حيث يرد الحديث مقسما الى مجموعة من الأقسام أيضا ولكن كلا منها مستهل ومختتم بما يعد مركزا صوتيا مرددا في الحديث ، اما بتكرار نفس الألفاظ ، أو بتكرار الإيقاع الصوتي المتمشى مع حركة النفس الانفعالية ، ثم تختتم جميع الأجزاء بجزء مشتمل على أنماط أخرى من التكرار تحدث بتنوعها واختلافها عما سبقها ضربا من النشاط النفسى الذى يتجدد عبره الشعور وينتبه الذهن من خلاله الى معنى آخر يشكل جوهرها جامعا لدلالات الأجزاء السابقة كلها .

ومن هذا القبيل ما روى عن أبى موسى الأشعري عن أبيه عن النبى ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء (١٣) :

« اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جدى وهزلى وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما تقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير » .

فقد اتخذ التكرار هنا هذه المظاهر التى جعلت منه اطارا معنويا صوتيا هادئا متمشيا مع حركة الانفعال النفسى السائدة فى كل جزئية من هذه الجزئيات التى تمسّم اليها الأسلوب .

واتخذ هذا التكرار اطارا واحدا عاما استهل فيه كل جزء من الأجزاء الثلاثة الأولى بنفس الكلمات التى استهل بها غيره وهى : « اللهم

اغفر لى « ثم اختتم كل منها بهذه الكلمات التى شكلت انتهاء شعوريا تتوقف لديه معانى كل جزء ليستأنف الانفعال نشاطه والعقل فكره من جديد فيما يليه من الأجزاء ، وفى الأول : « وما أنت أعلم به منى » ، وفى الثانى : « وكل ذلك عندى » ، وفى الثالث : « وما أنت أعلم به منى » أيضا ، ثم يرد القسم الأخير متضمنا اقرار النفس ، وتأكيد دلالتى الموقف الشعوريتين : « التضرع والخشوع » وذلك فى : « أنت المقدم : وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير » وفى هذا الجزء تكرر لفظ : « أنت » الذى سبق ترديده من قبل بما يحمله من ايجاءات غير متناهية ، تتعلق بها جميع الدلالات السابقة لها ، وتنتهى لديها الى ترسيخ واثبات هذا اللفظ فى أرجاء النفس ليصير بمثابة التسبيح الدائم والتقديس المتجاوب مع فطرة النفس وانفعالاتها المعبرة عن هذه الفطرة .

هذا الى جانب ذلك التقسيم الداخلى الذى ساد العبارات التى قسم اليها الأساروب ، فاننتظم من خلاله كل لفظ مع الذى يليه وناسبه فى معناه من جهة ، ثم انتظم هذا كله مع ما جاوره من العبارة التالية له من جهة أخرى بحيث صارت العبارات متناسبة الطول ، متوازية الجرس داخليا وخارجيا ، افظيا ومعنويا .

ومن ذلك التناسب فى القسم الأول : « خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى » ، وفى الثانى : « جدى وهزلى وخطئى وعمدى » ، وفى الثالث : « ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت » وفى القسم الأخير : « أنت المقدم وأنت المؤخر » ، ثم الانتهاء بـ « وأنت على كل شىء قدير » . وقد أكد هذا التناسب وأبرزه ما بين الألفاظ من علاقات التقارب المعنوى أو المترادف تارة ، مثل : «خطيئتى وجهلى واسرافى»، والتضاد تارة أخرى ، مثل : « جدى - هزلى ، خطئى - عمدى » .

هذا الى جانب ما اكتسبته العبارات من قوة صوتية ناشئة عن السجع الذى يؤثر بقوته فى جانب الانفعال النفسى ، والاتساق الذهنى ورغبته فى المتابعة المنتظمة ، واشباع حاجة الذاكرة من انتظام العبارات المتماثلة فيها ترسيخاً وترديداً وحفظاً •

وفى اطار مظهر آخر من حسن التقسيم القائم على تناسب العبارات والكلمات طولاً وجرساً ووزناً من جهة ، وتكرار الألفاظ التى تمثل محاور ثابتة تدور حولها المعانى من جهة ثانية يرد الأسلوب مكتسباً الكثير من خصائص القوة والتأثير •

ومن ذلك ما يرد فى مجال الايضاح والتفصيل بعد الجمع والاجمال ، فيرد الكلام المفصل مقسماً ، مشتقلاً على ما يفسر ويوضح سابقه • ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال (١٤):

قال رسول الله ﷺ : « أربع من 'كن' فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه 'خلة' منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » •

فالى جانب هذا التقسيم الحسن الذى تلتقى جزئياته معنويًا لدى دلالة واحدة يجمعها مغزى الحديث نجد ذلك التوازن الصوتى الناشئ تارة عن التكرار كما فى : « كانت فيه خلة منهن » الواردة مرتين متجاورتين و « اذا » الواردة أربع مرات ، والاشتقاق كما فى : « كن — كان » ، « منافق — نفاق » ، ووحدة الوزن كما فى : « كذب — غدر — فجر — عاهد — خاصم » هذا الى جانب ذلك التسلق الداخلى للجمل التى يربط بين جانبي كل منها الشرط « اذا » وتشكل كل لفظة من ألفاظها شرطاً أو جزءاً للآخرى ، أضف الى ذلك ما بين لفظة كل جملة



منها من التناسب المعنوي المرتبط بمعنى النفاق الذي يدور حوله الأسلوب، فالتحدث يناسبه الصدق أو الكذب، والعهد يناسب نقضه، العذر، وانوعد يلائم تركه الاخلاف والمخاصمة يلائم المبالغة فيها الفجور .

وفضلا عن ذلك فان التكرار في ألفاظ الحديث الشريف يحقق العديد من الغايات بما يتسم به من الخصائص المتنوعة بتنوع ما تقتضيه من المواقف والأحوال .

من ذلك التعبير عن موقف اتساق الكون كله في اطار واحد استجابة لخالقه سبحانه وتعالى في تسبيح وتهليل وتوحيد دائم ، يعبر عنه تكرار لفعل واحد دال على ذلك في ايجاز وتلقائية متنسقة مع الفطرة .

من ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (١٥) : كان رسول الله ﷺ اذا أمسينا قال : « أمسينا وأمسى الملك الله ، والحمد لله ، لا اله الا الله وحده لا شريك له » .

كما يحقق التكرار في أسلوب الحديث الشريف غاية اشباع العاطفة الدينية بارتضاء المشاعر وتهذئة النفوس حين تشكل الألفاظ المكررة أجزاء من اجابة عن سؤال وردت به نفس الألفاظ .

ومن ذلك ما روى عن الأعمش بن أبي وائل عن عبد الله قال (١٦) : « جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كيف ترى في رجل أحب قوما ولما يلحق بهم ؟ قال رسول الله ﷺ :

• (١٥) صحيح مسلم ٥/٥٧٠ .

• (١٦) صحيح مسلم ٥/٤٩٤ .

## « المرءُ معَ من أحبَّ »

كما يحقق التكرار فى الأسلوب النبوى غاية تأكيد وترسيخ دلالة جانبى الأمر والنهى ارتكازا على ترديد بعض الألفاظ التى توضح دلالتيهما مثل كلمات: الأخوة - الإسلام - التقوى ، الى جانب ما يرد فيه ذلك كله من أنماط أسلوبية يسودها التوازن الصوتى والانفعالى، والتقابل وحسن التقسيم ، وتنميط النهى بما يبرز دلالته ، واتباعه بالتقرير الذى يؤكده ، وتركيز الدلالات فى اطار جمل موجزة تتخلل العبارات لتوضح دلالاتها •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (١٧) : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير الى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه » •

ويجتمع التكرار وحسن التقسيم والاحتراس أو التكميل مع الالتفات فى اطار واحد ممثلا قيمة بلاغية تتحقق من خلالها غايات التعبير فى قوة تركيز وايضاح للمعانى على مثل هذا النحو الذى يرد فيما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (١٨) : « انتدب الله لمن خرج فى سبيله - لا يخرجه الا ايمان بى وتصديق برسلى - ان أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة • ولولا

• (١٧) صحيح مسلم ٤٢٨/٥

• (١٨) صحيح البخارى ٩٢/١

« إِنَّ أَسْقَى عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ، وَأَبْوَدِ دَتٌ »  
 « أَنَى أَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أَقْتَلُ ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أَقْتَلُ » •

وحيث تجتمع المقابلة والتكرار مع دقة التعبير والقدرة على الالمام  
 بجميع أطراف المعنى يكون الأسلوب بالغاً مدى بعيداً من قوة البيان  
 وتركيز الدلالة حول نقطة واحدة تلتقى لديها جميع الجزئيات •

ومن ذلك ما روى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال (١٩) : قلت:  
 يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاءً ؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل  
 فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلماً  
 أشد بلاءه ، وإن كان فى دينه رقّةٌ أبْتُلَى على قدر دينه ، فما  
 يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئته » •

ويتميز الأسلوب بالكثير من الخصائص الصوتية والدلالية من  
 خلال ما تؤديه ألفاظه من وظائف متعددة داخل سياقها حين تظهر الألفاظ  
 المكررة فى إطار مجموعات متلاحمة من الروابط التى تمثل بدورها  
 مجموعة من الأدوات والوسائل اللغوية الدالة المنطلقة مما يخصها من  
 المعانى الجزئية المحدودة الى إطار عام متعدد الوظائف والغايات •

ومن ذلك ورود أدوات الشرط التى تتميز بقوة ربطها بين جانبى  
 المعنى ، شرطه وجزائه ، وما يحيط بذلك من متعلقات •

ومن المجالات التى ورد فيها أسلوب الشرط فى الحديث الشريف  
 محققا الكثير من الغايات مجال التهيب والزجر •

فاذا كان هذا المجال يتطلب الكثير من البراعة فى الاقتناع ويستدعى  
 من المتكلم الاطالة والقدرة على تقليب المعانى وسوق الأدلة ، فإن

الأسلوب يبلغ حد القوة والتماسك إذا ما حقق غرضه بعيدا عن هذه السمات ، فأصاب دون اطالة ، وأقنع دون تفصيل ، واستغنى عن الدليله بقوة المنطق فى مخاطبته للعقل •

وهنا نجد أسلوب الحديث الشريف متميزا بالجمع بين الايجاز وقوة تأكيد المعانى بتكرار الألفاظ التى تمثل مركز الفكرة ومحورها الدلالى •

ومن مظاهر ذلك الجمع بين الشرط والجزاء فى اطار أسلوب موجز يمثل فيه الشرط فعلا من الأفعال المنهى عنها ، ويمثل فيه الجواب جزءا ذلك الفعل فى اطار تأكيد قاعدة تماثل العمل وجزائه •

ومن ذلك القبيل ما روى عن جرير بن عبدالله رضى الله عنه قال (٢٠):

« مَنْ يُحْرَمَ الرَّفْقَ يُحْرَمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ » •

فهذا التكرار للفعل « يحرم » الذى شكل تارة فعل الشرط والصفة التى ينهى عنها الحديث ، وتارة أخرى جواب الشرط والصفة التى تمثل جزءا ذلك الفعل قد حقق الكثير من الغايات الدلالية والشعورية وأكدها •

وقد أدى استخدام أسلوب الشرط فى اطار هذا الايجاز الى تقسيم الأسلوب الى قسمين متوازنين صوتيا ، ومتجاورين لفظيا تجاورا يوحى بالتلازم التام بينهما ، ومجموعين دلاليا فى اطار واحد ، فالحروم واحد فى الحالين ، والصفتان اللتان حرم منهما وهما : « الرفق والخير » يضمهما اطار واحد كذلك، فالرفق صفة 'خُلُقِيَّة' نفسية جامعة لكل وجوه الخير ، وناسبها أتم المناسبة ذكر الخير كله على هذا النحو •

ومن ورود أدوات الشرط مكررة مقترنة بغيرها من الألفاظ المكررة والأساليب الدالة بوضعها فى إطار تعبير هادف مؤثر ما يجىء فى مجال الترغيب والحث .

ومنه ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٢١) : « لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا إليه ، ولو يعلمون ما فى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا » (٢٢) .

ومن أوضح خصائص الألفاظ هنا هذا التناسق التام الذى قُسم من خلاله الحديث الى ثلاثة أقسام تتضمن كل منها قضية تتصل بالأخرين فى ترابط عام وتسلسل طبيعى .

ولقد زاد ذلك التناسق تميزا ما اشتمل عليه هذا الأسلوب من ألفاظ موضوعة هى الأخرى مواضعها الدالة فى ذاتها والمنظمة داخل سياقها مع غيرها من الدلالات المحيطة بها .

ومن ذلك استهلاك كل قسم من أقسام الحديث بأداة الشرط «لو» متبوعة بالفعل المضارع « يعلم » ثم التصريح بفاعله « الناس » مع الفعل الأول والاكتفاء بارجاع الضمير اليه مع ما بعده ، ثم ورود المفعول به للفعل يعلم اسما موصولا متبوعا بما يدل على سمو الشأن وعلو القدر دون تقييد للمعنى بذكر وجه معين من وجوه الفضل اكتفاء بما تحمله هذه الألفاظ المذكورة من الدلالة ، وما تشير اليه وتوحى به من المنزلة كما هو الحال فى « ما فى النداء والصف الأول » ثم : « ما

(٢١) صحيح مسلم ٧٩/٢ .

(٢٢) النداء : الأذان • الاستهم : الاقتراع • التهجير : التبكير الى

الصلاة أى صلاة كانت .

فى التهجير» ثم : « ما فى العتمة والصبح » ، ثم اتباع ذلك بما يزيد قدره بيانا ، ويخفر الشعور الى الحرص عليه لعظيم شأنه كما هو الحال فى : « ثم لم يحبوا الا أن يستهوا عليه لاستهوا » ، وفيما يتضمنه « ولو يعلمون ما فى التهجير لاستبقوا اليه » من ايجاز يفهم من سابقه وتقديره : « ثم لم يجدوا الا أن يستبقوا اليه لاستبقوا .. » وكذلك الحال فى العبارة الثالثة •

أضف الى ذلك ما يتضمنه الأسلوب من تناسق صوتى ظاهر الدلالة والأثر ، متعدد الإتماط ، بعضه ناشئ عن التكرار كما هو الحال فى تكرار « لو » ثم الفعل « يعلم ، ويعلمون » ثم « ما فى » ، وبعضه راجع الى الاشتقاق كما هو الحال فى : « يستهوا واستهوا » ، وبعضه راجع الى وحدة الوزن كما هو الحال فى : « لاستهوا » و « لاستبقوا » ، وبعضه ناشئ عن ذلك الربط بين الجمل والعبارات بأداتى العطف : « ثم » و « الواو » •

وفضلا عن ذلك فقد منح هذا التعبير الكثير من وجوه التميز والتأثير ما اشتمل عليه من قوة تصوير المعانى النفسية المتعلقة بجانبى : قيمة العمل من جهة ، وشدة الحرص عليه وادراك فضله من جهة ثانية بهذا التجسيد الذى تحمله الكلمات المصوّرة للمعانى والمؤثرة بها فى : « ثم لم يجدوا الا أن يستهوا عليه لاستهوا » وكذلك فى « لاستبقوا اليه » وأخيرا فى « لأتوها ولو حبوا » •

فاستخدام ألفاظ : الاستهام والاستباق والحبو استخدام دقيق فى مواضعه لأن كلا منها يمثل حدثا مرتبطا بغاية صادرا عن درجة بعيدة المدى من الحرص والحذر ، متعلق ببذل أقصى الجهد فى السعى وبلوغ المقصد •

وترد « من » رابطة بين أجزاء الأسلوب موضحة مدى تلازم هذه الأجزاء وترتب بعضها على بعض فى تلاحم تام تتردد من خلاله الألفاظ فى علاقات متعددة •

وَمَنْ وَرُودٌ «مَنْ» غير مكررة مع ألفاظ مكررة مقترنة بما يدل على الاستمرار والتجدد ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال (٢٣) : « من غدا الى المسجد أو راح أعد الله له فى الجنة منزلاً » (٢٤) كلما غدا أو راح » •

ومن ورودها مكررة فى اطار الجمع بين مجموعة قضايا يضمها اطار واحد تظل جملة الشرط من خلاله تتكرر فى مستهل مجموعة من الأقسام المتوازية دلالياً وصوتياً ثم تنمها جملة الجواب فى تناسق حسن الجرس والأثر واضح الدلالة ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (٢٥) : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » •

ومن ورودها مكررة مقترنة بقسمين متقابلين كل منهما يمثل وجهاً لقضية منطقية يؤكدها الوجه الآخر ويوضح دلالتها ما روى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » وفضلاً عن تكرار مَنْ وعن هذه المقابلة التى سلف بيانها فقد زاد المعانى تأكيداً وتأثيراً ذلك التكرار المتلقى بداخل السياق العام تارة كما هو الحال فى : « لقاء — الله — لقاءه » وداخل كل قسم تارة أخرى كما هو الحال فى : « أحب » فى جملة الشرط والجواب من جهة ، و « كره » من جهة أخرى وكذلك ما ترتب عليهما من الألفاظ الأخرى المكررة بالوجه الذى اقتضاه المعنى •

• (٢٣) صحيح مسلم ٣١٤/٢

• (٢٤) النزول : ما يهياً للضيف عند قدومه •

• (٢٥) صحيح مسلم ١٢١/١

وتوضح دلالة هذا الحديث الشريف رواية أخرى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ (٢٦) :

« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالت يا نبي الله : أكرهية الموت ، فكنا نكره الموت ؟ فقال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن اذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحبه الله لقاءه ، وان الكافر اذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه » •

ولا يخفى هنا - أيضا - ذلك الدور البارز الذى قام به كل من التكرار والمقابلة والشرط والعطف وتقسيم الأسلوب الى جانبين متكاملين من دور بارز فى تفصيل وايضاح ما خفى من المعانى التى اقتضت الاستفسار ثم البيان على ذلك النحو الدقيق •

وذلك فضلا عما اداه استخدام لفظى الاستدراك « لكن » مع المؤمن و « ان » مع الكافر من بيان دقيق ، وكذلك ما لاءم الأول من ذكر رحمة الله ورضوانه وجنته ، وما ناسب الثانى من ذكر عذاب الله وسخطه من بيان وايحاء مرتبطين بحال كلا الموصوفين وما يتعاق بشعور كل منهما وحاله •

وتحقيقا لوظائف الأسلوب فى الحديث النبوى الشريف وتأكيدا لغاياته تتعدد المظاهر اللغوية التى تتخذ من خلالها الألفاظ الكثير من العلاقات الصوتية والدلالية مبرزه فى كل حال ما تتعلق به من القضايا فى اطار متميز وبتناسق أسلوبى دقيق •

فاذا كانت ظاهرة الربط بالشرط أو غيره من الأدوات اللغوية تحقق التلازم التام بين أجزاء المعنى ، فان ذلك يصير وسيلة أو جزءا فى



حلقة من الوسائل أو الأجزاء التي تتعاون مع غيرها من الوسائل الظاهرة التي تقوم بدور بارز في تأكيد غايات الأسلوب .

من ذلك تأكيد قضية تلازم العمل وجزائه بهذه الشاكلة التي تتحد فيها كلمتان متجاورتان تمثلان هذين الجانبين في إطار يظهر فيه الشرط جزءا من أجزاء الكلام ووسيلة لايضاح ذلك التلازم وبيان دلالاته .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (٢٧):

« من سَمِعَ سَمِعَ اللهُ به ، ومن رَأَى رَأَى اللهُ به » .

فهذا الاتحاد الظاهر صوتيا وداليا بين فعلى الشرط والجزاء ، وهذا التلازم الناشئ عن تجاورهما وتكرارهما ، ثم هذا التوازن الناشئ عن ورود مماثل لهما طولا وتناسقا ونظاما في الجزء الثاني من الحديث لهو من أهم دواعي تأكيد المعنى وتحقيق غايات الأسلوب .

أضف الى ذلك ما يبرزه هذا كله من آثار بعضها يتعلق بالسمع حيث يشبع حاجته للمتابعة نتيجة ما يتلقاه عبر هذا النظام من ألفاظ متناسقة جرسا وصوتا ومعنى ، وبعضها يتعلق بالعقل والادراك حيث توضح قضية مسئولية كل من عمله ، وارتباط العمل بالجزاء وكونهما من جنس واحد ، وبعضها يتعلق بالنفوس وما يتلقاه من آثار ترتبط بالترهيب والوعيد الناشئين عن جميع ذلك من جهة ، وعن اسناد الجزاء في «سمع الله به» و«رأى الله به» الى الله سبحانه وتعالى من جهة ثانية .

ويبلغ الجرس الصوتي مدى رفيعا من الجودة وحسن البيان حين يتحقق عبره الجمع بين لفظتين متضادتين معنى ، متحدتين مادة حيث يجمع بينهما اشتقاق لغوي واحد .

ولا شك أن لذلك أثره الواضح فى لفت الذهن الى تتبع المعنى ومحاولة فهم سر العلاقة اللغوية بين هذين المتشابهين لفظا المتضادين  
• معنى •

ومن هذا القبيل ما روى عن قتادة بن ربيعى أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مرَّ عليه بجَنَازَةٍ فقال (٢٨) 'مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ' منه ، قالوا : يا رسول الله : ما المستريح المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن يستريح من نَصَبِ الدنيا ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب » •

ولقد زاد خصائص الأسلوب هنا تميزا تحققت من خلاله غايته ما اشتمل عليه من حسن تقسيم ووضوح دلالة ، واستخدام ما ناسب اللفظين المسئول عنهما من ألفاظ مباشرة توضح معنييهما المتضادين بتضاد آخر ظاهر الدلالة فى وصف « العبد المؤمن » وما تبعه من ايضاح ، ثم وصف : « العبد الفاجر » وما تبعه من ايضاح كذلك ، وما اشتمل عليه ذلك من تكرار بعض الألفاظ كما هو الحال فى « يستريح » الواردة فى العبارتين ، وتوازن بعضها صوتيا كما هو الحال فى : « العباد والبلاد » ، واتحاد بعضها دلاليا لتحقيق معنى الشمول التام كما هو الحال فى : « العباد والبلاد والشجر والدواب » •

وينحو الأسلوب فى الحديث النبوى الشريف منحى آخر قريبا من ذلك حين تُصَدَّرُ العبارتان المتقابلتان بكلمات مكررة يكون لها من حسن الجرس فى الأذن وقوة الربط فى العقل وغير ذلك من الوظائف الشئ الكثير •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول  
الله ﷺ (٢٩) : « إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا ،  
وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوَافِيَ به يوم القيامة » .

وتجتمع وحدة الجرس الذى تستهل به العبارتان المتقابلتان ، مع  
وحدة الوزن ، وحسن التقسيم ، وقوة الدلالة الصادره عن تسييس  
المعانى وتأكيد بعضها لبعض فى مجالات عديدة محققة الخير من عايات  
الأسلوب وآثاره .

ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال . قال رسول  
الله ﷺ (٣٠) : « من كانت الآخرة هَمَّهُ جعل الله عنه فى قبهِ ،  
وجمع له شَمْلَهُ ، وأتته الدنيا وهى راعمة ، ومن كانت الدنيا هَمَّهُ ،  
جعل الله فقره بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يات من الدنيا  
إلا ما قَدَّرَ له » .

ومن الخصائص البارزة فى هذا المجال التقديم لعبرين المتقابلتين  
المصدرتين بألفاظ مكررة بجملة تجتمع لادبها دلالتاهما .

ومن هذا القبيل ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى  
ﷺ (٣١) : « أسرعوا بالجنائز ، فان تكُ صاحبة فخير تقدمونها ،  
وان تكُ سوي ذلك ، فشر تضعونه عن رقابكم » .

وفضلا عن ذلك فان خصائص الألفاظ صوتيا ودلاليا تنشأ عن  
الكثير من العلاقات اللغوية الأخرى التى تتميز بقوة الأثر فى اجلاء  
المعانى وترسيخها فى الذاكرة والتأثير بها فى النفس .

• (٢٩) الترمذى ٢٧/٤

• (٣٠) الترمذى ٥٧/٤

• (٣١) مختصر صحيح البخارى ٣٦٠/١

ومن هذه العلاقات اتحاد الجرس والوزن فى ألفاظ الحديث بعضها أو كلها سوء أكان ذلك فى الحروف أو الكلمات أو العبارات .

وحيثما يجتمع فى الأسلوب اتساق صوتى ناشئ عن وحدة الجرس والوزن ، واتساق معنوى ناشئ عن قوة العبارة ووضوح مجزاها فى ألفاظ دقيقة الاختيار والمواضع يكون لذلك من الأثر فى إيضاح المعانى والتأثير بها ما يمنح الأسلوب خصائصه المتميزة .

ومن اجتماع وحدة الجرس ووحدة الوزن المؤثرين فى جانبى اللفظ ، حيث الإيقاع والاتساق الصوتيين ، والمعنى ، حيث الوضوح والتأكيد الناشئين عن الترادف والتمهيد بما يلفت العقل الى أهمية المضمون ومغزاه ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال (٣٢) :  
قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ، أو بمن تحرم عليه النار ؟ تحرم على كل هينّ لين سهل » .

فإبرازا لفضل ما ورد من صفات تتعلق بالرحمة وحسن الخلق ، وإبرازا لدرجة ذلك الفضل وأهميته ، ورد الاستهلال بسؤال يجذب الأذهان الى مضمونه الهام الذى يتعلق بالمصير ، واضعا الحد الفاصل بين دلالة الصفات الواردة هنا وبين ما يناقضها ويخالفها ، وزيادة للتأكيد ذلك كنه تكرر الفعل الذى اجتمعت لاديه هذه الدلالة ، وهو « تحرم » وورد فى جملة تمثل هى الأخرى تكرارا من نوع آخر للسؤال السابق ، تنوع بينهما ترتيب الألفاظ ، واتحدت الدلالة فتارة ورد : « بمن يحرم على النار » وتارة : « بمن تحرم عليه النار » ، وبعد أن استقرت دلالة السؤال المكرر وآتت آثارها فى النفس ، فصارت مهياة بمشاعر الحرص والتطلع والرغبة لمعرفة ذلك الموصوف ، بعد ذلك كله ورد ذكر الموصوف

فى جملة نفس ذلك الفعل الوارد مرتين من قبل ليكون وروده فيها هو الحلقة الثالثة من حلقات المعنى المؤثر والمؤكد لدلالة الجمل الثلاث فى هذه الصورة الصوتية الدلالية الدقيقة : « تحزم على كل هين لين سهل »  
وهنا تجتمع اللفظة الأولى المكررة من قبل : « تحريم » مع الكلمات الموزونة على وزن صرفى واحد : « هين لين » ، مع الترادف الذى يؤكد بتتابعه وحروفه المرددة دلالات الألفاظ المتجاورة على هذا النحو : « هين لين سهل » ، مع قوة تركيز الجملة بحيث تصير اذا ما أخذت مستقلة تامة المعنى راسخة الأثر مثبتة دلالة الحديث ، مع حسن اختيار الألفاظ ذات المخارج السهلة التى تحاكي بأصواتها ما تنطوى عليه من المعانى المحببة الى النفوس ، مع حسن الانتهاء بهذه اللفظة التى جمعت كل ما سبقها من دلالات لما يجتمع فيها من المعانى الدينية والصفات الخاقية وهى لفظة : « سهل » •

ومما اشتمل على الاتساق الصوتى للألفاظ ذات الدلالات المتقاربة، ما روى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول (٣٣) : « ان الله يحب العبد التقى الغنى » (٣٤) الخفى » •  
فهذا الاتساق الصوتى الناشئ عن وحدة الوزن فى الألفاظ : « التقى ، الغنى ، الخفى » يؤدى مجموعة من الوظائف التى تتحقق جميعها فى وقت واحد ، منها : أنه ترديد صوتى يتمشى مع ذلك التجاوب الشعورى الذى يؤديه المعنى ، والذى يرتبط بجرس الألفاظ المرددة فى السمع •

• (٣٣) رياض الصالحين ٣٢/٢

• (٣٤) المراد بالغنى هنا : غنى النفس •

ومنها : أنه تأكيد معنوي لما تنطوي عليه معاني هذه الألفاظ من دلالات متقاربة ، كل منها توضح الأخرى وتبينها •

ومنها : تأكيد الحث والترغيب في هذه الصفات •

ومنها : كونه تكرارا عاما متضمنا تكرارا جزئيا لبعض الأصوات السابقة في ألفاظ الحديث كتضعيف الياء - في كل لفظة منها - الذي يتردد مع تضعيف النون التي تشتمل عليها لفظة التأكيد «ان» والباء التي يشتمل عليها اللفظ « يجب » بما ينطوي عايه من دلالات تتصل بالعبادة وجزائها مما تتعلق به معاني هذه الكلمات الثلاث المجاورة له ، والتي تربطها به علاقة السبب بالمسبب •

ومنها : مجاورة هذه الكلمات لكلمة العباد التي تتعلق به تعلقا وصفيا مشكلة ثلاث صفات له •

ومما يحققه الاتساق الصوتي الناشء عن تقارب الأوزان ، تلاقي المعاني ، وربطها بعلتها ، وحسن التخلص في سياق يضم مجموعة متلاهيية من الجزئيات المتصلة بحلقة معنوية واحدة •

ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى الى فراشه قال (٣٥) : «الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، حكم ممن لا كفى له ولا مؤوى » •

ومما تتميز به ألفاظ الحديث الشريف في هذا المجال من الخصائص أيضا قيام الألفاظ بقوة أدائها مدلولاتها ارتكازا على قوة صيغة اللفظة الواحدة في ذاتها من جهة ثم تلاقي هذه الصيغة مع مثيلة لها في لفظة أخرى مرادفة لها أو قريبة من مدارولها من جهة ثانية فينشأ عن هذا التلاقي الصوتي والمعنوي قوة أداء للمعنى ودقة تعبير به •

ومن هذا القبيل ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت (٣٦) :  
 قال رسول الله ﷺ :

« ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم » (٣٧) •

فمن خلال خصائص هذا التعبير - السالفة الذكر - اجتمع جانباً  
 الدلالة ليثيراً الى مغزى واحد ويبرزاه •

فمن جهة اتصلت الألفاظ ( أبغض - والألد - والخصم ) اتصالاً  
 معنويًا ، حيث ارتبطت معانيها داخل اطار واحد يتصل بالبغض أو  
 الكراهية وما يتعلق بهذا الاطار من صفات ودرجات ونتائج •

ومن جهة ثانية أدت صيغة كل لفظة من هذه الألفاظ دلالة واضحة  
 على معناها ، ودرجة قوة هذا المعنى ووضوحه مستقلة في ذاتها ،  
 فصيغة التفضيل في ( أبغض ) دلت على بلوغ البغض أقصى درجاته ،  
 وصيغة التنزيل كذلك في ( الألد ) دلت على تميز هذه الصفة في  
 شخص الموصوف وبلوغه فيها حدا ظاهرا من قوة ووضوح اجتماع صفات  
 الشر والكراهية المطلقة ، ما يرتبط بهما من الملازمة والثبوت ، وما يتعلق  
 بهما أيضا من التمسك والاصرار ، أما صيغة المبالغة في « الخصم »  
 فقد تضمنت بأحرفها الثلاثة قوة تركيز الصفة في صاحبها ، كما دلت  
 على تجاوز البغض والكراهية جانب الخفاء النفسى الشعورى الى  
 جانب المعاملات الخلقى وما يرتبط به من مظاهر ، هذا فضلا عن كونها  
 مرتبطة باللفظين ( أبغض وألدا ) ارتباط السبب بالمسبب •

أضف الى ذلك كله ما اتسم به الأسلوب من التأكيد ، وربط الفعل  
 بجزائه ، فالألد الخصم هو أبغض الرجال الى الله ، مما يحمل دلالة

(٣٦) صحيح مسلم ٥/٥٢٤ •

(٣٧) الالد : شديد الخصومة • الخصم : الحاذق بالخصومة •

الترهيب والزجر ، ويقوى آثار الأسلوب فى النفس ، هذا فضلا عما تميز به الأسلوب من الایجاز ووضوح الدلالة •

وتتخذ الألفاظ فى هذا المجال مظهرا آخر من مظاهر الالتقاء المعنوى من جهة ، والارتكاز على وزن الكمة ودلالاتها من جهة ثانية حيث تتعلق الألفاظ المترابطة معنويا بصلة الترادف من جانب ، واتحاد الوزن من جانب آخر •

ومن هذا القبيل ما روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت (٣٨) : قال لى رسول الله ﷺ :

« أَنْفِقِى أَوْ انْضِحِى أَوْ انْفَحِى ، وَلَا تُحْصِى فَيُحْصِى اللَّهُ عَلَيْكَ (٣٩) ففضلا عما بين الألفاظ الثلاثة الأولى من الترادف ، نجد كل لفظة منها قد حملت بصوتها ووزنها دلالة خاصة فى ذاتها ، وجرسا صتيا عاما تتحد من خلاله مع ما جاورها من هذه الألفاظ ، وفضلا عن ذلك كله نجد اتحادا من نوع آخر مائلا فى اجتماع الألفاظ الثلاثة على صيغة الأمر ، وفضلا كذلك عن اتباع هذا كله بصيغة نهى توضحه وتؤكدده وتبين جزاءه وأثره فى : « وَلَا تُحْصِى فَيُحْصِى اللَّهُ عَلَيْكَ » •

وتستمد خصائص الألفاظ فى هذا المجال أيضا بعض خصائصها الصوتية من ارتكازها على جانب السجع ، وهو من الجوانب التى بلغت فى أسلوب الحديث الشريف حدا رفيعا من التميز وقوة الأداء لما

(٣٨) صحيح مسلم : ٦٨/٣ •

(٣٩) انفجى : بفتح الفاء ، وانضحى بكسر الضاد ، ومعنى انفجى وانضحى : اعطى والنفع والنضح : العطاء ، ويطلق النضح أيضا على الصب • ومعنى الحديث : العث على النفقة فى الطاعة والنهى عن الامساك والبخل ☞



تضمنته من خصائص بلاغية تتصل بقوة تمكن الألفاظ في مواضعها من جهة ، وقوة اتساقها مع غيرها صوتا واثرا من جهة ثانية ، والقدرة على حسن تقسيم الجمل تقسيما داخليا تمثل الفاصلة المسجوعة مع غيرها في اطاره. نهايات داخلية لكل جملة أو فاصلة ، مما يتيح للذهن التوقف لديها ، واستيعابها بمعزل عن غيرها ، ثم تنتقل عليه الفواصل المحتملة فيشبع تطلعه للاستيعاب من جهة بالوقوف لدى هذه النهايات ، كما يشبع رغبته في التطلع الى الاتساق الصوتي الموحّد المتشبي مع الانفعال النفسى ورغبة الذاكرة فى احصاء ما تتلقاه من جهة أخرى .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه (٤٠) أن النبى ﷺ « كان يتعوذ بالله من سوء القضاء ، ومن درك الشقاء ، ومن شماته الأعداء ومن جهد البلاء »

ففضلا عما تقدم ذكره نجد الأمر يتجاوز مجرد التسجع الى هذا التوازن الصوتى العام فى الكلمات المسجوعة مثل : (القضاء - الشقاء - البلاء) منشئا ما يسمى بالترصيع ، ومتجاوزا ذلك أيضا الى اقتران كل لفظة منها بما يناسبها ويحدد المعنى المقصود منها ، وذلك فى اقتران الكلمات : « القضاء بالسوء ، والشقاء بالدرك ، والأعداء بالشماته ، والبلاء بالجهد » .

ومن خصائص الألفاظ فى هذا المجال كذلك اتساق كلمات الحديث كله وزنا ومعنى ، بحيث يرد الأسلوب مقسما الى فواصل مسجوعة ، كل لفظة فيها توازى لفظة فى العبارة التالية لها وزنا ومعنى ، فتكون إحدى اللبارتين بمثابة التردد الصوتى للأخرى ، والتأكيد المعنوى لها فى آن واحد .

ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال (٤١) : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » •

وفضلا عن هذه الخصائص اللفظية الصوتية والدلالية المعنوية التي تقدم ذكرها فقد تميزت الألفاظ بوجود علاقة متميزة بين كل لفظتين فيها ، وهى علاقة قائمة على صيغتى الأمر والنهى بين اللفظتين المتضادتين اللتين اشتملت عليهما كل فاصلة منهما ، مما زاد الجانبين الصوتى والدلالى اتضاحا وقوة تأكيد •

ومن خصائص الألفاظ هنا أيضا كون العبارتين المسجوعتين متقابلتين تقابلا يحقق الكثير من الغايات بما يتضمنه من وجوه التعبير وسماته •

ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال (٤٢) : « ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شاناه » ولقد قوى دلالة الألفاظ هنا استخدام « ان » فى مستهل الحديث ، وتعريف لفظة « الرفق » مما يفيد تعيينه وكونه صفة معروفة ظاهرة الأثر والقيمة ، كما قوى هذه الدلالة ومنحها صفة العموم بحيث انسأقت على جميع الأحوال والمواقف دون استثناء تكرر لفظة « شىء » ، هى العبارتين المتقابلتين من جهة ، واستخدام أسلوب القصر فى كليهما من جهة ثانية •

هذا فضلا عن استخدام ما يناسب كلمة الرفق فى هذين الحالين المتناقضين من الألفاظ الموحية بالمقصود ، وذلك فى : « لا يكون فى شىء » ثم « ولا ينزع من شىء » •

فلما كان الرفق صفة خلقية معبرة عن أصل الفطرة وما يناسبها

• (٤١) رياض الصالحين : ٧٩/٢

• (٤٢) رياض الصالحين : ٧٧/٢

من القراحم ، وما تتطوى عليه من صفات الخير ، ورد التعبير بكلمة  
يكون في : « لا يكون في شيء الا زانه » .

ولما كان التجرد منه أمرا مخالفا لذلك الأصل لما يرتبط به من  
صفات منافية لرحمة والخير ، ومتصلة بالعدوان والقسوة ، ورد لفظ  
« النزع » دالا على ذلك . أما الجملتان : « زانه » « وشانه » فلا يخفى  
ما بينهما وبين كلتا الصفتين المذكورتين من تناسب تام من جهة ،  
وما يتضمناه من كبير الأثر في الجانبين الصوتي والدلالي اللذين يدعوان  
الذهن الى المتابعة باتفاقهما صوتا واختلافهما معنى من جهة ثانية .

هذا الى جانب أن التعبير بالفعل « يكون » في الحالة الأولى  
يرتبط بصفة الوجود التلقائي ، أما التعبير بالفعل « ينزع » في الحالة  
الثانية ، ففضلا عما يتضمنه من صفات الاعتداء والتجاوز ، وما يدل  
عليه من درجة الجهد المبذول في سبيل ذلك ، فانه يدل أيضا بصيغته  
على كونه بفعل فاعل قاصد اليه متجرد من الرفق ، عامد الى تجريد  
الأشياء منه .

ومن خصائص الألفاظ أيضا في هذا المجال قوة تركيز المعاني  
والتأثير بها لتميزها بمجموعة من الميزات اللغوية والبلاغية المتمثلة على  
اتفاق الوزن ، والاحاطة بالمعنى ، وتنوع درجاته ، وحسن التقسيم  
والتنسيق ، واستعمال الأساليب الدالة المحققة غايات التعبير . ثم بناء  
جميع ذلك على علاقات داخلية تترايط من خلالها الألفاظ ترايبا محكما .

ومن ذلك ما يمكن ملاحظته بوضوح فيما روى عن عطاء بن يسار  
عن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ  
يقول (٤٣) : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن  
حتى الهم يُهمُّه الا كُفِّرَ به من سيئاته » (٤٤) .

(٤٣) صحيح مسلم : ٤٣٧/٥ .

(٤٤) الوصب : الوجد اللازم ، ومنه قوله تعالى : « ولهم عذاب واصب »

قالى جانب لفظ الكلمات : [ وصب وتصب وسقم وهزن ] - ورناء ،  
والى جانب ما يتضح من احاطة الالفاظ بجميع وجوه المعنى تدرجتها  
واشتمالا ، والمبتورغ من ذلك الى ادى درجاته فى : « حتى الهم يهمه » ،  
والى جانب ما يبدو بوضوح من حسن التقسيم والتنسيق الفاشئين  
عن البدء بالفعل يصيب مسبقا بـ « ما » ، واتباعه بلفظ المؤمن  
متبوعا بـ « من » الدالة على أن ما سيرد بعدها متعلق بما قبلها وهنضم  
فيه ، الى جانب ذلك كله فان ورود هذه الالفاظ فى اطار أسلوب انقصر  
قد أخرج الالفاظ ودلالاتها الى اطار من التميز ذى الوجوه المتعددة ،  
منها : أنه حصر المعنى ووضحه وأكد دلالاته •

ومنها : أنه معالجة قوية لجميع ما يصيب النفس عن طريق وضع  
مقياس للتوازن النفسى يضمن سلامة الايمان ، ويشبع الحاجة الى  
الشعور بالرضا فى كل حال •

وفصلا عن ذلك فقد تميز الأسلوب بهذا التكرار ذى الأثر الواضح  
فى الجانبين الصوتى والمعنوى والنفسى والذى تعددت وجوهه ومصادره  
بين تكرار الكلمات والأحرف والحركات والسكنات بشك ظاهر ، وترادف  
بعض الالفاظ ، وتعبيرها الدقيق عن جميع جوانب المعنى ودرجات  
تأثيره ما ظهر منها وما خفى •

ومما يسهم فى تحقيق الوظائف الصوتية والدلالية قيام الالفاظ  
على علاقات لغوية تتعقق فيها بأصل اشتقاقى واحد تدور حوله مجموعة  
من المشتقات التى نخل بتردها عبر السياق موحية بالكثير من الدلالات  
ومثمة المعانى المقصودة ومثبتة لها فى العقل والشعور •

أى : لازم وثابت • النصب : التعب ( كفرح يفرح فرحا ) نصب ينصب  
نصبا •

ولا يخفى ما يكون لذلك كله من أثر فى ترسيخ القضايا التى يعالجها  
الأسلوب ويخت عليها .

والإرتكاز على استخدام العلاقات الامتقائية بين الألفاظ يفسح  
الإنجال للكثير من دوائر التعبير ، وبيان درجات المعنى قوة أو ضعفا ،  
ظهورا أو خفاء .

كما أنه يتيح لسماع فرصة فهم العلاقات اللغوية التى لم يكن يعرفها  
من قبل ، أو كان يعرفها بشك مجمل غير واضح ، وذلك عن طريق الربط  
بين الوصف وسببه ، أو الاسم ومعناه ، أو اللفظ ومدلوله بشكل عام أو  
غير ذلك من العلاقات .

ومن قبيل النوع الأول الذى يرتبط فيه الوصف بسببه ما روى عن  
ابن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال (٤٥) :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما  
نهى الله عنه » .

فالربط بين اسمى الفاعل : « المسلم ، والمهاجر » ، والفعلين :  
« سلم ، وهجر » ، وتعلق الفعل الأول منهما بفاعل من جنسه :  
« المسلمون » ، والفعل الثانى بما يتصل بمعناه ويوضح دلالاته ، وارتباط  
الأول كذلك بما يوضح وجهه بدقة وتحديد : « من لسانه ويده » وتعلق  
الثانى به وترتبه عليه يعد ربطا اكلا اللفظين بمدلوليهما ، وسبب الوصف  
بهما على هذا النحو الموجز الذى قام الجانب الصوتى للألفاظ فيه  
بدوره الملحوظ بيانا وتأثيرا وإثباتا .

ومن قبيل النوع الثانى الذى يرتبط فيه الاسم بمعناه وما يتصل بذلك من صفته أو خلقه — مما يتحقق وجوده فى بعض الأحيان — ما روى عن 'خفاف بن ايماء من قوله (٤٦) : « ركع رسول الله ﷺ ، ثم رفع رأسه فقال : « غفار غفر الله لها ، وأسلم سلمها الله ، وعصية عصت الله ورسوله ... » وظاهرة الربط بين الاسم ومعناه ظاهرة لغوية لاحظها العرب القدماء وأولوها جانباً من جهودهم .

ومن قبيل النوع الثالث الذى يرتبط فيه اللفظ بمدلوله بشكل عام ما يرد اللفظ فيه مرتبطاً بما يوضح هيئته وما يتصل بها من انفعال أو ملامح ، كما هو الحال فيما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٤٧) : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وتجاور لفظتى « جنود » و « مجندة » اللتين ترجعان الى أصل اشتقاقى واحد يعد ربطاً قوياً بينهما ، حيث اتضحت من خلاله هيئة هؤلاء الجنود بما تحمله لفظة « مجندة » من معانى التجمع والائتلاف والترابط ، ولقد زاد هذه الدلالة وضوحاً ما تلاها من تعبير تقابل فيه قسمها : ما تعارف فائتلف ، وما تناكر فاختلف .

ولم يست هذه الأضرب من ظاهرة الاشتقاق فى أسلوب الحديث الشريف الا نماذج لبعض ما يوجد من أنماط هذه الظاهرة وخصائصها ، ذلك أنها ظاهرة أسلوبية لغوية كثيرة الظهور فى ذلك الأسلوب كثرة يتحقق من خلالها العديد من الوظائف البلاغية والدلالية المتنوعة بتنوع مجالات التعبير وقضاياها .

(٤٦) صحيح مسلم : ٣٢٤/٢ .

(٤٧) صحيح مسلم : ٤٩١/٥ .

ومن ذلك ورودها فى مواقف التحذير والترهيب مبينة درجة خطورة الموقف وهوله ، ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه (٤٨) : « من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صيام الدهر ، وإن صامه » .

ولقد أسهم استخدام « الاحتراس أو التكميل » هنا فى قوله : « من غير عذر ولا مرض » فى دقة التعبير ووضوح دلالاته ، كما بلغت هذه الدلالة أقصى درجاتها وضوحاً بذلك التتميم الذى ورد بعد بيان المضمون مفصلاً فى قوله : « وإن صامه » .

ومن ذلك فى مجال إيضاح هول موقف آخر يقوم هوله على تجاوز أثره صاحبه الى غيره بشكل عام ، ما روى عن عامر بن سعد عن ابيه قال : قال رسول الله ﷺ (٤٩) : « ان أعظم المسلمين فى المسلمين 'جرماً' من سأل عن شئ لم 'يحرّم' على المسلمين فحرّم عليهم من أجل مسألته » .

ولقد أسهم فى بيان درجة هذا الهول وقوة أثره جميع العناصر اللغوية الواردة هنا ، وأبرزها التكرار فى : « المسلمين » الواردة ثلاث مرات والاشتقاق فى : « سأل ومسألته » وكذلك فى « لم يحرم فحرم » الى جانب أداة التوكيد « ان » ، واسم التفضيل « أعظم » والوصف بالجرم للموصوف ، وتكثير لفظة شئ ، وعدم توقف المعنى عند « فحرم عليهم » التى يمكن أن يتم لديها المضمون ، وتجاوز ذلك الى تأكيد سببه وزيادة بيان درجة هوله فى « من أجل مسألته » .

(٤٨) مختصر صحيح البخارى : ٤٥٣/١ .

(٤٩) صحيح مسلم : ٢٠٦/٥ .

ومن ذلك أيضا في مجال ايضاح المعانى وتصويرها في اطار حسي يخرجها من اطار الابهام الى الايضاح ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال (٥٠) : « اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فان الشح اهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

ومن ذلك في مجال التبشير وبيان فضل الثواب والجزاء محسوسا مصورا في أسلوب استعاري دقيق من المعالجة الهادفة ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٥١) :

« أتت امرأة الى النبي ﷺ بصبي لها فقالت : يا نبي الله ادع الله له ، فيقد دفنت ثلاثة . قال : دفنت ثلاثة ؟ قالت : نعم ، قال : لقد احتظرت بحظر شديد من النار » .

ومن ذلك أيضا ورود الاشتقاق في بيان المقاييس الدقيقة التي تتفاوت بها الأعمال ، وترتب عليها تفاوت نتائجها .

ومن ذلك ما روى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٥٢) : « الأعمال بالنية ، ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

ومنه وروده في مجال التسييح والتثناء على الله عز وجل للايضاح

• (٥٠) صحيح مسلم : ٤٤١/٥

• (٥١) صحيح مسلم : ٤٨٨/٥ واحتظرت بحظر شديد أى احتظرت

• ٥١٧٠٧ : بلسنة وحصص (٢٤٢)

• بمانع وثيق

• (٥٢) شرح صحيح البخارى : ١٣٥/١



والتقريب والتذكير ، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه (٥٣) من أن معاوية كتب الى المغيرة : اكتب الى بنتي سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : فكتب اليه : «سمعت رسول الله ﷺ يقول اذا قضى الصلاة : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجهاد منك الجد » .

ومنه وروده في مجال التوجيه والارشاد لبيان كيفية التعبير عما يعتري النفس من الانفعالات ويشعلها من القضايا ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٥٤) : « لا يفتنن أحدكم الموت نضراً نزل به ، فان كان لا بد متمنيا فليقل : اللهم احيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي » .

ومنه وروده في مجال بيان الفضل والتميز للحث والترغيب .

ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٥٥) : تسحروا فان في السحور بركة » .

ومنه أيضا ما روى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ (٥٦) : « سئوا صفوفكم فان تسوية الصف من تمام الصلاة » .

ومنه ورود الاشتقاق المتعدد لبيان المنزلة كما هو الحال فيما روى

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ (٥٧) أنه قال لحسن :

• (٥٣) صحيح مسلم : ٢٣٨/٢

• (٥٤) صحيح مسلم : ٥٤٧/٥

• (٥٥) صحيح مسلم : ١٥٠/٣

• (٥٦) صحيح مسلم : ٧٨/٢

• (٥٧) صحيح مسلم : ٢٨٥/٥

« اللهم انى 'أحبته فأحبته' وأحبب 'من' 'يحبه' » •

ومنه وروده فى مجال التأكيد بايضاح بعض ما سيرد من الأمور مصورا فى شكل واقعى دقيق ، كما هو الحال فيما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال (٥٨) :

« لتقَاتِلُنَّ اليهودَ ، فَلَتَقَاتِلُنَّهُمْ حتى يقول الحجرُ يا مسلم هذا يهودى فتعال فاقتله » •

وإذا كان الاشتقاق ظاهرة لغوية متسعة المجالات فانها كما يتضح من هذه النماذج والأنماط المتعددة تؤدى العديد من الوظائف البلاغية والدلالية بما تتضمنه من تقليب مشتقات الأصل اللغوى الواحد ، واستخدام حروفه المكررة ومعانيه المتلازمة بحيث يسهم ذلك كله — كما اتضح بيانه — فى جانبى التعبير والتأثير مما يحقق الكثير من غايات الأسلوب •

وكثيرا ما يستغنى الأسلوب عن الألفاظ المرددة ذات الجرس الصوتى المتلقى فى بيان دلالاته ، مرتكزا على ضروب أخرى من الوسائل اللغوية والأسلوبية التى تحقق هذه الدلالة وتبرزها بدقة أو تبين درجاتها المتنوعة سموا أو دنوا قوة أو ضعفا •

وهنا تتضح خصائص أخرى كثيرة لألفاظ الحديث النبوى الشريف، مانحه أساويه طابعا متميزا من القدرة التعبيرية الخاصة •

ومن مظاهر ذلك ورود ألفاظ الحديث الشريف الواحد ورودا معبرا عن درجات متنوعة من المعانى التى تلتقى جميعها لدى دلالة واحدة فى اطار من التسمييق اللغوى الذى 'تتبع' من خلاله هذه الدرجات •

• (٥٨) صحيح مسلم : ٧٦٧/٥ •

• (٥٩) صحيح مسلم : ٧٦٧/٥ •

• (٦٠) صحيح مسلم : ٧٦٧/٥ •

من الأتقى إلى الأدنى أو العكس حتى تصل جزئيات ذلك المعنى إلى درجة الاحاطة التامة والاكتمال المحكم عن طريق استيعاب الأسلوب لجميع جوانبها •

ومن ذلك ما يرد تحقيقاً لمغاية بيان وجوه الفكرة الواحدة التي يحتاج بيانها إلى تفصيل جوانبها وكيفية ومدى إمكان تحققها تلاؤماً مع القدرات المتفاوتة •

ومما يوضح ذلك ما روى عن سعيد بن بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال (٥٩) :

« على كل مسلم صدقة ، قيل : أرأيت ان لم يجد ؟ قال : يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق • قال : قيل : أرأيت ان لم يستطع ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف • قال : قيل له : أرأيت ان لم يستطع ؟ قال : يأمر بالمعروف أو الخير • قال : أرأيت ان لم يفعل ؟ قال : يمسك عن الشر فانها صدقة » •

ومنه ما يرد بياناً لتفاوت درجات الثواب والعقاب بناء على تفاوت درجات الالتزام بما تبني عليه من أسس وقواعد متعددة الجوانب مما يحتاج حصره إلى دقة تعبير وقوة تحديد •

ومن ذلك ما روى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه — وكان شهد بدرا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة — أن رسول الله ﷺ قال (٦٠) وحواله عصابة من أصحابه : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف • فمن وفى منكم فأجره

(٥٩) صحيح مسلم : ٤٥/٣

(٦٠) صحيح البخارى : ٦٤/١

عني الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو الى الله : ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه « فبايعناه على ذلك » .

ومن مظاهر ذلك أيضا ورود الألفاظ دالة على هيئات متعددة للموصوف الواحد ، وانفعالات متنوعة للنفس الواحدة ، وتنوع درجات التأثير التي تختلف باختلاف العوامل والمؤثرات .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ (٦١) : « كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ ، ثم يقصم عني وقد وعيتُهُ ، وأحياناً ملكٌ في مثل صورة الرجل فأعني ما يقول » .

وتتجه ألفاظ الحديث الشريف للتعبير عن الغروق المدقيقة بين ما يبدو متقاربا من المعاني لتضع حدودا تميزها من جهة ، وخطوطا تربطها في دائرة تلتقي لديها دلالاتها لدى نقطة واحدة من جهة أخرى بالرغم مما بينها من جوانب التميز .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٦٢) :

« أنا زعيم بببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محققا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازها ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

(٦١) صحيح مسلم : ١٨٥/٥ .

(٦٢) رياض الصالحين : ٧٠/٢ .

وحين يكون الاختلاف بين ما يتقارب بعض وجوهه ويتفاوت بعضها الآخر بحيث تتعدد الدرجات بما لا يمكن حصره ، نجد تصويراً حسيماً واقعياً دقيقاً لذلك يجمع أطراف المعانى — ما تباعد منها وما تقارب — فى دائرة فكرية تترك آثارها الواضحة فى النفس والخيال من جهة والعقل والادراك من جهة أخرى •

ومن ذلك ما روى عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (٦٣) : « تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تُكَوِّنَ مِنْهُمْ كَمَقْدَارِ مِيلٍ ، قَالَ سَلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى مَا يَعْنَى بِالْمِيلِ أَمْسَافَةَ الْأَرْضِ ، أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَتَلُ بِهِ الْعَيْنُ ، قَالَ : فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رِجْلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَمَامَ • قَالَ : وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ » •

وتتعدد خصائص الألفاظ فى الحديث النبوى الشريف فى هذا المجال تعددا ملحوظا ، حيث تتركز فى تحديد الجوانب الدلالية المتنوعة بتنوع مجالاتها على انتقاء الوسائل الملائمة لها فى كل حال داخل تراكيب لغوية تمنحها طابعا خاصا من التعبير الدال المؤثر •

ومن هذا القبيل استخدام الأفعال المدالة على الاستمرار مرتبطة بأدوات دالة على بلوغ الغاية •

ومن ذلك استخدام « مازال » مقترنة بـ « حتى » فى سياق واحد لايضاح مجموعة من المعانى المتعددة التى نظل تنمو وتتصاعد حتى تبلغ حدا أقصى تجتمع لديه جميع الجوانب المذكورة قبله ، تركيزا

وتحديدا والتقاء عند نقطة واحدة تحقق من خلالها الألفاظ غاياتها ،  
والأسلوب وظيفته وأثره .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت  
رسول الله ﷺ يقول (٦٤) :

« مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليؤرثه » .  
وفى رواية : « حتى ظننت أنه سيؤرثه » .

وتركيز الدلالة عند نقطة واحدة يبلغها المعنى على هذا النحو أمر  
له طابعه الخاص ، ذلك أن الأسلوب هنا يجمع درجات لا حصر لها من  
المعاني بحيث تفتح مجالات عديدة للفكر الذى لا يكاد يتصور كلمة  
أو فعلا أو محاولة تتدرج تحت فكرة المعروف الا وأدخلها فى هذا  
الاطار ووجدتها منه .

والأسلوب — رغم ذلك — موجز لا اطالة فيه ولا اعادة ، واضح  
لا غموض فيه ولا ابهام .

وإذا كانت الوسيلة اللغوية المحددة التى اجتمع فيها « مازال »  
الذى أخبر عنه بجملة فعلية فعلها مضارع ليجتمع فى دلالة استمرار  
الوصية مع دلالة انقضاء الحدث وكونه قد تم بالفعل ، ثم حتى التى  
تفيد بلوغ الغاية ودخولها على الماضى الذى يدل على تحقق الظن  
ووقوعه نظرا لتصاعد المعانى وسمو الحقوق فان ذلك كله قد بلغ غايته  
بذلك التأكيد ذى العناصر المتعددة المجتمع فى « أن » و « اللام »  
و « نون التوكيد الثقيلة » فى : « ليورثه » .

وترد نفس هذه الوسيلة متضمنة « مايزال » بصيغته المضارعة

الدالة على الاستمرار دون انقطاع فى اطار يفتح المجال لنمو المعانى وتتصاعد مجالاتها حتى تتوقف فجأة لدى نقطة تمثل غاية واحدة لدى هذه الوسيلة اللغوية التى سبق ذكرها أيضا وهى « حتى » .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٦٥) : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » .

فهذا التعبير اللفظى المتضمن أنماطا من المعانى الجزئية تصاعد نحو نقطة واحدة مشكلا جانبى : المعاناة ذات الجوانب المتعددة ، والمعالجة ذات الأثر الواحد الذى يضع البديل ، ويشبع الرغبة فى بلوغ الغاية . ومن هذا القبيل أيضا استخدام دلالة الفعل المضارع المسبوق بمنفى مرتبطة بها يدل على بلوغ الغاية .

ويبلغ هذا الأسلوب حدا من القوة والدقة حين يعطف مثله عليه فى تدرج يعنى فيه الثانى على الأول لينتهى جميع ذلك بتقديم دلالة واضحة فى سياق أسلوب آخر يبين كيفية امكان تحقق المعانى السابقة له .

ومما ورد فيه ذلك كله ما روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (٦٦) : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

ويتخذ تحديد الدلالة فى ألفاظ الحديث الشريف اتجاها آخر يقوم على تحديد نقطتى البدء والانتهاه بحيث تنحصر وجوه المعنى ودرجاته لدهيها فلا تصاعد أكثر من نقطة الانتهاه ولا نزول للمعنى تحت نقطة

• (٦٥) الترمذى : ٢٨/٤

• (٦٦) صحيح مسلم : ٣٣٦/١

البدء ، وبذلك يتم حصر المعنى وتحديدده وتجميع أطرافه والتقاء عناصره  
في جوانب واضحة يمكن استيعابها دون لبس وان تعدد ما يندرج  
تحتها ويتفرع منها من الجوانب •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول  
الله ﷺ (٦٧) : « الايمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها  
قول لا اله الا الله ، وأدناها امانة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة  
من الايمان » •

وتحديد نقطتين واضحتين تتحصر بينهما الفكرة أسلوب دقيق  
التعبير يساعد على وضع الفواصل الواضحة بين الأقسام التي يمكن  
أن تتداخل فلا يُعلم أولها من آخرها •

وهذه من أظهر خصائص ألفاظ الحديث النبوي الشريف الذى وضع  
الحدود وأظهر الأقسام بما لا لبس فيه ولا تداخل •

ومن ذلك ما ورد فى بيان أوقات الصلاة وتحديددها على هذا النحو  
الذى نجده فيما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله  
ﷺ (٦٨) :

« ان للصلاة أولا وآخرًا ، وان أول وقت صلاة الظهر حين نزول  
الشمس ، وآخر وقتها حين يدخل وقت العصر ، وان أول وقت صلاة  
العصر حين يدخل وقتها ، وان آخر وقتها وقت المغرب حين تصفئ  
الشمس ، وان أول وقت المغرب حين تغرب الشمس ، وان آخر وقتها  
حين يغيب الأفق ، وان أول وقت العشاء الآخرة حين يغيب الأفق »

• (٦٧) صحيح مسلم : ٢٠٩/١

• (٦٨) الترمذى : ١٠١/١



وان آخر وقتها حيث ينتصف الليل ، وان أول وقت الفجر حين يطلع الفجر ، وان آخر وقتها حين تطلع الشمس » .

وفى رواية عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال (٦٩) : « وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر ، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس ، ووقت صلاة المغرب ما لم يغب الشفق ، ووقت صلاة العشاء الى نصف الليل الأوسط ، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس ، فاذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة ، فانها تطلع بين قرني شيطان » .

وحين يكون الطرفان اللذان تنحصر الفكرة بينهما محددتين بحال مخصوصة لها فضل تميز فان ذكرهما يرد مسبقا بما يعين على ايضاح ذلك الفضل كما هو الحال فيما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (٧٠) :

« الدعاء لا يُردّ بين الأذان والاقامة » .

ومن أنماط ذلك ما يرد فيه أحد الطرفين بارزا لخصوصية يتعلق بها ذكره ، ومن أمثلة ذلك ما روى عن عاصم بن عمر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٧١) :

« اذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطرت » فاقبال الليل وغيباب الشمس أمران متلازمان وذكرهما معا فى سياق واحد هنا له فضل بيان مغزى الحديث الشريف وهو تحديد وقت الافطار .

• (٦٩) صحيح مسلم : ٢٥٨/٢

• (٧٠) الترمذى : ١٣٧/١

• (٧١) الترمذى : ١٠٣/٢

وحين لا يكون المعنى محتاجا الى حصر بل الى وضع خط فاصل واضح بينه وبين ما يخالفه تماما ، فان فضل الأسلوب حينئذ يكون في وضوح ذلك الفاصل المميز بين الجانبين المتناقضين لتتضح دلالاته مستقلة عن غيرها .

ومن ذلك ما روى عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول (٧٢) .

« ان بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .  
وتتجه الألفاظ — كوسائل تعبيرية دالة — الى بيان وجه واحد متميز بين وجوه كثيرة بأسلوب تعبيرى آخر غير ما سلف ذكره ، ابرازا لذلك الوجه ، واكتفاء ببيان فضله عن ذكر ما هو أدنى منه

ومن وسائل ذلك استخدام الصيغ الملائمة له ، والتي منها اسم التفضيل كما هو الحال فيما روى عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٧٣) :

« ألا أخبرك بأحب الكلام الى الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام الى الله . قال : ان أحب الكلام الى الله : «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» .

ومنه ما روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : قال رسول الله ﷺ (٧٤) :

« ان من خياركم أحاسنكم أخلاقا » .

(٧٢) : صحيح مسلم : ٢٦٦/١ .

(٧٣) : صحيح مسلم : ٥٧٦/٥ .

(٧٤) : صحيح مسلم : ١٧٥/٥ .

(٧٢) صحيح مسلم : ٢٦٦/١

(٧٣) صحيح مسلم : ٥٧٦/٥

(٧٤) صحيح مسلم : ١٧٥/٥

ومن وسائله بيان الوصف الذى يتعلق به فضل الموصوف ممثلاً  
 أحسن الأحوال التى يرد عليها ذلك الموصوف .

ومنه ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (٧٥) : جاء رجل الى النبى  
 ﷺ فقال : يا رسول الله «أى الصدقة أعظم أجراً ؟ (وفى رواية : أفضل ؟)  
 قال : أن تصدقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ ( وفى رواية : جريحٌ )  
 تخشى الفقر ، وتأملُ الغنى ، ولا تهملُ ، حتى إذا بلغتِ الحلقومِ  
 قلت لفلان كذا ، ولفلان كذا ، قد كان لفلان » .

وحين يكون الموصوف مرتبطين بحكم التفضيل والسمو من جهة  
 ومطلقاً ليستوعب العديد من المجالات من جهة أخرى فإن التعبير عنه  
 يرد مرتبطين بما يدل على هذين الحالين فى آن واحد كما هو الحال فى  
 هذا الحديث المروى عن عائشة رضى الله عنها (٧٦) أن رسول الله ﷺ  
 سئل أى العمل أحب الى الله ؟ قال : « أدومه وإن قل » .

فدل على الحالة الأولى وهى الارتباط بالتفضيل وسمو المنزلة  
 بصيغة التفضيل فى « أدومه » ودل على الثانية وهى اطلاقه ليستوعب  
 العديد من المجالات بهذا التتميم فى « وإن قل » وتحققت بذلك دلالة  
 الأسلوب بالتقاء هذين الطرفين اللذين يندرج تحتها كل ما يصلح أن  
 يتصف بهذا الوصف من مجالات العمل وأضره .

وكما نتجها الألفاظ الى بيان أحسن الوجوه وأكثرها تميزاً إبرازاً له  
 من جهة واكتفاءً ببيانه عن ذكر جميع ما هو أدنى منه كما سلف ايضاحه ،  
 فأنها نتجها فى مجالات أخرى الى بيان أدنى هذه الوجوه وأقلها عدداً

(٧٥) مختصر صحيح البخارى : ٣٣٤/١ .

(٧٦) صحيح مسلم : ٤٤٠/٢ .

أو كما<sup>٥</sup> أو شأننا لوضع خط دلالي واضح يميزها وينفي ما يرد ذكره.  
من أحكام تتعلق بها عن كل ما قل عنها ، مما يجعل منها مقاييس دقيقة  
نكل ما هو مثلها أو فوقها .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله  
ﷺ (٧٧) : « ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الابل ، وليس فيما  
دون خمس أواق [ من الورق ] صدقة ، وليس فيما دون خمسة أو سق  
[ من التمر ] صدقة » .

ومنه ما روى عن ابن عمر رضی الله عنهما : جاء رجل الى النبي ﷺ  
فقال (٧٨) : « يا رسول الله . ما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة »

وتختص ألفاظ الحديث الشريف الى جانب ذلك بالقدرة على تحقيق  
وابراز الدلالة الكلية للقضايا الجزئية المتصلة بموضوع واحد بأسلوب  
لغوي معين يقوم على أنماط متنوعة من التعبير .

منها قيامه على تمييز أحد جوانب هذه القضايا أو بعضها مما يتضمن  
ذكره التعريض بغيره وبما يتصل به من الحكم ، ومن أمثلة ذلك ما روى  
عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال (٧٩) : « اللهم ارحم  
المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : اللهم ارحم المحلقين .  
قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصرين » .

فهذا الدعاء الموجز للمحلقين قد تضمن تفضيلا لهم من جهة ،  
وتعريضا بغيرهم ممن هم أدنى درجة منهم من جهة أخرى ، ولما كان

(٧٧) مختصر صحيح البخارى : ٣٢٩ .

(٧٨) الترمذى : ١٥٤/٢ .

(٧٩) صحيح مسلم : ٤٢٦/٢ .

الحالان : التحليق والتقسير ، متصلين بقضية واحدة وموقف واحد ، استلزم ذكر أحدهما تذكر الآخر ، مما دعا السامعين الى السؤال عنه ، فورد التكرار مؤكداً لذلك التفضيل من جهة ، والتعريض بدنو درجة المسئول عنهم من جهة أخرى ، فلما تكرر السؤال بعد أن استقرت دلالة الأسلوب ، ووردت هذه النهاية الموجزة تجاوباً وإباحة وتصريحاً بما يتعلق بحالهم من درجة الفضل وان كانت أقل من سابقتها •

ومن أساليب التعبير الدلالي في هذا المجال قيام الألفاظ بدور المبرز للقضية والموضح لها بنفى كل ما يخالفها من الجوانب المتعددة نفيًا تامًا. يتحقق من خلاله إبراز جانبي القضية سلبيًا وإيجابيًا ، ويقوم فيه الفكر بعملية الاستيعاب التام لهذين الجانبين بطريق الاستبدال المنطقي الذي يطرح فيه المنفى ويثبت خلافه اثباتًا مؤكدًا فينشأ عن ذلك تحقق الدلالة العامة للجانبين في إطار كلي واحد لا يتجزأ •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ (٨٠) أن رجلاً سأله : ما يلبس المصْرِم ؟ فقال : «لا يلبس القميص ولا العمامة ، ولا السراويل ولا البرنُس ، ولا ثوبا مسه الورس أو الزعفران ، فان لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين » •

ومن وسائل التعبير هنا أيضا اثبات مقابل الفكرة اما بنفيها أو باثبات بوصف مخالف لما يتعلق بها من توهم أو ظن باستخدام أسلوب القصر أو غيره •

ومما اجتمع فيه هذان الضريان ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٨١) :

(٨٠) صحيح البخارى : ٢٣١/١ •

(٨١) رياض الصالحين : ١٤٠/٢ •

« ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله » .

ومن وسائل التعبير التي تنهض ببيان دلالة واحدة لجوانب متعددة ، للقضية الواحدة الجمع بين النقيضين في سياق واحد جمعا يقوم على تفصيل ما يتعلق بكليهما تفصيلا يؤكد الآخر ويوضحه .

ومن أنماط ذلك ورود العبارتين المتقابلتين مسبوقتين بنفسى ومقترنتين بما يجسد المعنى ويوضحه في نظام لغوى واحد يفسح للذهن فرصة متابعتها من خلال تناسب التقسيم الأسلوبى طولاً ونسقاً ومنه ما روى عن علقمة عن عبيد الله قال : قال رسول الله ﷺ ( ٨٢ ) : « لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء » .

ومن أنماطه ورود الفكرتين المتقابلتين في أسلوب شرط مستهلتين ، بلفظ شرط واحد يتكرر في صدريهما ، ومرتبتي ترتيباً لفظياً منسقاً على نظام واحد يتحقق من خلاله التقابل التام بينهما لتتضح دلالتهما الواحدة مرتكزة لدى نقطة التقائهما

ومنه ما روى عن جابر رضى الله عنه قال ( ٨٣ ) : « أتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول الله : ما الموجبتان ؟ فقال : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار » .  
ومن هذه الأنماط أيضاً ورود كلتا الفكرتين مرتبطة ببرهانها .

ومن أمثلته ما روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال ( ٨٤ ) -

( ٨٢ ) صحيح مسلم : ٢٨٣ / ١ .

( ٨٣ ) صحيح مسلم : ٤٨٥ / ١ .

( ٨٤ ) مختصر صحيح البخارى : ١٠٩٠٩ .

« آية الايمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » •

ومن أنماطه أيضا اثبات الفكرة وما يقابلها بابرار جميع ما يبنى على كليهما من الجزئيات التي يبنى بعضها على بعض في تصاعد متجه نحو نقطة دلالية واحدة يلتقى لديها الجانبان المتقابلان تحقيقا لغاية واحدة •

ومن أمثله ما روى عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (٨٥) : « عليكم بالصدق ، فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » •

ويخلق بهذا المجال أيضا نمط آخر يقوم على الأيضاح «دلالة اللفظة الواحدة ذات الشقين المتقابلين اللذين يلتقيان لدى دلالة واحدة ومن أمثلة ذلك ما روى عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ (٨٦) : « عجباً الأمر المؤمن ان أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » •

وتلاؤما مع ما تقتضيه المواقف المتنوعة من المعالجة نجد الألفاظ في أسلوب الحديث النبوي الشريف تقوم بدور تلبية حاجات العقل وتطعم النفس لتناسب كلامها وتعالجه مقدمة اليه ما يتطلبه حاله بالقدر الذي يحتاج اليه •

• (٨٥) صحيح مسلم : ٤٦٧/٥

• (٨٦) صحيح مسلم : ٨٤٤/٥

• (٨٧) صحيح مسلم : ٤٦٧/٥

فاذا كانت حاجة الفكر قد اتجهت الى معرفة بعض جوانب الموضوع الواحد دون بعض مرتبة في نسق يبرزها عن جميع ما سواها فان الألفاظ تأتي مرتبطة بايضاح هذه الجوانب فقط دون غيرها .

ومنه ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٨٧) سئل رسول الله ﷺ : « أى الأعمال أفضل ؟ قال : ايمان بالله . قال ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . قال : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » .

فقد توقفت حاجة السائل لدى ثلاثة جوانب فقط من القضية التى يستفسر عنها فوردت الألفاظ الملائمة لهذه الجوانب ملبية حاجاته ومرتبة درجات هذه الجوانب بحسب أهميتها تلاؤما مع طبيعة الاستفسار .

ومن ذلك أيضا — فى مجال مقابل له — ما روى عن شريحيل عن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ (٨٨) : « أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : قلت له ان ذلك للعظيم . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : ثم أن ترائى حليلة جارك »

وحين يكون الموقف متطلبا المعرفة الجزأة التى يتم من خلالها جانبى الافهام والاقناع ، فان تقديم الألفاظ للمضاطب يكون بالقدر الذى يلائم هذه الحال ، فتقدم الألفاظ الموضحة لدلالة الأسس الهامة أولا فان استقرت بنى عليها غيرها مما يترتب عليها ، حتى اذا استقرت لديه هى الأخرى ورد دور غيرها من الجوانب التى تكتمل بها دلالة

(٨٧) صحيح مسلم ١/٢٦٨ .

(٨٨) صحيح مسلم : ١/٢٧٤ .



الموقف لتستقر هذه الدلالة بهذا التدرج دون أن تأخذ طابع الغموض أو الاختلاط •

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس (٨٩) أن رسول الله ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن • قال : « انك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل ، فاذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فاذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم ، فاذا أطاعوا بها هخذ منهم وتوقّ كرائم أموالهم » •

وحين يكون حال المخاطب متطلبا معرفة موضوع واحد له خطره وأثره ، فإن تعريفه بهذه الدلالة يأتي أيضا متدرجا على قدر حاجته من تنوع أسئته وجاء بعضها مبنيا على بعض ورد الأيضاح الذي يلائمها تصاعدا نحو نهايتها حتى تتحقق له غايته •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال (٩٠) :  
جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : أ رأيت ان جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تعطه مالك • قال : أ رأيت ان قاتلنى ؟ قال : قاتله • قال : أ رأيت ان قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد • قال : أ رأيت ان قتلته ؟ قال : هو فى النار •

وهكذا تتنوع الخصائص التى تنقسم بها ألفاظ الحديث النبوى الشريف فى هذا المجال تنوعا ملحوظا بحيث تحقق وظائفها وغاياتها ارتباطا بما يلائم المواقف التى تعبر عنها وطبيعة القضايا التى توضحها مكتسبة من أوضاعها داخل سياقتها ومن طريقة انتقائها وربطها بما يتعلق بها أو يبنى عليها أو يرتبط بها بسبب الكثير من الميزات الدالة الهادفة •

• (٨٩) صحيح مسلم : ١٦٦/١

• (٩٠) صحيح مسلم ٣٤٧/١

## الفصل الخامس

### أنماط الأساليب البيانية فى الحديث النبوى الشريف وخصائصها

تتنوع أنماط الأساليب البيانية فى الحديث النبوى الشريف تنوعاً واسع المجال ، مرتبطة فى ذلك بما تدل عليه من المعانى وترتبط به من المواقف ، فيرد الأسلوب مشتملاً فى كل حال على ما يناسب طبيعته ويؤدى غرضه من هذه الأنماط البيانية المتعددة التى تتكسب بخصائصها المميزة أوضاعاً لها مكانتها البارزة فى البيان العربى بوجه عام .

لذلك لم يكن فضل الدراسات التى تعمد الى بيان هذه الأنماط وتحليلها فى بلاغة النبى ﷺ براجع الى مجرد تصنيفها الى الأقسام المعروفة فى البيان العربى من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها ، أو بيان أقسام كل نوع من هذه الأبواب وما يشتمل عليه من عناصر فقط ، وإنما يكون فضل الدراسة فى هذا المجال حين تستطيع أو تحاول التوصل الى بيان قيمة هذه الأساليب ، والعناصر التى أسهمت فى بيان هذه القيمة والخصائص التى منحنتها تميزها وشأنها فوردت على شاكلة مخصوصة مدعمة بأسباب القوة والتأثير .

والذى يعمد الى دراسة الأساليب البيانية فى الحديث النبوى الشريف يجد نفسه أمام كم\* واسع المجال متعدد الأضرب متميزا بالخصائص مشتمل على الكثير من الجوانب التى تميز هذه الأنماط وتبرز

لخصائصها • فسواء أكان التعبير متصلا بأسلوب التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو غيرها، مما سيرد انقول فيه فان المتأمل لهذه الأنماط يجد صوراً بيانية متنوعة المجالات تقرب الحقائق وتوضح القضايا وتبرز الكامن من المعانى وتتجاوز الواقع الى ما وراءه، من الأمور المتصلة بالغيب ايضاحاً لما يرتبط بمضامينها من القضايا ويتعلق بها من المواقف الهامة •

وكسفا للحقائق وتقريباً للغوامض البعيدة يجد المتأمل فى هذه الأساليب عناية بالغة بدقائق كل نمط وأطرافه وعناصره وقيمته وسببه • ويرتبط تنوع هذه الأنماط كما يرتبط تنوع خصائصها بتنوع مجالاتها وغاياتها •

فمنها النمط الذى يشتمل عليه الأسلوب الفصل القائم على الأطناب والاعتناء بالجزئيات والعناصر المبرزة دلالاته • ومما يزداد فيه هذا النمط من المجالات مجال بيان الأمور المتعلقة بالغيب أو المستقبل •

ومن أمثله ما روى عن حذيفة (١) قال : كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه • فقال : لعلمكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره ، قالوا : أجل • قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة • ولكن أيكم سمع النبى ﷺ يذكر الفتن التى تموج موج البحر؟ قال حذيفة فأسكت القوم، فقالت : أنا • قال : أنت لله أبوك • قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تعرضن للفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشرب منها فُكيت »

(١) صحيح مسلم : ٣٥٣/١ •

فيه نكته سوداء ، وأى قلب أُنكرها نُكبت فيه نُكبت بيضاء ، حتى  
تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت  
السموات والأرض ، والآخر أسود مُرَبَادًا كالكوز مُخَجِيًا لا يعرف  
معروفًا ولا ينكر منكرا الا ما آسُرَبَ من هواه . قال حذيفة :  
وحدَّثته أن بينك وبينها بابا مغلقا يوشك أن يُكسر . قال عمر :  
أَكْسُرًا لا أبالك ؟ فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد ، قلت : لا بل  
كسرا ، وحدثته أن ذلك الباب رُجلٌ يُقتلُ أو يموت حديثا ليس  
بالأغاليط ، قال أبو خالد : قالت : يا أبا مالك : ما أسود مُرَبَادًا ؟  
قال : شدة البياض في سواد . قال : قلت : فما الكوزا مُخَجِيًا ؟  
قال : مَنْكُوسًا » .

ففي هذا النمط من التعبير البياني تتقالي الصور والتفاصيل المتعلقة  
بها ايضا للمعاني الكامنه وبيانا لما تشير اليه من دلالات ، لذا أتبع  
كل جزئية من جزئياتها بما يوضحها وتليت كل صورة بما يلائمها مما بنى  
عليها ومهد لغيرها حتى اكتملت جميع الصور فانضحت القضية التي  
يدور حولها الأساروب بهذا التعبير المفصل الذي تكاملت أجزاءه حتى  
كونت كلا واحدا لا فصل بين مكوناته .

فايضاحا لكيفية عرض الفتن على القلوب شبهت بالحصير ، وبيانا  
للدقائق المعنى الذي تتضمنه هذه الصورة أتبع بهذا التفصيل الواضح  
في : « عودا عودا » ليصير ذلك كله ممهدا لنتيجته التي بنى ذكرها عليه ،  
فوردت مفصلة كذلك ، متضمنة جانبين متقابلين يوضح كل منهما الآخر ،  
لتكتمل دلالة ذلك لدى غاية واضحة في نقطة واحدة عند لفظة « حتى »  
التي دخلت على الفعل المضارع « تصير » الذي يفيد التحول . ثم تبدأ  
الصور البيانية في الظهور من جديد مبنية على ذلك المعنى الذي تم  
يضاحه تأكيدا له وبيانا لجانبية المتناقضين بصورتين تشبيهيتين  
متقابلتين كذلك ، أما احدهما فتوضح ذلك النوع الذي أنكر الفتن

قصار « أبيض مثل الصفا » ، وأما الأخرى فتوضح نقيضه الذى صار « أسود مربادا كالكوز مخجيا » ولما كان هذا الصنف الثانى منطويا على الكثير من الأمور الغامضة أتبع وصفه بما يوضح جوانب هذا الوصف ودقائقه ، فأتبع لفظ « أسود » الدال على اللون بلفظ «مربادا» الدال على درجة ذلك اللون ، وأتبع المشبه به كذلك بما يوضح صفته فى اللفظ « مخجيا » الدال على حاله ووضع ، ثم تمت دلالة ذلك بما تبعها من ألفاظ دلت عليها فى « لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه » •

ولقد عبر ذلك كله عن طبيعة الفتن ونتائجها وآثارها فى القلوب ليشكل هذا الجزء من الأسلوب البيانى الدال قسما واضحا من أقسام هذا الحديث الشريف يكون بمثابة التمهيد لما تلاه من قسم آخر اشتمل على تصوير ذلك الباب المغلق الذى أوشك أن يكسر ، ثم اتباع ذلك بما وضحه من الحقائق المفصلة فى كون ذلك الباب رجلا يقتل أو يموت ليصير ذلك كله بمثابة القضايا الواضحة التى تقترب دلالاتها بهذا الأسلوب من المجال الإدراكى •

ولقد كان للكثير من الدقائق اللغوية هنا فضل بيان الغامض من المعانى والبعيد من الدلالات مثل العناية بوصف « الباب » بأنه «مغلق» وورود الفعل « يوشك » الذى يدل على قرب وقوع الحدث ، والتعبير بالفعل «يكسر» دون غيره وربط ذلك كله بشخصية عمر — رضى الله عنه — الذى يمثل نقطة تحول كبرى فى هذا المجال •

وإذا كان هذا الأسلوب البيانى المفصل مرتبطا فى خصائصه — كما سلف الذكر — بما يتعلق به من مجالات التعبير من جهة ويحققه من الغايات من جهة ثانية ، فإنه يتخذ بدوره أنماطا متعددة تتصل بذلك النمط الأسلوبى العام فى التفصيل والإيضاح واتباع الصورة بما يبرز

جلالتها ويمهد لغيرها مما يبنى عليها ، أو الجمع بينها وبين غيرها من القضايا المتعلقة بها فى سياق دال واضح لكنه يتنوع بتنوع طبيعة القضية التى يتضمنها أو يعبر عنها ويتنوع صلتها بالمخاطبين أو السامعين .

فمما يرتبط ببيان الأمور المتعلقة بالغيب أو المستقبل أيضا لكنه يختلف عما سبق من حيث الارتباط بالمخاطبين أو السامعين نمط من الأساليب البيانية المتضمنة صورا مركبة تركيبا لغويا مجتمع العناصر حول دلالة واحدة ، وإن كان مشتملا على أكثر من قضية تضمها تلك الدلالة وتوضحها عناصر التعبير البيانى المتعددة .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (٢) :

قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رعو سنن كاسنمة البخث المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » .

فهذا الأسلوب مشتمل على قضيتين مرتبطتين فى إطار واحد بهذا الحكم الذى أخذ محل الصدارة من الأسلوب ، وهو كونهما « من أهل النار » .

وورود هذا الحكم بعد لفظة « صنفان » التى تتضمن التعبير العددي من جهة ، والاختلاف فى طبيعة كل منهما من جهة أخرى لهو من أبرز العناصر الممهدة لما يورد بعدها من التفاصيل الموضحة لجوانبها الدلالية والتأثيرية .

واقدم وردت الصورتان البيانيتان التاليتان المرتبطتان بالضمون الغيبى الذى اتضح تعلقه بالمستقبل فى قول النبى ﷺ : « لم أرهما »

متضمنتين من العناصر ما يلائم طبيعة كل منهما تفصيلا وايضاها ،  
 فالأولى « قوم معهم سياط كأذناب البقر » تجاور فيها المشبه والمشبه  
 به تجاورا يوحى باللازمة ويبدل باسمية الجملة المشتملة عليه  
 على الثبوت والدوام ، كما يحمل دلالة ظاهرة دقيقة على هيئته  
 المشبه وأثره ، فأما هيئته فقد اتضحت من حيث الطول والقوة في  
 تشبيهه بأذناب البقر، وأما الأثر فقد اتضح فيما فصل به مما تبعه في :  
 « يضيرون بها الناس » ، وباجتماع ذلك تحققت دلالة هذه الصورة  
 حيث ارتبط فيها الفعل بأثره والسبب بنتيجته التي ارتبطت بمصائر  
 هؤلاء القوم فهم « من أهل النار » •

أما الثانية فقد عطف على الأولى بلواو ، ثم صدرت مثلها  
 بالموصوف النكرة ثم أتبعته بوصف مفصل للهيئة والفعل وأثر ذلك  
 الفعل ، ونتيجته • واقترن فيها كل وصف بما يلائمه ، وكل غريب من  
 المعانى بما يوضحه ، فكاسيات لازمتها وجاورتها لفظة عاريات مما يدل  
 على تلازم الصفات المذكورة وما تدل عليه من الدلالات في ذات  
 الموصوف ، ومميلات لازمتها كذلك وجاورتها مائلات مما يدل على اجتماع  
 التأثير والتأثر في هاتين الصيغتين (اسم المفعول ثم اسم الفاعل) ، وصفه  
 الرعوس تبعته صورة تشبيهية توضح هيئتها التي لم تكن معروفة بعد ،  
 مشتملة في عناصرها على المألوف الذي يمكن استحضاره في الأذهان  
 والأخيلة بمجرد ذكره وهو « اسنمة البخت » وأتبع ذلك تفصيلا  
 وايضاها بما يوضح هيئته بدقة في : « المائلة » ثم تلا هذا كله ذلك  
 الحكم المتقدم في صدر الحديث الشريف تأكيدا وايضاها « لا يدخلن  
 الجنة ولا يجدن ريحها » ثم ختم جميع ذلك بابرار عنصر من ذلك الحكم  
 المتقدم له خصوصية في التعبير وهو « ريحها » ابرازا له دلالة على  
 مقدار ذلك البعد بين من يوصف بذلك الوصف وريح الجنة في كناية دقيقة  
 بدالة « وان ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » •

ومما يرد فيه هذا النمط البياني الفصل كذلك ما يرتبط بالمجالات الواقعية المتعلقة بأعمال الناس وطبائعهم وما يكمن وراء تلك الأعمال والطبائع من استعدادات نفسية ودوافع •

فإبرازا لما يكمن وراء هذه الأعمال المتنوعة من صفات نفسية خفية ودوافع دغينة غامضة نجد الصور البيانية فى الحديث النبوى الشريف مخرجة الغموض الى مجال الوضوح ، والمعنى البعيد الى مجال الحس القريب ، والحالة النفسية ذات الدرجات المتعددة من اتقاوت الى صور مرئية متنوعة الدرجات كذلك فى القوة والضعف أو الصعوبة والسهولة ، أو الضيق والسعة •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (٣) : « مثل البخيل والمنفق ( وفى رواية والمتصدق ) كمثل رجلين عليهما جبَّتَانِ [ وفى رواية : ( 'جنتان ) من حديد ، قد اضطرت أيديهما ] من تُدِيَّهُمَا الى تراقبهما ، فأما المنفق فلا ينفق الا سبغت أو وفرت على جلده ، حتى تخفى بنائه ، وتغفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق الا كزِقَتْ كل حلقه مكانها [ وانضمت يدها الى تراقبها ] فهو [ يجتهد أن ] يُوسِّعها ولا تتسع [ قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول باصبعه هكذا فى جيبه ، فلو رأيتهُ يُوسِّعها ، ولا تتوسِّع ] •

فهذا الأسلوب المتضمن صوراً بيانية حسية معبرة عن تلك الأفعال المتعلقة بأحوال النفس المتضادة بين شخص وآخر يبرز جوانب خفية غامضة مرتبطة بآثارها الملازمة لها مما يتطلب قدرة على اخراج تلك المعانى الغامضة والجوانب الخفية الى مجال الادراك الحسى لتؤثر فى الشعور وتقدم للفكر قضية عقلية واضحة يمكنه تأملها والمقارنة بينها وبين ما يخالفها •

(٣) مختصر صحيح البخارى ١/٣٣٩/٣٤٠ ، صحيح مسلم : ٥٨/٣ •



ووضع عناصر هذا التصوير على نحو مفصل موضح هيئة الموصوف  
فى كلا الحالين قد أتاح فرصة تأملهما والتعرف على الكثير من غوامض  
المعنى المتعلقة بهما .

فمن ناحية يرى المتأمل صورة الرجلين مجتمعة فى إطار واحد ،  
فكلاهما مرتدي جبة من حديد ، أما هيئته كل منهما فقد اتضحت تفصيلا  
فى « قد اضطرت أيديهما من تُدِيَّهما الى تراقبيهما » فكلاهما مقيد  
بذلك القيد المتعلق معنويا بدلالة شعورية على الرغبة فى المال وحبه  
والحرص عليه ، ثم يتبع ذلك بيان حالين مختلفين لكليهما ،  
فأما احدهما فقد تجاوز ذلك القيد حيث أنفق فظهر أثر ذلك عليه ،  
وأما الآخر فلم يستطع فاتضح أيضا تأثير ذلك فيه .

فبينما « سبغت » الجبة الحديدية و « وفرت على » جلد الأول  
حتى صارت من السعة والطول بحيث « تخفى بنانه وتعفو أثره » ،  
لزقت الأخرى كل حلقة مكانها [ وانضمت يداه الى تراقبيه ] « فهو يجتهد  
أن يوسعها ولا تنتسح » وهذا التفصيل الأخير الذى يصور اجتهاده فى  
محاولة توسيعها دون أن تنتسح بيان آخر لحال نغلب دوافع هذه النفس  
على صاحبها وهو معنى غامض يظهره هذا التصوير الحسى ويبين  
درجة تمكنه من صاحبه وعمق أثره فيه .

ومما يتضح فيه أيضا هذا النمط القائم على تفصيل جزئيات  
الصورة وايضاح جوانبها وآثارها مجال بيان القضايا الدينية التى تمثل  
مجموعة الأسس الكلية والقواعد الثابتة التى يحتاج ترسيخها الى  
الاطناب والتفصيل .

ومن ذلك قضية الايمان والتصديق ، والعصيان والتكذيب  
وما يترتب على كليهما من النجاة أو الهلاك .

وهنا ترد الكثير من أساليب التعبير في الحديث النبوي الشريف ورودا مفصلا على نحو تمثيلي دقيق للمعاني يرتبط في جملته بشدة الحرص والاخلاص في التحذير وقوة التأكيد في اطار يتسم ببيان المعاني بيانا حسيا فيه الحركة والصوت والانعغال وربط المقدمة بنتيجتها والتكرار وغيرها .

ومن أمثله ما روى عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال (٤) : « ان مثلي ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم : انى رأيت الجيش بعينى » ، وانى أنا النذير العريان فالنجاه فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، فأنطلقوا على مهاتهم ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .

فقد اجتمعت جواثب الصورة أولا في صدر الحديث على هذا النحو المؤكد في « ان مثلي ومثل ما بعثنى الله به » ثم أتبع ذلك بتفصيل كجزيئية من جزئيات الصورة وجوانبها ، فمن جهة ترد صورة ذلك الرجل « الذي يمثل عنصرا من عناصر المشبه به المركب » وصفته حيث « أتى قومه » وكلامه : حيث قال : « يا قوم » متألجا ، ودرجة حفره وحرصه حيث يصف ما رأى في صدق وتأكيد « انى رأيت الجيش » ويزداد تأكيده رجاء تصديقه فيقول : « بعينى » ثم يضيف تأكيدا ثالثا ورابعا فيقول : « وانى أنا النذير العريان » ثم يبرز عنصر التحذير والرغبة فى النجاه قائلا : « فالنجاه » .

أما القوم الذين يمثلون عنصرا آخر من عناصر المشبه به المركب فقد اختلفوا بين طائع مصدق مستجيب ، وعاص مكذب غير مستجيب ، وقد شكك هذان الصالان جانبيين من عناصر

الصورة ثم بنى على كليهما ما يلزمه من النتائج ليختتم ذلك كله بما صدر به من بيان مفصل ومؤكد للطرفين البارزين المتناقضين من عناصر الصورة .

وإذا كانت هذه المجالات المتنوعة تتطلب هذه التفاصيل الشاملة لجميع الجزئيات فإنها تمثل مجموعة من النماذج التي تتعدد مثيلاتها في غيرها من القضايا التي تتطلب مثل ذلك ، بحيث يمكن القول بأن التطابق والتلازم بين خصائص الأسلوب ونمطه يتفق في كل حال والمجال الذي يدور في اطاره ، أو القضية التي يعالجها تحقيقا لغرضه وبيانا لغزاه .

وأيضا للمزيد من أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف نجد تنوع هذه الأنماط أيضا بحسب تنوع مجالاتها ومقاصدها فنجد الإيجاز (\*) اكتفاء بما يدل عليه المذكور من المعاني والدلالات الواضحة أو التي يمكن انتضاحها في ضوء فهم الأسلوب وتأمل جوانبه المذكورة . وذلك كما هو الحال في فيما روى عن أنس بن مالك قال : قال

رسول الله ﷺ (٥) : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » فقد جمعت هاتان الصورتان المجازيتان جميع أنواع الأعمال من خير وشر ، وجميع ما يترتب عليهما من ثواب وعقاب مما هو واضح لا غموض فيه .

واجتماع الإيجاز مع الوضوح من أبرز خصائص التصوير البياني هنا حيث قامت كل لفظة بايضاح جانب دلالي هام ، فحفت في الصورتين دلت بذاتها على المجاورة والملازمة ، وتقديمو اقتران لفظة الجنة بالمكاره ولفظة النار بالشهوات اقتران له دلالته كذلك على ذلك التلازم بين كلا الجانبين وارتباطهما ارتباط الفعل بأثره والسبب بنتيجته ، وتجاوز كلا

(\*) انظر - ايضاحا لذلك - الفصل الأول من هذا الكتاب ص ٣٤ وما بعدها .

(٥) صحيح مسلم : ٦٨٧/٥ .

الصورتين المتضادتين بوجه عام ابراز لدلالة عامة من خلال اظهار  
حسن النقيض باظهار سوء نقيضه •

وفضلا عن ذلك فان من أنماط الأساليب البيانية فى الحديث  
النبوى الشريف نمط يجمع بين قوة الايجاز الدال ، ودقة البيان المفصل  
فى آن واحد ، وذلك يتواجد بكثرة فى مجالات التعبير عن القضايا  
المتعلقة ببيان الفروق الدقيقة بين ما يبدو متماثلا من الأشياء المتشابهة  
فى الظاهر مع اختلافه حقيقته وصفته واختلاف ما يترتب عليه من الأمور  
عن غيره •

وهنا نجد المتأمل للأسلوب ضربا من الجمع بين تلك الأمور المتفاوتة فى  
حقيقتها مع ما بينها من تماثل فى الظاهر فى اطار من التنسيق اللغوى  
والبلاغى الدال مع مراعاة دقة تركيب العناصر فى أنماط مترابطة من  
الصور البيانية التى يتعلق بعضها ببعض تعلق الحلقات المتصلة أو البيئة  
المتكاملة فى تدرج تلقائى وتقسيم متلائم وطبيعة ما يضمه من جزئيات •  
ومن أمثلة هذا النمط ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن  
رسول الله ﷺ قال (١) :

« من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب  
بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى  
الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح فى الساعة  
الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما  
قرب بيضة ، فاذا خرج الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » •

فقد ضم هذا الأسلوب البيانى مجموعة من الصور البيانية القائمة

على التشبيه ، وكل صورة من هذه الصور استقلت بذاتها في تركيز شديد ببيان دلالة خاصة بأحد جوانب المعنى العام وقيمه وفضله وجزائه والفرق بيه وبين غيره مما اختلف عنه زيادة أو نقصا ، كما انطوت هذه الصور مجتمعة على كثير من الحثا على الأفضل بايضاح منزلته وما يترتب عليه من الجزاء ، وفضلا عن ذلك كله فهي تترك آثارا شعوريا عاما يولد الرغبة في التنافس للأفضل بوضع هذه الدرجات في سلم تنازلى من الأسمى الى الأدنى •

وبذلك تضمن هذا النمط الاسلوبى جانبى التركيز القائم على الایجاز الخاص ، مع التفصيل القائم على ايضاح المتشابه في شكله ، المختلف في طبيعته ودرجته مما ترك أبعادا شعورية ودلالات عقلية لها آثارها وقيمتها •

ومن أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوى فضلا عن ذلك نمط يرد تكميلا للأسلوب التقريرى المباشر • ليكون ورود ذلك الأسلوب بمثابة التتميم الدلالى الموضح لجانب من جوانب المعنى السابق عليه مما يحتاج الى ذلك الايضاح لبيان فضله أو صفته أو ازالة ما قد ينطوى عليه من الغموض أو اللبس •

ومن أمثله ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ (١) : « من سبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير غفرت له خطاياه وان كانت مثل زبد البحر » •

فورد هذا التشبيه الذي اختتم به الحديث الشريف على هذا النحو الموضح كثرة الخطايا وزيادتها عن حيز الإحصاء حيث أنها « مثل زيد البحر » له فضله في بيان قيمته ما ورد ذكره قبله وبيان جزائه وأثره ، وإثبات ذلك كله في النفس والعقل اثبات ترسيخ للفكرة وحرص على فضل ذلك العمل •

وهكذا يمكن القول بأن أنماط الأساليب في الحديث النبوي الشريف ترد متنوعة تنوعا يرتبط بتنوع مجالات التعبير وما يقتضيه كل منهما من طرق المعالجة ووسائل التأثير والإيضاح •

## الفصل السادس

من الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف

أولا : وظائف الأسلوب البياني بين الوسيلة والغاية •

انطلاقا من فكرة التلازم التام بين جانبي الأسلوب والمضمون أو اللفظ والمعنى أو التعبير والدلالة فإن الأساليب تصطبغ بالكثير من المظاهر التي تسترعى الانتباه ، وتستوجب الدراسة لبحث ما وراء هذه المظاهر من أسباب وما تسعى اليه من غايات •

وانطلاقا كذلك من فكرة تنوع أشكال التعبير وفقا لما يرتبط بها من المواقف ، وتعبير عنه من مجالات يجد الأسلوب خصائصه العديدة التي تتوقف على قدرة منشئة وبراعته في اختيار التراكيب الدالة الهادفة التي تلائم ما يعبر عنه ، وتؤتي ثمارها حين ترد على هيئة مخصوصة تناسب ما يسعى الى تحقيقه من الغايات •

وإذا كان اللفظ هو الوحدة التعبيرية التي تتخذ منها مادة الاسلوب ولبناته ، فان دور المنشئ يتوقف على كيفية تركيب الألفاظ وتقسيم أجزاء الأسلوب ، واختيار مواضع الجمل ، وتهيئة الذهن لفهم ما يلقي عليه منها ، وكذلك تهيئة النفس ببث ظلال الأسلوب وآثاره في المشاعر بحيث يجتمع من ذلك كله كل لا يتجزأ يحقق جميع غاياته في آن واحد • ومن هنا يتخذ التركيب الأسلوبى خصائصه في هذا المجال ، ويستقل بميزاته وملامحه التي تمنحه طابعا خاصا في ذاته يستطيع من

خلاله تحقيق ما لا يحققه غيره من الأساليب ، وطابعا عاما فى مجمله  
يستطيع به متلقيه أن يتبين السمات الشخصية المميزة لمنثته •

ومن هنا أيضا يمكن القول بأن بحث الخصائص اللغوية والبلاغية  
للأسلوب فى هذا المجال ، يوقف الدارس على أسباب تفاضل الأساليب ،  
ومنطلقات تمايزها واختلافها ، ومنابع سماتها التى تصطنع بها وتمنحها  
ما ترد عليه من أسباب التأثير وعوامل الاقتناع وسبل المعالجة •

ومن أكثر الخصائص وضوحا للأسلوب البياني فى الحديث النبوى  
الشريف العناية بالعناصر اللغوية الموضحة دلالات الصور البيانية  
والكاشفة عن مغزى الأساليب وغاياتها •

وهذه العناصر متعددة امواسع متنوعة الدرجات ، ترد فى  
الاساليب بقدر محدد لا يتجاوز عيب الاسلوب ، فتزد موضحة ما خفى  
من الجوانب التى تحتاج الى ايضاح او تقريب ، او مبرزة دلالة من  
دلالات الصور ، أو منبهه الأدهن الى جانب من جوانب المعنى محققة  
غير ذلك من الغايات كما سيرد ايضاحه •

فاذا كان وجه انسبه فى الصورة البيانية غامضا فان  
الأسلوب يرد مشتملا على تعليق يوضح ذلك الوجه ، واذا  
كانت صفة الموصوف الذى تضمن التصوير ايضاحها بعيدة غامضة فانها  
تقترن بغيرها من الصفات التى تشتمل عليها صور أخرى موضحة الفروق  
بين هذه الصفات ودرجات التفاوت بينها •

ومما يوضح ذلك ما ورد عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول  
الله ﷺ (١) : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها

(١) صحيح مسلم : ٤٥١/٢ •



طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثمل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » •

فهذا التعليق المفصل الذي تتبع كل صورة تشبيهية ورد موضحا وجه الشبه فيها ايضا من شأنه ان يزيين ماقد يحيط به من الغموض أو البعد ، وهذا التتابع الذي تجاوزت في اطاره الصور ابتداء من الأسمى وانتقالا الى ما هو دونه في تدرج متعدد الأقسام قد أبرز دلالات كل صورة وأوضح معزاها وقيمتها • ولقد أسهم في ايضاح ذلك كله هذا الاختيار الدقيق للألفاظ ووضع كل منها موضعه من الصورة الجزئية من جهة ومن الصورة الكلية من جهة أخرى فورد كل من الألفاظ والتراكيب على هذه الشاكلة المتميزة الدالة •

ومن الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في هذا المجال أيضا قيام الألفاظ داخل اطار الصور البيانية بدور الايضاح مع التأثير ودقة الوصف وبيان ما يتعلق بالموصوفات من جوانب المعنى ، من خلال ما ترد عليه هذه الألفاظ من التعريف والتكثير والعطف والافراد والجمع والتعليق والقصر والاثبات والنفي والتقسيم والشمول والتكرار وبيان الشأن وغير ذلك مما تحققه الألفاظ في مواضعها من الصور التي تتكون منها •

ومما تجتمع فيه هذه الخصائص اللغوية وغيرها ما روى عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال (١) : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبقت

(٢) صحيح البخارى : ١/١٧٥ ، وصحيح مسلم : ٥/١٤٤ •

الكلا والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً • فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم • ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » •

فقد حقق كل عنصر لغوي داخل إطار هذا التمثيل دوره في الإيضاح والتأثير المحققين غاية الأسلوب بوجه عام •

فقد لاءم التعريف في لفظتي « الهدى والعلم » اللتين تشكلان عنصريين لفظيين من عناصر المشبه ببيان طبيعتهما التي لا حفاء فيها وكونهما أمرين ظاهرين معروفين لا يكتمفهما غموض ، ثم ناسب ذلك أيضا اقترانهما بعنصر له التقاؤه الأسلوبى بهما وهو « العيث » الذي حقق من خلال تعريفه وما تبعه من الوصف بالكثرة نفس الغاية وأكدها ، وقد لاءم ذلك ما ترتب عليه وارتبط به من أمور فورد لفظ الماء معرفة ، وما ترتب عليها من الإنبات للكلا والعشب ، وما وصف به هذان من كثرة معرفة كذلك في القسم الأول من أقسام الأسلوب ، ثم ورد لفظ الماء في القسم الثانى معرفة أيضا ارتباطا بما يدل عليه من الظهور والنفع ، وورد لفظ المنتفع بالماء معرفة ارتباطا بما يدل عليه ذلك من العموم وشمول الفائدة دون تعيين أو تخصيص ثمورد لفظ الماء في القسم الثالث نكرة لما يرتبط به من مضمون التصوير الذى وضع فى إطاره ودلالة التعبير الذى احتواه حيث الدلالة على التلاشى والضياع وعدم الانتفاع ، وورد ما ترتب على ذلك أيضا نكرة مرتبطة بنفى حيث الدلالة على العدم أو التلاشى التام ، وتلازم الأثنين مبنى على انعدام الأثر نظرا لانعدام المؤثر ، ثم بنى على ذلك كله ما ارتبط به من ألفاظ موضحه دلالته ، فوردت الأفعال المضارعة المسبوقة بنفى « لم يرفع » « ولم يقبل » لتؤكد ذلك الترابط وتقوى درجة الإيضاح وعمق المعنى وتأثيره •

كما أدى التنكير من جهة أخرى وظائفه في إطار آخر محققا أغراض التصوير البياني من الشمول وعموم النفع في القسم الأول حيث وردت لفظه « أرضا » مفعولا به نكرة للفعل أصاب للدلالة على عدم اختصاص ذلك النفع بقوم دون غيرهم موافقة لجوهر القضية وحقيقته الأمر فهو للناس كافة . ثم ورد التنكير في الألفاظ المرتبطة بتفاوت درجات تأثير ذلك الفعل « أصاب » دالا على ما يرتبط بكل لفظ من صفة وشأن فنلفظ « نقية » داله على سمو الشأن وقوة الانتفاع وعمق الأثر وكثرة ما تثمره من وجوه الخير ، أما لفظ « أجادب » فقد دنت بتنكيرها وصيغتها في سياقها على ضعة الشأن وعدم الانتفاع وانعدام التأثير في ذاتها وأن كان النفع والتأثير حاصلين لغيرها بسبب امساكها الماء .

أما تنكير لفظة « قيعان » فقد ورد دالا على عدم التأثير وانتاثير معا أو عدم الانتفاع والنفع في آن واحد ويوغل ذلك مبلغا عاما شاملا يبلغ معه قدرها أقصى درجات الضعف والهوان وانعدام الشأن .

وبتأمل غير ذلك من العناصر اللغوية المساهمة في بيان جوانب التصوير ودرجات التفاوت أو الترابط والتلازم بين جميع أجزائه نجد العطف بين « الهدى والعلم » و « الكلا والعشب » والأفعال المثبتة « شربوا وسقوا وزرعوا » وكذلك الأفعال المنفية : « لا تمسك ماء » « ولا تنبت كلا » ، وتلك الأفعال الموضحة مغزى الأسلوب وغاياته وترابط عناصره ترابط السبب بنتيجته في « فقه » « ونفقه » و « فعلم وعلم » وفي « لم يرفع » و « لم يقبل » .

كما لا يخفى دور العطف في ربط جميع أقسام الأساليب ربطا محكما اتسق من خلاله كل جزء والذي يليه في تلاؤم تام .

وباجتماع غير ذلك من الخصائص اللغوية أفرادا وجمعا وتعليقا

وقصرا وإثباتا ونفيا وتكرارا وحسن تقسيم نجد التصوير محققا آثاره  
وغاياته كما هو واضح من خلال هذه البنية ذات الأجزاء المتتامة المجتمعة  
لدى نقطة دلالية واحدة .

ويتميز أسلوب الحديث النبوي الشريف في هذا المجال - فضلا  
عما سبق - بكثير من خصائص الدقة والنسب واللغوى الذى يمنح  
للصور البيانية القدرة على بيان ما يتوهم أنه بين ظاهر مع كونه خفى  
الدلالة .

ونجد ذلك فى تلك المواضع التى ترد فى اطار الأسلوب البيانى  
متخذة صورة التعليق أو التقديم أو الاعتراض أو غيره موضحة مغزى  
أو جانبا دقيقا خفى الدلالة من جوانب التصوير مع وروده على شاكلة  
يظن معها أنه واضح مكتمل الدلالة لا يحتاج الى ايضاح .

ومما يشتمل على ذلك من الأحاديث الشريفة ما روى عن أبى سعيد  
الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال (٣) : « يدخل أهل الجنة  
الجنة وأهل النار النار . ثم يقول الله تعالى : « أخرجوا من كان  
فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيخرجون منها قد اسودوا  
فيلقون فى نهر الحيا - أو الحياة ، شك مالك - فينبتون كما  
تنبت الحبة فى جانب السيل ، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية ؟ »

فالى جانب ما اشتمل عليه هذا الأسلوب من ألفاظ واضحة الدلالة،  
ودقة تصوير هؤلاء الموصوفين الذين « اسودوا » ، وما كان من أمر  
إيمانهم الذى بلغ ذلك القدر الضئيل وهو « مثقال حبة من خردل » ، ثم  
ما آل اليه أمرهم من القاء فى ذلك النهر الذى أدى بهم الى الخروج  
فى تلك الهيئة الواضحة التى اشتمل عليها هذا التصوير البيانى الدقيق،

فهم « ينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل » ، الى جانب ذلك كله نجد هذا التعليق « ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية » متمما لدلاله الصورة وموضحا ما ذق من وجوه الشبه بين حالهم وهيئتهم وحال تلك النبتة وانها مما نبه الذهن الى تأمل تلك الحال واستحضار صورة هؤلاء الموصوفين واكتمال ما يتعلق بهم من دلالات .

وهذا الضرب من الاطناب ذى الأنماط البلاغية المتعددة ( كالايغال أو التتميم أو الاعتراض أو غير ذلك ) يرد فى أكثر من موضع من أساليب الأحاديث النبوية الشريفة محققا غايات التصوير ومظهرا لدلالاته .

ومما اشتمل عليه الى جانب ما سلف ذكره ما يرد مجليا هيئة الموصوف اجلاء تاما وواضعا ملامح حسية دقيقة لتلك الهيئة ، كما هو الحال فيما روى عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ (٤) :

« يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى\* ، ليس فيها علم لأحد » (٥) .

فالى جانب اتباع لفظ الأرض بهذا الوصف الذى يوضح لونها الأبيض الذى يضرب الى الحمرة مما يفهم من لفظتى « بيضاء عفراء » ثم تشبيها فى ذلك بقرصة النقى ، الى جانب ذلك وردت جملة ( ليس فيها علم لأحد ) موضحة تلك الهيئة ومجلية مظهرها الحسى أمام العين .

(٤) صحيح مسلم : ٦٥٩/٥ .

(٥) النقى : بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء هو الدقيق الحورى ، وهو الدرملك ، وهو الأرض الجيدة ، قال القاضى : إن النار غيرت بياض وجه الأرض الى الحمرة . وقوله صلى الله عليه وسلم ( ليس فيها علم لأحد ) بفتح العين واللام أى ليس بها علامة سكن أو بناء أو أثر .

وقد يشتمل الأسلوب البياني على ما يظهر حالا خاصة من أحوال الموصوف فتزد دلالة التصوير متجهة إليه وموضحة شأنه وقيمته .

ومن ذلك ما يتضح فى هذا الحديث الشريف الذى روى عن معقل ابن يسار أن رسول الله ﷺ قال (٦) : « العبادة فى الهرج كهجرة الى » (٧) .

فالعبادة المشبهة بالهجرة هنا هى تلك التى ترتبط بحال مخصوصة، خص عليها الحديث الشريف ، واتضح وصفها فى كونها عبادة « فى الهرج » مما يزيد فضلها ويبين رفعة شأنها .

وبالانتقال الى خصائص اتجاه لغوى آخر لالفاظ الأساليب البيانية فى الحديث النبوى الشريف ، فإننا نجد مظهرا آخر من مظاهر الارتكاز على اللفظ كوحدة لغوية دالة داخل اطار التصوير البيانى ، فالى جانب كونها تشكل أساسا بنويا من أسس التركيب الأسلوبى للصور ، فإنها تتخذ مقياسا دقيقا لبيان درجات المعنى ومنزلته محددة وجهه أو كنهه أو أهميته ، ورباطة فى الوقت نفسه بين عناصر الصور التى تشتمل عليها لتجمع هذه العناصر فى اطار أسلوبى يسوده الاتساق والترابط .

وهنا تتضح احدى خصائص الأساليب البيانية الدقيقة التى توجه الملتقى الى فهم أغراض التصوير وأبعاده المعنوية دون تجاوز لشيء منها ، موقفه فكره وخياله لدى نقاط محددة واضحة .

ومما يتميز بذلك من الأساليب البيانية تلك التى تشتمل على الفاظ

(٦) صحيح مسلم : ٨٠٩/٥ .

(٧) المراد بالهرج هنا الفتنة واختلاط أمور الناس وسبب كثرة فضل

العبادة فيه : أن الناس يعقلون عنها ويشغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا

بأفراد ( نفسه ٨٠٩/٥ ) .

لها قدرة التحديد المعنوي في ذاتها نظرا لما يتضمنه معناها من دلالات تتصل بالوزن أو الكم أو بيان المنزلة أو ما تتضمنه من معنى المساواة بين طرفين أو أكثر في الصفة ، أو بيان مقدار الزيادة أو النقص بين هذه الأطراف ، وما إلى ذلك من الطاقات المعنوية التي تتضمنها بعض ألفاظ اللغة مما تزداد دلالاته دقة اذا ما وضع ضمن اطار لغوي ملائم لغرضه محقق غايته .

ومن أمثلة ذلك لفظة « وزن » التي ترد مضافة الى الفاظ يجمعها مجال دلالي واحد ، ومظهر حسي متقارب من حيث تدرجه قوة وضعفا في وزنه وصفته .

وقد ورد ذلك فيما روى عن أنس عن النبي ﷺ قال (٨) : « يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وَزْنٌ شَعِيرَةٌ من خير . ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وَزْنٌ بُرَّةٌ من خير ، ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وَزْنٌ كَرَّةٌ من خير » .

ومن أمثلة ما تضمن ألفاظا تدل على المماثلة بين طرفين اثنين من حيث « المكانة والفضل » ما روى عن عطاء قتبان سمعت ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيت اسمها (٩) : « ما منعك أن تحجي معنا ؟ قالت : لم يكن لنا الا ناضحان فحج أبو ولدها وابنها على ناضح وترك لنا ناضحا ننضح عليه . قال : فاذا جاء رمضان فاعتصري فان عمرة فيه تعدل حجة » (١٠) .

(٨) صحيح البخارى : ١٠٣/١ .

(٩) صحيح مسلم : ٣٩٢/٣ .

(١٠) ناضحان : أى بعيران نستقى بهما . ننضح عليه : بكسر

ومن أمثلة ذلك أيضا ما يرد ضمن أسلوب يزيد دلالة التصوير  
ايضاها وقوته أنرا بما يشتمل عليه من صيغ التفضيل وأساليب القصر  
أو التخصيص أو الاجمال الذى يتبعه التفصيل وما الى ذلك .

ومنه ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (١١)  
« ما من أيام أحب الى الله أن يتعبّد له فيها من عشر ذى الحجة ،  
يعدل صيام كل يوم منها صيام سنة ، وقيام كل ليلة منها بقيام  
ليلة القدر » .

ومن أمثلة ما تتضمن ألفاظا تصويرية تدل على المماثلة فى « المنزلة »  
مع بيان الفوارق الدقيقة وتحقيق أغراض الأسلوب من حيث المعالجة  
النفسية والتأثير المرضى لمشاعر المخاطب وازالة ما قد يتوهمه من امور  
مخالفة لما واقع ما روى عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال :  
قال رسول الله ﷺ لعلي (١٢) : أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا  
أنه لا نبى بعدى « وفى رواية (١٣) أن رسول الله « خَلَّفَهُ فى بعض  
مغازيه فقال لى : يا رسول الله خَلَّفْتِنِى مع النساء والصبيان ؟ فقال له  
رسول الله ﷺ : أما ترى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا  
أنه لا نبوة بعدى » .

ومما ورد مشتقلا على ألفاظ تدل على المماثلة مع المساواة فى  
الصفة المتضمنة كثيرا من الدلالات التى تفهم من ظاهر الألفاظ ومضمون.

الضاد . وفى رواية : « تقضى حجة ، أى تقوم مقامها فى الشراب لا أنها  
تعديلها فى كل شىء فانه لو كان عليه حجة فاعتمر فى رمضان لا تجزئه  
عن الحجة صحيح مسلم ٣/٣٩٣ .

(١١) الترمذى : ١٢٩/٢ .

(١٢، ١٣) صحيح مسلم : ٥/٢٦٧ ، ٢٦٨ .



الصورة من جهة وأبعادها الخيالية والفكرية والشعورية من جهة أخرى ما روى عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال (١٤) :

« اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا » وفى رواية: « صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا » (١٥) .

ومما تضمن ألفاظا دالة على زيادة بعض الموصوفات عن بعض فى درجات ما تتصف به من « البعد واللون والطعم والكثرة » باستخدام ما يرتبط بذلك من « صيغ التفضيل » ، فى اطار أسلوب مشتمل على الكثير من العناصر الحسية الموضحة معانيه والمقربة دلالاته ، ومشتمل كذلك على مجموعة من العناصر التصويرية البيانية التى يتعلق بعضها ببعض ويرتبط به ارتباطا قوى الدلالة لما يتضمنه من عناصر الحركة والصراع وتصوير الهيئات وبيان أهمية الموقف المصور، ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (١٦) :

« ان حوضى أبعدُ من أيّلة من عدان ، لهو أشد بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وانى لأشد الناس عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه . قالوا : يارسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم . لكم سيما ليست لأحد من الأمم ترِدُون على غرّا محجلين من أثر الوضوء » (١٧) .

(١٤) صحيح مسلم : ٤٣٦/٢ ومختصر صحيح البخارى : ٢٨٠/١

(١٥) قيل معناه : صلوا فيها ولا تجعلوها كالقبور مهجورة من

الصلوة ، والمراد به صلاة النافلة ، أى صلوا التوافل فى بيوتكم ( نفس المصدر والصفحة ) .

(١٦) صحيح مسلم : ٥٣٢/١

(١٧) سيما : علامة .

ومما تضمن الألفاظ دالة على العدد، أيضاً للمكّم والقَدْر، وهما يراد لأهمية العدد ما روى عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (١٨) : « من صام من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر، فأنزل الله تبارك وتعالى تصديق ذلك فى كتابه : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » اليوم بعشرة أيام » •

وتضع الألفاظ الخطوط الواضحة بين درجات متفاوتة لما يبدو متماثلاً أو متقارباً فى الظاهر مما ينبه الى الكثير من القيم الكامنة وراء ذلك الظاهر مما لا يبتسر ادراكه بالملاحظة الجملة للأمور •

ومما يعمق دلالات الأساليب فى هذا المجال ويمنحها درجات عالية من العمق والتركيز الشديدين استخدام صيغتى الافراد والتثنية للفظ الواحد مما يتضمن الى جانب ايضاح الكم ، بيان وجوه التماثل والتفاوت فى آن واحد •

ومن ذلك ما روى عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (١٩) : « من صلى على جنازة فله قيراط، فان شهد دفنهما فله قيراطان ، القيراط مثل أحد » وفى رواية (٢٠) : « سئل النبي ﷺ عن القيراط فقال مثل أحد » وفى رواية (٢١) قال : « أصغرهما مثل أحد » •

ومن الوسائل اللغوية التى تحقق هذه الميزات بدقة ورود مجموعة من الألفاظ التى تربط بينها علاقات تضمها فى اطار واحد مشكلة عناصر واضحة لمجموعة من الصور المتتالية المتصلة بمضمون عام لقضية كلية واحدة ، فيكون دور هذه الألفاظ بمثابة المقياس الدقيق

(١٨) الترمذى : ١٣١/٢ •

(١٩، ٢٠، ٢١) صحيح مسلم : ٦١٢/٢ ، ٦١٠ •

الذى تتأمل من خلاله درجات تفاوت كل من جوانب المعنى العام عن غيره من الجوانب الأخرى زيادة أو نقصا ، سموها أو دنوا .

ومن أمثلة ذلك ما ورد متضمنا ألفاظا مرتبطة بجانبى الحجم والقيمة المادية ، وهى عناصر حسية لا يخفى ما تتضمنه — اذا ما وضعت فى سياق بناء لغوى بيانى محكم — من دقيق الايحاء والبيان .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٢٢): «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» .

فمن خلال هذا التالى وذلك التدرج المترابطين فى اطار كل واحد قامت الصور البيانية بتحقيق غايات الأسلوب حيث وضعت المقاييس الدقيقة التى أظهرت مقدار كل جانب من جوانبها من جهة ومقدار التفاوت بينه وبين غيره من جهة أخرى اظهارا حسيا قوى الايحاء والبيان .

## ثانيا : تنوع الأساليب وترباطها فى الموقف الواحد

وبتأمل خصائص التراكيب اللغوية للأسلوب البيانى وما يتضمنه من سمات متنوعة يتضح نمط متميز قائم على تنوع العناصر التعبيرية التى يتركب منها الأسلوب فى شكله العام من جهة ، وما يقوم عليه من أسس بلاغية وعناصر داخلية من جهة أخرى .

وهنا تجد الصورة البيانية ثراءها وعمق دلالتها ارتكازا على الكثير من الجوانب البلاغية واللغوية التى يتضمنها الأسلوب حيث يفهم فى جانب كبير منه على التمهيد لمضمون الصورة ، والاشتغال على عناصر جذب الانتباه الى الفكرة ، وعناصر الشرح والتفسير ، وتنوع الاسلوب خبرا وانشاء ، حقيقة ومجازا ، وتضمن الكثير من العناصر الحسية المبرزة للمعانى المجردة فى صور ملموسة ، فيها الحركة والصوت والانفعال والتشخيص والتجسيد ورسم الهيئات الموصوفة وبيان الفروق بين المتضادات أو التماثلات ظاهرا مع تفاوت بينها وغير ذلك مما تترخ به أساليب الحديث النبوى الشريف فى هذا المجال .

ومما يجتمع فيه الكثير من هذه الخصائص وغيرها ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال (٢٣) : السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأنا ان شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا اخواننا . قالوا : آ ولسنا اخوانك يا رسول الله ؟ قال: أنتم أصحابى ، واخواننا الذين لم يأتوا بعد . فقالوا : كيف تعرفنا من لم يأت بعد من أمك يا رسول الله فقال : رأيت لو أن رجلا له خيلٌ غرٌ محجلة بين ظهري خيلٍ دهم بهم ألا يعرف خيلة؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فانهم يأتون غرًا محجلين

من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض • ألا ليذاد ن رجال عن  
حوضي كما يزداد البعير الضال • • أناديهم : ألا هلم • • فيقال : انهم  
تقد بدلوا بعدك • فأقول : سحقا سحقا « (٢٤) •

فهذا الأسلوب البياني المتضمن الكثير من العناصر والمتنوع من  
طرق التعبير وخصائصه قائم على إيضاح فكرة كلية عامة أيضا متعدد  
الوسائل •

ففيه الربط بين ما هو واقع وما هو آت ، وما كان من الأحداث  
الماضية ، وما سوف يكون •  
وفيه التمهيد لجوهر الفكرة ومغزى التعبير ، وإثارة الانتباه إلى  
أهمية ذلك •

وفيه الحوار الهادف إلى شرح الحقائق البعيدة التي من شأنها  
أن يغفل عنها ولا يفتن إليها •

وفيه تقريب تلك الحقائق بالتصوير البياني القائم على التشخيص  
المتضمن في استعارة تمثيلية دقيقة التركيب متقابلة العناصر في سياق  
الاستدراج أسلوبى للمخاطب نحو الاقرار بما لا يعلم من خلال قياسه  
على ما يعلم •

وفيه إيضاح مضمون تلك الاستعارة بتقرير مشتمل على عناصر  
حسية مبرزة دلالاتها راسمة هيئات الموصوفين وملاحظهم • وفيه التشبيه  
التمثيلي الهادف القائم على تصوير الصراع بين جانبيين متضادين •

(٢٤) ( الدهم ) : جمع أدهم وهو الأسود ، والدهمة السواد •  
وأما البهم : فقيل السود أيضا ، وقيل : ( البهم ) الذي لا يخالط لونا  
سواه سواء أكان أسود أو أبيض أو أحمر ، بل يكون لونه خالصا • ( وأنا  
فرطهم على الحوض ) معناه : أنا أتقسمهم على الحوض • يقال : فرط  
القوم إذا تقدمهم ليرتاد لهم الماء ويهيه لهم الدلا والرشا • ( أناديهم :  
ألا هلم ) : معناه : تعالوا تعالوا • ( سحقا سحقا ) مرتين ومعناه بعدا بعدا •

وفيه ربط الأحداث بأسبابها والصراع بنتائجه •  
 وفيه فضلا عن ذلك كله عناصر قصصية تدعو المتقن إلى المتابعة  
 وتنبع حاجة الفكر إلى المعرفة الكلية التي من خلالها تتضح المصائر  
 وتفسر الكثير من الظواهر •

وفيه أيضا تنوع الأسلوب خبرا وإنشاء ، والاحتواء على العناصر  
 المؤكدة مثل : ان ، وأن وقد التي سبقت الفعل الماضي ونون التوكيد  
 الثقيلة والتكرار ، واسمية الجملة في أكثر من موضع ، وفيه بيان الشأن  
 والمنزلة بالتثنية والقصر ، واطهار حسن النقيض باقتترانه بنقيضه  
 والعكس •

وفيه حسن التقسيم والجناس القوي الهادف ، والتدريج ، ودقة  
 الاستخدام اللغوي للألفاظ بما يوضح دلالاتها المحددة ودلالات الأسلوب  
 بوجه عام •

وهذا التنوع الأسلوبى الهادف المتسم بالكثير من الخصائص  
 البلاغية واللغوية المتنوعة لهو من أدق سبل المعالجة الأسلوبية المحكمة  
 لما عظم من القضايا وخفى من ضروب الفكر وأنماطه •

لذا فان الأساليب التي تعالج قضايا من هذا القبيل تتخذ من هذه  
 الوسائل سبلا لإيضاح مضامينها وبيان غاياتها •

فمن ذلك ما يتعلق بالصلاة من أمور وما يرتبط بأسسها من أسباب  
 وغايات تحتاج إلى ترسيخ في الفكر ، وتمكين في المشاعر بالترغيب  
 إليها ، وتقريب ما بعد من حقائقها ، والتفجير مما يتنافى وطبيعتها ، مما  
 يقتضى إيضاحه تنوعا أسلوبيا دقيقا ، واختيارا موفقا لعناصره وتراكيبه •

ومما تضمن ذلك من أساليب الحديث النبوي الشريف ما روى عن  
 جابر بن سمرّة قال خرج علينا رسول الله ﷺ فقال (٢٥) : «مالى أراكم

وافعى أيديكم كأنها أذنان خيلٍ شمس، اسكنوا فى الصلاة. قال:  
ثم خرج علينا فرأنا حلقاً فقال: ماى أراكم عزين؟ قال: ثم خرج علينا  
فقال: ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمنون  
الصفوف الأولى ويتراصون فى الصف» (٢٦) •

فهنا تتلاقى جميع هذه الصروب التعبيرية فى اطار واحد ايضا  
لتلك الأسس التى من شأنها أن تستقر فى الفكر وترسخ بهيئتها وقيمتها  
فى مجال النوعى والادراك لارتباطها بفريضة الصلاة •

فهذا الاستفهام الانكارى الذى وقع من الأسلوب فى محل  
الصدارة تعبيرا عن مأخذ لا يلائم موقف الصلاة وهيئات المصلين لهو من  
أهم الوسائل التعليمية التى تتضمن التوجيه والارشاد •

وهذا التشبيه التمثيلى الذى اقترن فيه حال هؤلاء الرافعين  
أيديهم على نحو معين بهيئة أذنان الخيل الشمس لهو وصف دقيق لتلك  
الحال وما يرتبط بها من الهيئات، وتعبير عما وراء ذلك من دلالات ترتبط  
بعدم اكتمال المعرفة بأمر الصلاة، وتعبير كذلك عن دقة توجيه النبى  
ﷺ وقدرته البلاغية الرفيعة على اثاره الانتباه، والمعالجة الهادفة،  
والتوجيه السديد •

(٢٦) شمس: باسكان الميم وضمها هى التى لا تستقر، بل تضطرب  
وتعترك بأذنانها وأرجلها، والمراد بالرفع المنهى عنه هنا رفعهم أيديهم  
عند السلام مشيرين الى السلام من الجانبين كما صرح بذلك فى رواية  
أخرى: « ما شأنكم تشيرون بأيديكم كأنها أذنان خيل شمس؟ » • اذا  
سلم أحدكم فليلتفت الى صاحبه ولا يومئ بيده • قرآنا حلقا بكسر الحاء  
وفتحها لفتان جمع حلقة باسكان اللام • عزين: متفرقين جماعة جماعة  
الواحدة (عزة) •

ولعل مما منح هذه الصورة البيانية الكثير من الدقة - فضلا عما سلف ذكره - دقة انتقاء الألفاظ الدالة ووضعها مواضعها من الأسلوب، واتباع الموصوف بصفته التي تبين حالا مخصوصة من بين أحوال محتملة متعددة ، مما يتضح في قوله ﷺ « كأنها أذنان خيل شمس » فوصف الخيل بالشمس بيان لاضطرابها وحركتها المتتابعة على غير نسق .

ثم ان اتباع هذه الصورة البيانية التي تضمنها ذلك الاستفهام الانكارى بأمر موجز متعلق بها في جملة : « اسكنوا في الصلاة » تمكين لدلالة الصورة ، وايضاح لمغزاها ، وبيان توجيهي لامر مهم يلتقى في رسوخ تام ودلالة الانكار والتصوير السابقين .

ومثل ذلك يقال فيما ورد بعده من استفهام انكارى آخر مرتبط بموقف ثانٍ من مواقف الصلاة وهو قوله ﷺ : « مالي أراكم عزيزين؟ » وما تبعه من تشبيه متضمن الكثير من الترغيب والارشاد في اطار هذا الربط المحكم بين حال اقامة المصلين من الناس للصف في صلاتهم وحال الملائكة حين يصفون عند ربهم سبحانه وتعالى .

واضافة الى ما تتضمنه هذه الصورة من ايحاءات تبتث الكثير من المشاعر في النفس ، وترسم الدقيق من الهيئات أمام العقل ، فان ورودها ضمن استفهام استدعى استفسارا ، ثم أتبع ببيان واضح لكيفية اتمام الصفوف الأول والتراص في الصفوف قد أتم دلالة التوجيه والارشاد ، وأوضح غاية جميع العناصر الأسلوبية التي ظلت تتكامل وتتام حتى أظهرت هذه الدقائق الوارد وصفها وجميع ما يرتبط بها من غايات مؤكدة قيمة واحدة ومجموعة في هيئة واحدة كذلك حيث أوضحت هذه المواقف وما يلازمها من صفات وملامح وهيئات .

ومن تنوع الأساليب والتقائق في الموقف الواحد كذلك أن يرد الأسلوب مشتتلا على مجموعة أجزاء على هيئة حوار متضمنا في مقدمته



تصويرا بيانيا واردا على هيئة ضرب المثل فى سياق أسلوب استفهامى يسترعى الانتباه الى معرفة مغزاه ، فاذا ما تمكن غرض ذلك الاستفهام بتطلع الذهن الى تلك المعرفة ورد جزء آخر مشتمل على المثل له وموضح مغزاه ومتمم مع سابقه هيئة واحدة لذلك الموقف المصور .

ومما تتضح فيه هذه الخصائص وغيرها فى مجال بيان فضل الصلاة ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (٢٧) : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات . هل يبقى من درنه ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

فقد تضمن هذا الأسلوب الكثير والمتنوع من الخصائص منها وضع هذا المثل المضروب فى مستهل الحديث وتصديره بما يلائم مضمونه من الفعل « رأيتم » المقترن بهمة الاستفهام ، ووضع الهيئة الكاملة للموصوف أمام العين فى اطار يوحى بالكثير من المعانى المتعلقة بالمجاورة فى « بباب أحدكم » والاستمرارية فى « يغتسل » والتكرار فى « كل يوم » والتحديد العددي الدقيق الذى يحمل دلالة يمكن استنباطها لارتباطها بالصلاة ، ثم ما تبع ذلك من استفهام مبنى عليه « هل يبقى من درنه ؟ ثم ما ورد من اقرار المخاطبين الذى يشكل تكرارا لفظيا تلقائيا لألفاظ ذاك الاستفهام ، ويشكل فى الوقت نفسه جزءا لغويا مهيئا لما بعده من بيان موضح لذلك الجزء السالف ذكره من المثل .

وإذا كان التصوير البيانى قد استوفى عناصره لدى قوله ﷺ : « فذلك مثل الصلوات الخمس » فان مغزى الصورة يأخذ طريقه للوضوح وعمق الدلالة حين يتبع هذا الجزء بما يتممه ويخرجه الى مجال

التشخيص الذى يجعله مدركا أمام الحس محقق الفائدة فى مجال الفكر والعقل وذلك فى « يمحو الله بهن الخطايا » .

وهذا الأسلوب ذو العناصر المتكاملة قد بلغ هذا الحد من التتمام والبيان بهذا التنوع الأسلوبى المتضمن جميع ما سلف ذكره مما يشكل فى عمومته تمهيدا فكريا ونفسيا وتنوعا لغويا بين الخبر والانشاء والتقدير والتصوير والانتهاه ببيان للغاية من التمثيل وايضاح قيمته .

وكما أن تنوع الأسلوب يقوم على هذا الضرب من ضروب التعبير فإنه يقوم على نحو آخر قريب من ذلك مع تفاوت فى بعض الوجوه ، حيث يتجه التعبير الى جمع أطراف المعنى بين جانبيين منحصرين فى اطار تتركز داخله الفكرة كالقصر وما اليه مما يشعر بأن المعنى قد تم واستوفى حقه من التعبير ، فإذا به يتبع بجزء شارح لبعض جوانبه ، واضعا أمام العقل حقيقة واقعية ثابتة يمكنه ادراكها وتأملها والتوقف لديها بغرض استيعابها فى ضوء الحقيقة السابقة مستشعرا اتمام المعنى أيضا لدى هذه المعانى الكلية . غير أن الأسلوب لا يتوقف وإنما يعود ليتخذ من حصيلة المعنيين السابقين طرفا فى تمثيل عام يوضح مغزى هاما ، وقيمة فكرية معينة لا تتضح الا فى ضوء هذا التمثيل البيانى الذى يخرج المعانى فى صورة ملموسة تزيدها قربا الى المجالين الفكرى والشعورى .

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ (٢٨) : « ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل

تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا ان شئتم :  
 « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ... » وفي روايه :  
 « كما تتنجون الابل ، فهل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا انتم  
 تجدعونها ؟ » (٢٩) •

فقد أتبع القصر بشرح يوضحه ثم ورد التمثيل المستمد عناصره  
 من الواقع الحسى الملموس فى اطار تنوع يبين ضروب الخبر والانشاء  
 والتقدير والتمثيل والتفصيل بعد الايجاز •

ويقوم التنوع الأسلوبى فى هذا المجال — الى جانب ما سبق —  
 على ضرب من التدرج من العام الى الخاص ببيان فضل عام أولا يتلوه  
 بيان فضل خاص لبعض ما يشتمل عليه سابقه ثم بيان فضل الأخص  
 مما اشتمل عليه جميع ما سبق •

والذى يتأمل ذلك الأسلوب يجد نفسه أمام مجموعة من الأساليب  
 البيانية ذات العلاقات المترابطة فى هذا الاطار المحكم ، ويجد جميع  
 الجزئيات ساعية الى بيان جوانب التميز فى الأوصوفات ، ويوجد اللغة  
 مصطبغة باستعمال معين وقد ترابطت معنويا ولفظيا باستخدام الكثير  
 من أدوات العطف والتشبيه والتأكيد والألفاظ المتضادة والعناصر  
 الشارحة وغيرها •

ومن الأمثلة التى توضح ذلك ما روى عن أبى أمامة الباهلى قال :  
 سمعت رسول الله ﷺ يقول (٣٠) : اقرءوا القرآن فانه يأتى يوم القيامة

(٢٩) جمعاء مجتمعة الاعضاء سليمة من النقص ، جدعاء : مقطوعة

الاذن أو غيرها من الاعضاء •

(٣٠) صحيح مسلم : ٤٥٧/٢ •

شفيهما لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فانهما  
تأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان  
من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فان أخذها  
بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة • قال معاوية : بلغنى أن  
البطلة السحرة •

فبالنظر الى الأقسام الأسلوبية الواردة هنا يمكن ملاحظة ثلاثة  
أقسام واضحة تتتالى على نحو متدرج من العام الى الخاص لبتداء  
بقوله ﷺ : « اقرءوا القرآن ••• » وانتقالا الى : « اقرءوا الزهراوين  
البقرة وسورة آل عمران ••• » وانتهاء بـ : « اقرءوا سورة  
البقرة ••• » •

ويتأمل كل قسم على حدة نجد تنوعا أسلوبيا من نوع آخر يشتمل  
فيه القسم الأول على بيان سبب فضل القراءة حيث « يأتى يوم القيامة  
شفيهما لأصحابه » ، والثانى - الى جانب بيان الفضل أيضا - على  
تنوع عناصر التشبيه تنوعا دقيق الاختيار لعناصره وقد ارتبط كل واحد  
منها بأخر بأداة العطف « أو » بيانا وتقريبا لحقيقة غيبية ووضعها  
لصورتها أمام العقل لتدخل من خلال الفكر الى مجال الإدراك والرؤية  
الحسية •

( الغمامة والغياية ) : كل شيء أظلم الانسان فوق رأسه من سحابة  
وغيره وغيرها •

قال العلماء : المراد أن ثوابهما يأتى كغمامتين • ( فرقسان من طير  
صواف ) : الفرقان بكسر الفاء واسكان الراء قطيعان وجماعتان ، يقال  
ضى الواحد : فرّق أى جماعة •

فهما تأتيان يوم القيامة كأنهما « غمامتان » « أو غيايتان »  
 « أو كأنهما فرقان من طير صواف » ، وزيادة فى بيان ذلك الفضل فانهما  
 « تحاجان عن أصحابهما » .

أما القسم الثالث فانه خصص سورة البقرة بالذكر بعد أن تضمنها  
 ما سبق سواء أكان فى القسم الأول على سبيل الاجمال أو الثانى على  
 سبيل التفصيل والتعيين ، وقد اشتمل هذا الجزء على تعبير تقريرى  
 واضح متنوع العناصر مشتمل على ثلاثة أقسام داخلية كل منها يؤكد  
 الآخر ويوضحه ، فالأول « أخذها بركة » ونقيضه الذى يؤكد ويوضحه  
 وهو الثانى « وتركها حسرة » وتأكيدا لمغزى ذلك كله ورد القسم الثالث  
 « ولا تستطيعها البطلة » .

وبالنظر الى ما تضمنه الأسلوب من عناصر الربط والتأكيد ، نجد  
 الى جانب اشتماله على الانتقال من العام الى الخاص مما يتضمن اطنابا  
 مؤكدا للمعانى وموضحا أبعادها ، أنه قد تضمن الكثير من العناصر  
 اللغوية الرابطة بين هذه الأقسام الأسلوبية العامة وما تضمنته من  
 الجزئيات .

من ذلك استهلال كل قسم بالفعل « اقرعوا » واتباع ذلك بما يفيد  
 ورود ذكر سببه بعده فى « فانه » تارة و « فانها » تارة ثانية و « فان »  
 تارة ثالثة ، وفى ذلك تأكيد بال تكرار تارة ، وتأكيد بالألفاظ المؤكدة فى  
 ذاتها تارة أخرى ، وربط بين أجزاء الكلام باعادة بعض عناصره على  
 الملقى بشكل منتظم تارة ثالثة .

وكذلك الحال فى تكرار « يأتى » و « يوم القيامة » و « سورة »  
 و « البقرة » وحرف العطف « أو » وغير ذلك كواو الجماعة ، و « ألف »  
 الاثنتين ، والضمير « هما » ولفظ « كأن » .

وكذلك يجد الأسلوب التقاء صوتيا يعين ألفاظه عن طريق ترديد جرس بعض الألفاظ بشكل منتظم له وقع في النفس والأذن تمثيلا مع ما يدل عليه من المعانى ، فالى جانب تواجد ذلك فى الألفاظ المكررة التى سنف ذكرها ، فهو يتواجد فى تلك الألفاظ ذات الأوزان المكررة مثل « غامتان » و « غيايتان » وكذلك « أخذها » و « تركها » .

وهكذا ورد الأسلوب متنوع العناصر متنوع طرق التعبير ملتقى العناصر داخل مجال معنوى واحد ترابطت فيه جميع هذه الجزئيات لتؤدى وظائفها وأغراضها المتعددة .

ومن هنا يمكن ادراك ما لتتوع أساليب التعبير الدائرة فى مجال فكرى واحد من فضل فى بيان ما تعبر عنه من المعانى ، وتأكيد ما تهدف الى ايضاحه وإبرازه من المضامين الهامة تأكيدا يقوم على لباس الفكرة الواحدة ذات الجوانب المتعددة مظاهر تعبيرية متنوعة يسهم كل منها فى عرضها على العقل والنفس بشكل يجدد النظر اليها وتأملها ، ويفتح مجالات التأثر بها والتفكير فيها حتى تنفذ من خلال ذلك كله الى مجالات فكرية وشعورية ترسخ بها وتستقر فيها واضحة السمات والملامح .

## الفصل السابع

### تقابل عناصر الأسلوب البياني والتقاؤها

ومن أكثر الخصائص النعوية والبلاغية دقة في هذا المجال ارتكاز الأسلوب البياني على دعامتين من دعائم اظهار المعانى وابرازها فى شكل محكم أنتم الاحكام حيث يلتقى فيه النقيضان اللذان يمثلان جانبين متقابلين فى اطار بياني دقيق تبرز من خلاله الفكرة الواحدة مصحوبة بمؤكداتها وبراهينها وعوامل تميزها •

ومرجع ذلك الى جانبين اثنين ، أما أحدهما فكون الأسلوب مشتملا على جانب التقابل الأسلوبى الذى لا يخفى ماله من تميز وفضل فى بيان حسن النقيض ببيان سوء نقيضه مما هو معروف فى علم البديع •

وأما الثانى فكونه مشتملا على التصوير البيانى الذى يضع المعانى فى اطار أسلوبى مخصوص تتجسد فيه هذه المعانى أو تشخص فتصير قريبة معروفة بعد أن كانت كامنة فى اطار بعيد غير مدرك أو ما الى ذلك مما يضيفه الأسلوب البيانى بما يشتمل عليه من خصائص بلاغية متنوعة يجمعها تقريب البعيد واطهار الغامض وايضاح الخفى مما له آثاره الكثيرة فى النفس والعقل والادراك الحسى •

وإذا كان هذان الجانبان يمثلان مرجعين ومنطلقين للأسلوب البيانى فى هذا المجال ، فإن هذا الأسلوب يستمد من منطلقاته اللغوية والبلاغية الأخرى العديد من الخصائص التى تميزه وتجعله محققا من الغايات مالا يحققه غيره من الأساليب •

وتتنوع هذه الخصائص اللغوية والبلاغية بتنوع مجالات الفكر وقضاياها .

فحين يكون التعبير قائما على تصوير الفرق الفاصل بين نقيضين يصدران في تناقضهما عن تناقض ما يسببهما من الأمور ، فإن الأسلوب يرد مشتملا على ذكر الأسباب والنتائج مقترنة باطار من التمثيل الموجز الذى يجمع كلا الجانبين جمعا تقضح عبره وجوه التباين بينهما .

ومن ذلك ما روى عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال (١) : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت » فالى جانب ما سلف ذكره من أسس يقوم عليها هذا النوع من الأساليب البيانية البديعية فانه الكثير من الخصائص اللغوية والبلاغية التى اصطبغ بها التعبير هنا قد حققت غايته وأظهرت أبعاد ما ينطوى عليه من قضايا فكرية .

من هذه الخصائص الايجاز مع الوضوح ، وجمع النقيضين مع البدء بالأهم وتصديرهما بكلمة مثل التى توضح كونهما ممثلين معا ركنا واحدا من أركان صورة تشبيهية واحدة كذلك مماله آثاره العقلية فى تتبع المعانى سعيا وراء اكتمال وحدة هذه الصورة ذات العناصر المتقابلة .

ومنها كون الجمع بين هذين النقيضين قائما على الاثبات والنفى من جهة ، والربط بالواو من جهة أخرى . ومنها قيام التماثل الذى تتضمنه الصورة البيانية ذات العناصر المتقابلة على قوة انتقاء ما يؤدى

(١) صحيح مسلم : ٤٣٧/٢ .



مغزى الأسلوب ويوضحه فى جانب المشبه به ذى الجانبين المتضادين تضادا يلائم سابقه حيث يبين الفيصل الواضح بين هذين الجانبين واضعا لفظتى « الحى والميت » بكل ما تشتملان عليه من سمات التضاد والاختلاف أمام الفكر ، فاتحا مجالاته المتعددة وآفاقه الواسعة لينفذ من خلالها الى تحقيق الغاية التى يرمى اليها هذا التعبير فى اطار من التأثير والمعالجة .

ومنها كون هذا الأسلوب مكثفيا بهذا التركيز اللغوى ومستغنيا عن التعليق حيث يفتح ذلك مجالات لاطلاق المعانى وسعة الفكر كما سلف ذكره من جهة ، ولكون الأمر فى غنى عن الايضاح حيث لا خفاء ولا اغلاق يستدعى الشرح والتفصيل من جهة ثانية .

وفى اطار من الربط المحكم بين الصفات المتضادة يجد الأسلوب العديد من خصائص التميز ، حيث يجمع جانبين لقضية واحدة فى اطار من التصوير البيانى لكلا الجانبين المتضادين الملتقيين مما يظهر الفاصلة الدقيقة بينهما .

ويرجع فضل هذه الخصائص الى كونها تقوم بايضاح الفروق الدقيقة بين ما يبدو متحدا ومتماثلا فى الظاهر توضيحا يبين فضل بعض جوانبه على بعض وما بينها من وجوه التباين مما لم يكن معروفا من قبل .

ومن هذا القبيل ما روى عن عقبه بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (٢) : « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرُّ بالقرآن كالسِرُّ بالصدقة » .

(٢) الترمذى : ٢٥٢/٤ .

فمن خلال هذا التعبير البياني الذي التقت عبره صفتا الجاهر والمسر بالقراءة من جهة ، والجاهر والمسر بالصدقة من جهة ثانية ، ارتبطت الأولى في الجانب الأول بالأولى في الجانب الثاني والثانية بالثانية ، ليتضح فضل الثانية على الأولى « لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية .. لأن الذي يسر بالعمل لا يخاف عليه بالعجب ما يخاف عليه في العلانية » (٣) .

ولقد تميز هذا الأسلوب بما تميز به سابقه من إيجاز ووضوح وقوة دلالة مع اكتفاء بذلك عن التفصيل والشرح .

أما حين يتعلق التصوير بجوانب متعددة للمتضادين يحتاج الفكر في بيانها إلى تحديد وجوه التشبيه بين العناصر المتماثلة ، وإيضاح وجوه الاختلاف بين الجوانب المتضادة فإن التعبير يتخذ طريقه إلى الشرح والتفصيل وتحديد تلك الوجوه وهذه الجوانب تحديدا واضحا .

ومن الاتجاهات البلاغية لهذا الأسلوب البدء بالجمع بين النقيضين في إطار صورة بيانية ثم الانتقال بعد ذلك إلى بيان أهوال كل منهما .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال (٤) : «انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فعامل المسك أما يجذبك وأما أن تبتاع منه ، وأما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير أما أن يحرق ثيابك ، وأما أن تجد منه ريحا خبيثة » .

(٣) نفسه .

(٤) صحيح : ٤٨٤/٥ .

فاجتماع هذين النقيضين ( الجليس الصالح والجليس السوء ) فى إطار لغوي واحد والجمع بينهما بواو العطف وتصديرهما بما يفيد القصر ثم العمد الى التمثيل « انما - ومثل » ثم اتباع ذلك بما يتعلق به من تفاصيل اخراج للفكرة فى إطار متميز يوحى بالكثير من الدلالات والخصائص .

فهو من جهة قصر معبر عن كون الطرف الثانى من التمثيل أى المشبه به مقصودا اليه قصدا بحيث لا يمكن أن يحل محله بديل آخر وهذا تمكين لعناصر الصورة البيانية التى تحمل دلالات محددة تجمع بين جميع أطرافها .

ومن جهة أخرى فان هذا التقابل السائر على نسق واضح مميز بين الطرفين الأول وما يشتمل عليه من نقيضين والمطرف الثانى وما يشتمل عليه كذلك من نقيضين يرتبطان بسابقيهما فى إطار من القصر والتمثيل بـ « مثل » ثم « الكاف » تثبيت لهيئة المشبه والمشبه به فى كلا الحالىين وايضاح لخالتيهما مما يستدعى التفكير فى تفاصيل تلك الهيئة وهذه الحال ومحاولة استنباط وجوه الشبه بينهما مع وضوحها مبدئيا من خلال اقتران كل منهما بنقيضه من جهة ومثيله من جهة أخرى .

ومن جهة ثالثة فان اتباع ذلك بتفصيل وجوه الشبه فى كلا الحالىين تفصيلا محددًا ومشملا على بيان جميع أحوال الموصوف بحيث لا يدع احتمالا من وجوه الوصف غير ما ذكر يعد ضريبا من التحديد والاستقصاء الدقيق ، وسيلا واضحا للمعالجة والبيان الواضعين للصورة فى إطار فكري يحلها محلها الثابت من العقل والنفوس والخيال .

ومن جهة رابعة فان اجتماع جميع هذه العناصر على هذا النحو يمنحها صفة التميز والتجدد فى الذاكرة لما تستدعيه أواقف المتعددة من معانيها وتستهلمه من دلالاتها .

ويتخذ هذا النمط الأسلوبى فى الحديث الشريف اتجاها آخر من خلال بيان الأحوال المتعددة للموصوف الواحد مستقلة قبل ذكر ما يضافه ثم الانتقال بعد تفصيل هذه الأحوال الى نقيضه وتفصيل القول فيه كذلك .

ومن أمثاله ما روى عن ابراهيم بن كعب بن مالك عن أبيه كعب قال :  
قال رسول الله ﷺ (٥) :

« مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح ، تصرعها مرة وتعدلها أخرى حتى تهيج ، ومثل الكافر كمثل الأرزوة المجذية على أصلها ، لا يفيئها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة » .

وفى رواية (٦) : عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ : « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الرياح تُفِيئُهُ ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد » .

فهنا نجد الفصل بين المتضادين من جهة والجمع بينهما من جهة أخرى ، مما يشتمل على الكثير من الميزات الأسلوبية والبلاغية التى تضم المضمون موضعه من الوضوح وقوة الدلالة ودقة المعالجة .

أما فصلهما فهو ما سلفت الاشارة اليه حيث استهل ببيان حال أحدهما وتفصيل ما يتعلق به قبل الانتقال الى نقيضه .

(٥) صحيح مسلم : ٦٧٥/٥ . الخامة : الطاقة والقصبه اللينة من الزرع وألفها منقلبة عن واو . أما تميلها وتفيئها فعنى واحد ، ومعناه : تقلبها الريح يمينا وشمالا . ومعنى تصرعها : تخفضها ، وتعديلها بفتح التاء وكسر الدال ، ومعنى تهيج : تيبس .  
(٦) الترمذى : ٢٢٧/٤ .

وفى تقديمه على هذا النحو المستقل بيان لفضله وسمو شأنه  
ورفعته عن أن يدمج مع ما هو أقل منه شأنًا ليأخذ فرصته للوضوح  
وببيان تلك المكانة المستقلة .

وأما الجمع بينهما فى سياق أسلوبى واحد ارتبطا فيه بهواو العطف  
من جهة ، وبكونهما نقيضين من جهة أخرى ، ويتصوير حال كليهما  
وما يترتب عليه من دلالات من جهة ثالثة ففيه بيان لما بينهما من فروق  
فاصلة ، وتباين تام .

وفيه فضلا عن ذلك معالجة شاملة لجميع ما يتعلق بحالتهما من أمور  
مما له تأثيره المزدوج اقناعا للعقل وارضاء للمشاعر .

وفى الأسلوب بوجه عام — الى جانب ذلك — قوة تركيز المعانى  
بمنحها صورة حسية ثابتة أمام الادراك مما يثرى دلالاتها ويقوى تعلقها  
بالذاكرة ويقرب قيمتها المعنوية الى العقل .

ومن خلال اتجاه أسلوبى آخر نجد تصوير المتضادين وبيان الفروق  
بينهما يتخذ غير ذلك من خصائص التميز اللغوية والبلاغية .

فحين يشترك المتضادان فى وصف خارجى واحد مع اختلاف  
جوهرى بينهما ، فان بيانهما يأخذ طريقه للتعبير البيانى المتدرج فى ايضاح  
الفكرة متجاوزا مجرد تصوير النقيضين الى تصوير ما بينهما من درجات  
تقوى لديها صفة أحد هذين الطرفين أو تضعف ، تصويرا يضع أيدي  
المتلقين على حقيقة كل من هذه الأطراف المذكورة ، ويخرج فى نهاية  
الأمر النقيضين اللذين يمثلان طرفى الفكرة فى اطار بارز من الوضوح  
وببيان الفوارق الفاصلة .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الأسلوبى ما روى عن أنس عن أبى موسى الأشعري قال (٧) : قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ريحها مر وطعمها مر » .

فهنا يجد الأسلوب هذا البسط التفصيلى لدرجات متفاوتة بين الموصوفات التى تتحد اتحادا خارجيا فى بعض الصفات مع تفاوت جوهرى بينها ينم عن تناقضها التام ذى الوجوه المتعددة ، فمن جهة يوجد تضاد واضح بين المؤمن والمنافق ، ومن جهة أخرى يوجد تضاد آخر بين قراءة القرآن وعدم القراءة .

أما التلقى الظاهرى فى الصفات فيتضح من خلال ذلك التماثل الخارجى فى القراءة بين المؤمن والمنافق مع اختلاف الحقيقة فى الحالىين .

لذا تواجدت مجموعة من الدرجات التى صار ايضاح ووضع الفواصل بينها من الأمور التى تتطلب دقة أسلوبية وقدرة لغوية معينة فورد الأسلوب على هذه الشاكلة التى أبرزت كلا من درجات الوصف إبرازا يحلها محلها المعنوى والدلالى الذى لا تلتبس غيره بما سبقها أو لحقها بل تستقل بذاتها من جهة ، ويظهر فى ضوئها الفروق الدلالية بينها وبين ما دنا منها أو علا فوقها من جهة ثانية على هذا النحو التمثيلى الذى أخذ طريقه الى تفصيل وجوه الشبه ايضاها لهذه الفوارق الدقيقة .

وتظهر البساطة في طريقة التعبير وينتصع فنتله بقدر ما يكسور  
الموقف دقيقاً والفروق خفية بعيدة •

ومن ذلك ما تشتمل عليه أحوال النفس من انفعالات وسمات تتضاد  
أحياناً وتلتقى في ثمائل أو تقارب أحياناً أخرى مما يمكن أن يستشعر  
داخلياً ويصعب التعبير عنه في الغالب •

وحين ينتجه الأسلوب البياني في الحديث الشريف إلى معالجة تلك  
الجوانب فإنه يقدم نسفاً خاصاً من طرق التعبير البلاغى التى تتضمن  
الكثير من خصائص البيان ووسائل الكشف عن حقائق ذلك العالم الخفى  
من غوامض النفس البشرية •

ومما يعترى النفس من انفعالات وأحوال متضادة القناعة والطمع ،  
والرضا والغضب ، والفرح والحزن ، وغيرها مما يصعب وصفه وتحديد  
درجة قوته أو ضعفه مما يتطلب تعبيراً دقيقاً فى إيضاحه ، وعمداً إلى  
التمثيل له بما يشابهه أو يدانيه لعله يخرج من الخفاء إلى الظهور ،  
ومن الغموض إلى الوضوح •

ومما يتميز به أسلوب الحديث النبوى فى هذا المجال ربط الصورة  
البيانية التى تعالج أحوال النفس وتوضحها بتجربة عملية تسهم فى  
تعميقها وتريد من سمات ظهورها مما تتحقق من خلاله غايات التعبير  
المتعددة •

ومن أمثلة هذا الضرب من التعبير تصوير صفتى القناعة والطمع  
وما يترتب على كليهما من أمور ويرتبط بهما من مظاهر تصويراً بيانياً هادماً  
ومنه ما روى عن حكيم بن حزام قال (٨) : سألت النبى ﷺ : فأعطانى،

(٨) صحيح مسلم : ٧٥/٣ •

ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «ان هذا المال خضرة حلوّة ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

وهكذا تم بيان الصفتين المذكورتين بجلاء ، وتم للمعالجة اللغوية الاكتمال ، كما تم تحقيق غايات الأسلوب من التأثير والاقناع والتوجيه . وقد تحقق جميع ذلك من خلال اجتماع تلك الخصائص اللغوية والبلاغية التى تميز بها هذا الأسلوب ، حيث اجتمع فيه الربط بين المضمون الفكرى والتجربة الواقعية المرتبطة بشخصية الراوى مما يؤكد هذا المضمون ويوضحه ويجعله قريبا مفهوم المغزى .

كما اجتمع فيه اتحاد الفعل مع تناقض الوصف ، فالصفتان المتضادتان «الأخذ بطيب نفس» و «الأخذ باشراف نفس» مع ما يترتب عليهما من أمور متضادة كذلك تلتقى جميعها فى اتحاد ظاهرى لفعل واحد وهو الأخذ ، فالوصوف فى الحالين آخذ للمال مع اختلاف المنطلق والصفة والشعور .

كما اجتمع فى تصوير المال بما ينطوى عليه ذكره من اشارة الى رغبة النفوس فيه والميل اليه والحرص عليه - الوجود والزوال « لان الخضروات لا تبقى ولا تتراد للبقاء » (٩) .

ثم اجتمع فى تصوير الأخذ باشراف نفس نقيضان كذلك هما الأخذ مع عدم القناعة فى جانب والأكل مع عدم الشبع فى جانب آخر . وشبه الأول بالثانى ببياننا لحاله وايضا لصفته وأخيرا اجتمع فى نهاية الحديث الشريف ذكر موصوفين متضادين موضحين مغزى ما سبق ومؤكدين له وهما « اليد العليا واليد السفلى » .



ومن خلال تنوع الأساليب البيانية في هذا المجال ايجازا واطنابا،  
إشارة وتفصيلا ، نجد ضربا من الاتجاه الى تصوير دوافع النفس وما  
تتسم به من سمات متضادة ينفذ للتصوير. عجزه من الصفة النفسية التي  
ما وراءها من المصادر والمنطقات مصورا قوة تأثيرها في تلك الصفة وما  
ي صاحبها من المظاهر الخلقية الملازمة لها .

ومن الواضح أن طبيعة هذه الدوافع وتلك المنطقات أدق خفاء  
وأبعد غموضا من غيرها مما يتطلب ضربا أسلوبيا خاصا يخرجها الى مجال  
الادراك والاستيعاب .

وهنا نجد الأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف يسوق  
هذه الدوافع وما يرتبط بها من مصادر ومنطقات مقترنة بما ينفر منها  
أو يرغب فيها من الصور الحسية التي تحمل طاقات شعورية مؤثرة في  
المتلقى تأثيرات متعددة تعينه على الانفعال بها وتخيلها وادراكها وبغضها  
أو الاقبال عليها ، وتضع أمام عينيه هيئة يستطيع أن يتأملها كلما علقته  
لذاكرته بموقف يستدعيها حتى تتحقق لديه من خلال هذه الهيئة المدركة  
وذلك الشعور المحسوس غايات الصورة نفسيا وشعوريا وفكريا .

ومن أمثلة ذلك تصوير حالي البخيل والمتصدق فيما رواه الأعرج عن  
أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (١٠) :

« مثل المنفق والمتصدق كمثل رجل عليه 'جبَّتَانِ أو 'جنتان من  
لادن 'تُدِّيهِمَا الى تراقبيهما ، فاذا أراد المنفق » وفي رواية : « فاذا أراد

(١٠) صحيح مسلم ٥٨/٣ ، ٦٠ ، وصحيح البخارى ٣٣٩/٣٤٠ .

وقد مر ذكر هذا الحديث في « الأساليب البيانية في الحديث النبوي  
الشريف وخصائصها » من هذا البحث .

المخصدق) أن يتصدق سبغت عليه أو مرّت وإذا أراد البخيل أن ينفق قلصت عليه وأخذت كل حلقة موضعها حتى تُجنّ بنانه وتعفو أثره •  
قال : فقال أبو هريرة فقال : يوسعها فلا تتسع » •

فمن خلال هذا التشبيه التمثيلي الدقيق لكلا الحالين ، ومن خلال تقابلهما المبني على تضاد جميع عناصر التصوير البياني ومنطقاته ، ومن خلال اكتمال الهيئتين شعوريا وحسيا حقق الأسلوب جميع غاياته وترك ظلالة الدائمة في جميع المواقف والأحوال التي تستدعيه •

وعبر قوة تركيز الأسلوب واحتوائه على مجموعات متعدّدة من الطاقات الدلالية في هذا المجال يجد المتأمّن ضيما من التعبير البياني الموجز الذي يترك فكرة التضاد بين مجالين متقابلين مختلفين الى فكرة التضاد في المجال الواحد متخذًا نهجا فكريا متميزا ينبه من خلاله الاذهان ويجذب الأنظار الى ما يتغافل عنه من حقائق التناقض في الذات الواحدة التي قد لا يظن وجودها بها •

ومن أمثلة هذا الاتجاه الأسلوبى ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال (١١) : مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير الى هذه مرة وإلى هذه مرة » •

وقد تميز الأسلوب هنا بالاكتماء بصورة بيانية واحدة صور بها حال ذلك الموصوف الواحد الذى تضمن حالين متضادين ، كما تميز بقوة بيان هذين الحالين من خلال اتباع الاجمال بالتفصيل الذى وضحه متضمنا رسم هيئته وحركته وصفته النفسية •

(١١) صحيح مسلم : ٦٥٣/٥ • العائرة : المترددة العائرة لا تهرى

لايها تتبع ، ومعنى تعير : أى تردد وتذهب ،

ومن الاتجاهات الأسلوبية التي يركز عليها التعبير من خلال التصوير البياني من جهة وانتزاع المائل في موصوف واحد من جهة أخرى اتجاه آخر ، لا تكون الصفات المتضادتان المذكورتان فيه مما يجتمع في آن واحد ، بل تكونان من الصفات التي يمكن أن يتصف بها ذلك الموصوف ، ولا يخالو حاله من أن يكون متصفاً بواحدة منهما •

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (١٢) : « انما مثل صاحب القرآن كمثل الابل المعقولة، ان عاهد عليها أمسكها ، وان أطلقها ذهبت » وفي رواية عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال (١٣) : « تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده، لهو أشدّ تغلُّباً من الابل في عقولها » •

ومن خلال هذه النماذج التي تعد مجرد بعض من كل عظيم القيمة متعدد الخصائص يمكن ادراك ما لاجتماع جانبي التصوير والمقابلة القائمة على تضاد عناصر جانبي القضية الواحدة من أهمية في ابراز الأفكار التي يعالجها الأسلوب على نحو واضح • وإذا ما أشركت هذه الحقيقة في ضوء ما للأسلوب من خصائص لغوية وتلاغية متنوعة كما سبق ايضاحه أمكن التعرف على مجموعة من الميزات التي يختص بهذا الأسلوب النبوي الشريف في هذا المجال •

## الفصل الثامن

### بناء الصور البيانية وتكامل عناصرها

ترد التراكيب البلاغية للصور البيانية فى الحديث الشريف متنوعة ومتعددة وفقا لما تعبر عنه من المضامين وتعالجه من المواقف وتهدف الى تحقيقه من الغايات .

ومن خلال هذه المنطلقات تتخذ الصور البيانية أشكالها البلاغية المختلفة ، وأوضاعها الأسلوبية المتميزة التى تستطيع عبرها تصوير الحقائق الفكرية المجردة وتحديد معالم المعانى المهمة التى لا يستطيع العقل ادراكها وتصورها الا بعد تأمل تلك التراكيب وفهم ما تتضمنه من مجالات وتدور فى فلكه من القضايا .

وحين يتأمل الدارس التراكيب البلاغية للأسلوب البيانى فى الحديث النبوى الشريف محاولا حصر أشكال تلك التراكيب أو الامام بمجموعات متماثلة تشكل ظواهر بارزة فيه ، فإنه يجد كما ضخما من هذه التراكيب المتنوعة فى خصائصها والمتعددة فى أشكالها وسماتها .

ويقوم تنوع هذه التراكيب وتنوع خصائصها وآثارها على تنوع مواضع ما تشتمل عليه من العناصر وفقا لما يدل عليه كل عنصر فى موضعه من الدلالات ويرتبط به من مجالات التأثير .

ويقوم أيضا على تنوع ما تشتمل عليه من ركائز بيان المعنى وتحقيق الغرض سواء أكان ذلك متصلا بالألفاظ أم بالوسائل البيانية المساعدة على تحديد المضمون وتجسيد الفكرة كالجوانب الخيالية أو العناصر الحسية أو ما يتصل بعوامل التأثير الشعورى المتنوعة .

والذى تجدر ملاحظته فى جميع مجالات التصوير وطرائقه أن الصورة البيانية - تركيبيا وأسلوبيا وخصائص - هى كل لا يتجزأ ، فمهما اتخذت من الأوضاع ، واشتملت عليه من العناصر ، وعبرت عنه من القضايا والمجالات ، فهى فى كل حال وحدة كلية لا يمكن تجزئتها أو تفكيك عناصرها أو ابعاد بعض جوانبها عن البعض الآخر .

لذا فإنه يمكن القول بأن النظرة الى الصورة البيانية القائمة على التعبير البلاغى الجزئى كالتشبيه أو الاستعارة أو الكناية لا يمكن أن تكون نظرة مكتملة الجوانب والظلال الا اذا تمت فى ضوء النظرة الشاملة لما وردت ضمنه تلك الصور الجزئية من أساليب وارتبطت به من المواقف ، وصدرت عنه من التجارب ، وسعت الى تحقيقه من الغايات .

وهذه العلاقات الوطيدة هى التى تشكل النمط وتحدد الهيئته الأسلوبية التى يرد عليها التصوير البلاغى مما يدعو الى القول بأن بعض الصور تتسم بسمات لا تتسم بها غيرها وبعضها الآخر يختص بسمات أخرى لا ترد فيما عداها .

لذا أمكن تصنيف الصور البيانية فى الحديث النبوى الشريف فى هذا المجال تصنيفا لا يقوم على تفكيك العناصر أو ابعاد الكل عن الجزء أو العكس ، بل يقوم على ما تتسم به مجموعات الصور المتقاربة فى خصائصها من سمات متقاربة كذلك من خلال ارتكازها على عناصر أو وسائل تعبيرية تجمعها سمة كلية واحدة .

وكذلك من خلال الارتكاز على بعض جوانب ابراز الدلالة والغاية كتقديم بعض أجزاء الصورة على بعض أو استخدام بعض الأساليب الهيئية لادراك المعنى وفهم المضمون أو المؤثرة تأثيرا معينا مبرزاً

مكانة بعض الجوانب على بعض أو غير ذلك من المقاييس التي يتم من خلالها تصنيف هذه الصور والتعرف على خصائصها .

ويقوم بناء الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف على جانبين متكاملين ، أما أحدهما فهو تقديم الوسائل التي تؤدي المعنى وتعالج المضمون ويتحقق من خلالها نقل الفكرة التي السامع في اطار متعدد الوظائف ، وأما الآخر فهو العناية بالمتلقي فكريا وشعوريا وحسيا حتى يؤتي الأسلوب ثماره فيفهمه مالم يفهم ويقرب اليه مالم يدرك ، ويشعره بما جمدت مشاعره ازاءه ، ويخرج اليه كوا من المعانى التي لم يعلم من أمرها الا ما ظهر أو 'أجمل' .

وبناء على ذلك وردت الصور البيانية في الحديث النبوي الشريف ضمن أساليب قائمة على دقة اختيار عناصرها بما يناسب هذين الحالين معا ، طبيعة المعنى وما يدور في اطاره من أفكار وقضايا ، وطبيعة المتلقين وما يلائم عقولهم ومشاعرهم من جهة أخرى ، مع التميز التام بصفة تجريد جميع هذه الجوانب لتصلح للمعالجة العامة الدائمة دون توقف لدى مكان أو عصر .

لذا كان من الضروري قيام الدراسة في هذا المجال على تأمل هذه الجوانب جميعها ، وابراز قيمة الجانبين اللذين يمثلان محوري الأسلوب مما سلف ذكره ، واستنباط ما يتسم به كلاهما من خصائص وسمات مميزة .

وهنا يجد المتأمل مجموعة من الاتجاهات التي يجمع كل منها بدوره مجموعة من الخصائص والسمات التي تشتمل عليها الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف .

منها تقسيم الأسلوب الى مجموعة من الأقسام ، كل منها يقوم بأداء معنى مستقل يمكن التوقف لديه وفهمه فهما يمثل مرحلة من مراحل

بناء المعنى العام • ثم بناء هذه الأقسام بعضها على بعض فى ترتيب متكامل العناصر ، يبنى فيه اللاحق على السابق ، ويوضح فيه كل الآخر ، فى تقريب للفكرة شيئاً فشيئاً حتى تصير من المفهم المجمل الى الايجاز المفصل ، حسياً وشعورياً وفكرياً ، فيكون لها من الثبوت فى الذاكرة والشعور ما ينشأ عن قوة تقديمها اليهما ، واحكام تمكينها فيهما •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان هذا الاتجاه يتميز بكون الصورة البيانية قائمة على عناصر منتقاة من بين ما يمكن تصور نموه أو تصاعده لو تدرجه، وبناء بعضه على بعض من العناصر التى تمثل المعنى فى جميع جوانبه الجزئية المترابطة فى شكل حلقات متصلة ، أو لبنات متصاعدة القوى ، لترسم فى نهاية الأمر الشكل الكلى العام الذى تتصاعد وتنمو معه أفكار المتلقى ومشاعره ليستوعب ويستشعر المضمون الفكرى بوجه تام •

ومما يوضح هذا الاتجاه وما يشتمل عليه من الخصائص ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (١) : «ان الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، غير يمينها لأحدكم كما يربنى أحدكم مهره ، حتى ان اللقمة لتصير مثل أحد ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل «وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» (ويمحق الله الربا ويربى الصدقات) وفى رواية عن أبى هريرة [أيضاً] قال: قال رسول الله ﷺ (٢) : «وما تصدق أحد بصدقة من طيب — ولا يقبل الله الا الطيب — الا أخذها الرحمن بيمينه ، وان كانت تمررة تربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربنى أحدكم فلوه أو فصيلة » •

فبالنظر الى هذه الأقسام التى ورد عليها الأسلوب وكيفية أداء المعانى من خلالها ودرجات تأثيرها فى إيضاح المعنى العام يمكن ملاحظة

ذلك التنقل الفكرى عبر مجموعة من الأجزاء التى بنى بعضها على بعض،  
 فى : « ان الله يقبل الصدقة » معنى مستقل وفكرة تامة ، وفى :  
 « ويأخذها بيمينه » معنى مستقل تام كذلك مبنى على سابقه موضح  
 أثره وفضله ، وفى : « فيرببها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره » ايضاح  
 للقسمين السابقين ، وتصوير لسان الصدقة ومكانتها وثوابها ومضاعفه  
 ذلك الثواب ، فضلا عن أن لذلك كله من الآثار الشعورية ما ينشأ عنه  
 الترغيب والحرص ، وفى : « حتى ان اللقمة لتصير مثل أحد » تأكيد  
 لسابقه ورسم دقيق لعناصر الصورة وأخذ بأطراف المعنى ، وايضاح  
 لجميع جوانبه ، وفيه زيادة عليه ، لأنه صورة مبنية على صورة ، فالأولى  
 وضحت مطلق العناية ، والثانية بينت الغاية ورسمت الهيئة وقربت  
 المقدار . ثم اختتم ذلك كله بتأكيد للمتلقى بذكر ما يصدقه من كتاب  
 الله عز وجل .

وبالنظر الى ما تدل عليه العناصر التى ركبت منها الصورة واشتمل  
 عليها الأسلوب يمكن ملاحظة ذلك النمو الذى سادها جميعها . وهو نمو  
 يأخذ بيد المتلقى ليستوعب ويفهم ويقرب من حقيقة لا يدركها .

وقد قام هذا النمو على محاور دارت حولها المعانى منها : محاور  
 لفظية ماثلة فى الألفاظ التى تضمنت معنى النمو والاتجاه  
 والاتجاه نحو غاية ، والاشتغال على هيئات متغيرة للموصوفات متدرجة  
 فى نمو ثنائى من الأصغر الى الأكبر وهن الاقل الى الاكثر كما هو  
 الحال فى : « يرببها ويربى » الدالتين بصيغة المضارعة على الاستمرار  
 والتجدد ، وبما اشتملتا عليه من المعنى على مطلق العناية والرعاية ،  
 وكذلك فى استخدام ما يفيد الغاية من الألفاظ كما هو الحال فى «حتى» ،  
 والضرورة كما هو الحال فى « تصير » . وكذلك استخدام ما يدل على  
 العناية بالمخاطب وجذب انتباهه كما هو الحال فى « أحدكم » و « مهره »



ومنها محاور حسية تمنح المتلقى القدرة على تصور الفكرة واستيعابها وترسم أمامه هيئة واضحة الملامح للموصوف بحيث يستطيع ادراكه ادراكا يخرج من نطاق الفكر المجرد الى المشاهدة والتصوير ، من خلال عرض صورته عليه عرضا جزئيا متتابعا ، ومنكاملا ، يرى فيه ذلك الموصوف فى حالة من النمو والتصاعد ، حتى يقف من خلال متابعته على ما ينبغى عليه أن يراه ، من سماته الموضحة قدره ، ومنزله ، والتمثله فى الوقت نفسه ما يلزمه من مشاعر الترغيب فيه ، والاقبال عليه ، فيتترك ذلك كله فى نفسه من الأثر المستمر ، وفى عقله من القيمة الفكرية ، ما يظل ما نحا اياه مجموعة من القدرات النفسية والذهنية والحسية المتعددة .

ومن ذلك ما تحقق من خلال هاتين الصورتين البيانيتين الستين رسمتا هيئة نمو الصدقة وثوابها حيث وردت أولا فى قوله ﷺ : « ..... فيرببها لأحدكم كما يرببى أحدكم مهره » ثم وردت ثانيا فى انتقال حسى لهيئتها الى صورة أخرى اقترنت فيها برسم هيئة ثانيه لحجمها ومقدارها ووزنها وقيمتها فى : « حتى ان اللقمة لتقصير مثل أحد » .

ومن الاتجاهات البارزة القرينية من ذلك قيام الأسلوب البيانى بايضاح مشهد حسى واحد ذى جوانب متعددة ايضا كما مفصلا بتقسيمه الى مجموعة من الصور الحسية التى يعبر كل منها عن موقف متعلق بذلك المشهد الكلى العام ، وممثل مرحلة من مراحلها ، ترتبط بما قبلها وما بعدها ، ارتباط الجزء بالكل ارتباطا وثيقا عبر تلك المشاهد المتتالية التى يمكن تأمل ملامحها وادراك هيئاتها ومشاهدها ما يسودها ويلزمها من حركات وشخصيات وانفعالات وكأنها مشهد قصصى موجز جامع لموسوعة قصصية متعددة الأجزاء .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (٣) : « انما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها ، فأنا آخذ » ، بحجزكم وأنتم تقحّمون فيها » وفى رواية عن أبي هريرة أيضا : « مثلى كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن » ، ويغلبنه ، ففبتقحّمن فيها • قال : هذلكم مثلى ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلمّ عن النار ، فتغلبونى تقحّمون فيها » وفى رواية عن جابر : « مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذُبّهن عنها ، وأنا آخذاً بحجزكم عن النار وأنتم تغلبتون من يدي » •

ومن أبرز ميزات هذا الأسلوب أنه يجذب فكر المتلقى وخياله الى متابعة ما يحتميه من المشاهد المزاخرة بعوامل اثاره المشاعر ودوافع الاستنباط مغزى كل مشهد منها ، حتى تؤدى به الى معاشية الأسلوب والاندماج فيه ، وقوة الاحساس به صدورا عن كونه طرفا من أطرافه ، فاذا به يظفر من خلال ذلك كله بالغاية التى يرمى اليها الأسلوب ويهدف الى تحقيقها •

ونظرا لتعدد المواقف التى يصورها ذلك المشهد العام ، ونظرا لما تترخر به من العوامل سالفه الذكر ، ونظرا الى كون ذلك كله مجموعا فى اطار محدود الألفاظ ، قصير العبارة اذا ما قورن بما يحتميه من المعانى والقضايا ، فان المتلقى يجد نفسه تلقائيا مسترجعا جميع عناصره محاولا معاودة تأملها فى سلسلة متتابعة من المحاولات التى تنشأ عما يحمله ذلك التشبيه التمثيلى فى كل استرجاعه من ايجاءات وآثار لا تنتهى ،

(٣). الترمذى : ٤٣٠/٤ ، وصحيح مسلم : ١٤٧/٥ •

وما يتميز به من قدرة على احتواء ما لا حصر له من القضايا والموضوعات .

ومن الاتجاهات الواضحة في هذا المجال — فضلا عما سبق — الاتجاه الى تصدير الأسلوب البياني بصورة كلية موجزة ، ثم اتباعها باستثناءه يوحى بشأن مستثنى معين من تلك الصورة ، دون التعريف بذلك المستثنى من أول الأمر ، حيث يترك الأسلوب الفرصة للمتلقى لكي يستشعر مكانته ، ويتنبه الى أهميته ، وذلك برسم مجموعة من الهيئات والصفات المتعلقة به ، حتى اذا ما تم ذلك ورد المستثنى متمكنا في موضعه من الصورة تمكنه من عقل المتلقى ونفسه ، فيكون اكتمال المعنى مرتبطا بهذا الاكتمال الذي نمت من خلاله الصورة فحققت غاياتها في بناء تام متماسك العناصر .

ومما بوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (٤) :

« مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابنتى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها الا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون ألا وضعت لبنة فيتم بنيانك؟ فقال محمد ﷺ :

فكنتُ أنا اللبنة . وفى رواية : « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

فهذه الصورة البيانية الكلية التي وردت موجزة — بالرغم من تعدد عناصرها — فى صدر هذا الأسلوب قد أفادت ببنائها هذا معنى كليا مقترنا بهيئة حسية يستطيع المتلقى بادراكها استيعاب مضمونها وتامل جوانبها والامام بعناصرها ، وبعد أن تم له ذلك فوجيء بعنصر لغوى

دعاه الى استرجاع الصورة وتأمل هيئتها تأملا ثانيا ، وذلك حين وردت-  
 لفظة « الا » التى أفادت الاستثناء ، ثم تبعتها مجموعة من العناصر  
 التى أشارت الى صفة ذلك المستثنى دون التعريف به ، فظل عقل المتلقى  
 مفكرا ، وشعوره عالقا بتلك الهيئة باحثا عن تكاملها وتتام عناصرها  
 متابعيا ما يرتبط بها من هيئات وأحوال حتى تحقق له ما أراد ، فجاءته  
 تنمة الصورة التى بها اكتملت هيئتها ، وتحققت دلالتها فى وضع متمكن  
 من السياق الأسلوبى البيانى ، وفى اطار ايجاز قوى دال فى : « فكنت  
 أنا اللبنة » .

وبناء على ذلك فان كلا من هذه القضايا تأخذ مكانتها من الأسلوب  
 وتظل المعانى المرتبطة بها فى تصاعد ونمو تتكامل عبره جزئياتها حتى  
 تجتمع لدى تلك الدلالة الواحدة فى نهاية الامر .

وقد يقوم بناء الصورة البيانية فى هذا المجال على تناول أجزاء  
 بعض عناصرها التى تعد بمثابة المحور البارز فيها تتاولا وصفيا موضحا  
 مغزى الصورة ومظهرها أبعاد المعنى وظلاله وما يترتب عليه من الاثار، وذلك  
 عبر تعليق بيانى تابع لصورة بيانية موجزة وموضح لها .

وهذا الأسلوب له من الخصائص المؤثرة فى قوة أداء المعنى  
 وايصال المضمون الى المتلقى ما يعد منها أسلوبيا متميزا بذاته .

فهو من جهة تفصيل بعد اجمال ، أو ايضاح بعد ابهام ومن جهة  
 أخرى هو تأكيد لمضمون الصورة البيانية السابقة ، بتعليق بيانى كذلك  
 فى عبارة لاحقة . وهو - فضلا عن ذلك - تتاول للمعنى الذى تتضمنه  
 الصورة الجملة من جهة أو جهات يتضح عبره تميز عناصرها وفضل  
 مغزاها ودلالاتها ، وفضل انتقائها للتعبير عن ذلك المعنى دون سواها .

وهو - الى جانب ذلك كله - بناء تصاعدى للمعنى يتم عبره تركيب

بعض العناصر على بعض وبناء أسماها على أذناها في شكل نمو متدرج يأخذ بيد المتلقى الى ما يهدف الأسلوب الى تحقيقه لديه فكريا وشعوريا .  
 ومما يوضح ذلك النمط الأسلوبى البيانى ما روى عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ (٥) : « المؤمنون كرجل واحد ، ان اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وفى رواية : « المسلمون كرجل واحد ، ان اشتكى عينه اشتكى كله وان اشتكى رأسه اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وفى رواية : وتعاطفهم مثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ومما يوضح ذلك أيضا ما روى عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

فهذا التعبير البيانى الوارد فى صورة تشبيهية فى الحالين يرسم هيئة حسية للموصوفات يستطيع المتلقى أن ينظر اليها نظرة كلية عامة حال ايجازها ، وحين يرد عليه ذلك التعليق الموضح عناصرها ومغزاها لقى كلا الحالين أيضا يستطيع أن يسترجعها ثانية فى تأمل تتلاحم فيه مجموعة من العوامل التى نفذت عبر التعبير البيانى الى مجالات الفكر والشعور والحس ، وبذلك التلاحم يتم الربط بين مضمون الصورة من جهة ، ومضمون واقعى حسى معهود 'مقرب' لمغزاها من جهة أخرى فينتج عن ذلك ايضاح أبعاد المعنى وتحقيق غايات الأسلوب .  
 ويتخذ بناء الصورة فى الحديث النبوى الشريف نهجا أسلوبيا خاصا فى ايضاح دلالة الصورة وابرار بعض جوانبها حين يؤدى ورود عناصرها مركبة على نحو مخصوص الى تحقيق غاية التصوير وأثره وأهداف الأسلوب ودلالته .

وهنا يتضح العديد من خصائص التصوير البياني القائم على العناية بأوضاع العناصر الأسلوبية المرتبطة بوظائف سياقيه مخصوصه بحيث يجد المتأمل لهذه الأوضاع مدى القدرة على الربط بين أداء المعانى عن طريق الألفاظ والصور وايصال أهمية هذه المعانى وآثارها ومالها من ميزات خاصة الى المتلقى •

فقد يكون الأسلوب مشتملا على صورة بيانية تشكل جزءا من أجزائه ، وحين يتقدم هذا الجزء يكون لتقدمه دلالة خاصة وميزة ظاهرة .  
ومما يوضح ذلك ما روى عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (٦) :

« ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا » •

فبتأمل هذا التعبير البياني يمكن ملاحظة فضل استهلاله بقوله ﷺ : « ذاق طعم الايمان » وما توحى به كلمة ذاق من مشاعر مرتبطة بالراحة والاطمئنان والسكينة وما يلازمها من استتعار حسى مقترن بالكلمات المتجاوزة ذاق وطعم والايمان ، ثم ما يوحى به جميع ذلك من فضل وأهمية من خلال تقديم هذه الصورة الاستعارية التى تمثل أثرا للمؤثر مذكور بعده •

وإذا كان من المعلوم أن المؤثر يسبق الأثر فى الوجود علم حينئذ مغزى تقديم الأثر فى مثل هذا الوضع التركيبى ، ابرازا لشأنه ، وإشعارا للمتلقى بفضله ، وبياناً لمكانته •

وقد تكون الصورة البيانية مستقلة بأداء المعنى ممثلة أسلوب الحديث كله ، فتزد على هيئة مخصوصة يتقدم عبرها بعض العناصر على خلاف المهود تحقيقا لغايات مرتبطة بذلك •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عامر بن مسعود عن النبي ﷺ  
قال (٧) : « الغنيمة الباردة الصوم في الشتاء » •

فمن المعهود تقديم المشبه على المشبه به لكي يؤدي التشبيه وظيفته  
بيانية يتحقق من خلالها إيضاح المعنى وتقريب ما بعد من دلالاته ،  
أما حين يتخطى الأمر ذلك لتحقيق وظائف أخرى وإبراز آثار أكثر بعداً  
فانه يحتاج الى بعض العوامل المساعدة والعناصر الشارحة مما يمكن أن  
يرد في صورة تعليق أو تأكيد أو اعتراض أو ما انى ذلك •

وحين يُستغنى عن ذلك كله ويعمد الى تقديم دال هادف أو تأخير  
محقق نفس الغاية فان الأسلوب يكون قد تميز بقوة الدلالة مع  
الاحتفاظ بالايجاز الموحى والقدرة على تخطى مرحلة الاستعانة بغير  
حدود الصورة البيانية بما يحقق قوة التعبير وقوة أثره •

وهذا ما تحقق من خلال تقديم المشبه به « الغنيمة الباردة » على  
المشبه « الصوم في الشتاء » •

وبالرغم مما ورد عليه التصوير هنا من الايجاز فقد اشتمل على  
الوصف الحسى المرتبط بالمجال الشعورى وذلك فى وصف « الغنيمة »  
بالباردة ، كما اشتمل على ما أفاد التحديد الزمنى المقيد للمعنى فيما  
أنبع به المشبه « الصوم » من قوله ﷺ : « فى الشتاء » ، فضلا عن  
دقة اختيار الألفاظ وقوة دلالة كل منها فى ذاته •

وتتجه الصورة البيانية الى تحقيق المزيد من الغايات عبر ما تتركز  
عليه من أوضاع متسقة اتساقا تاما مع ما تدل عليه من المضامين وتعالجه  
من القضايا فى كل مجال من مجالات التعبير •

فحين نتجه الى مجالات الترهيب والزجر متجاوزة مجرد ابراز الدلالة أو تقريب الحقيقة أو تصوير المعانى من أجل تجسيدها وإيصالها الى مجالات الادراك فان عناصر التعبير البيانى ترد مترابطة فى بناء محكم مبرزه مدى شدة الأثر أو قوة الصفة وحدتها ، أو هول الموقف ورهيبته أو ما الى ذلك من الدلالات .

ويتخذ التصوير حينئذ من التفصيل وبناء الجمل بعضها على بعض وقوة انتقاء العناصر الحسية ذات التأثير الملائم لهذه المجالات ، كما يتخذ من الموازنة والمفاضلة بين عناصر الصور طريقا واضحا لابرار دلالات تلك الصور البيانية .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (٨) : « لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَهْرَةٍ فَتَحْرَقَ ثِيَابُهُ فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرِ » .

فبناء عناصر هذه الصورة البيانية على هذا النحو الذى استهلته فيه بما يشعر بالهول والرهبة وهو الجلوس على جمرة ، ثم بناء أثره عليه وذكره بعده زيادة لبيان ذلك الأثر وتأكيدا لتحقيق وقوعه وبثا لاستشعاره فى نفس المتلقى فى « فتحرق ثيابه » ، ثم بلوغ ذلك الذروة من القوة والتركيز فيما أتبع به وبنى عليه فى « فتخلص الى جلده » ، كل ذلك له من قوة الدلالة على المعنى والإيحاء به ما يدع المتلقى فى حالة من البحث والاستنباط ومحاولة فهم ما ترمى هذه الصورة الى بيانه حتى اذا ما جاءه التصريح بما جهد فى استشعاره وحاول فهمه تمكن من عقله تمكنه من شعوره ، ووضع موضعه من نفسه فعلم خطره ، وخافا أثره وهوله .



ولقد زاد من دقة التعبير وقوة التصوير هنا تلك المفاضلة التي تمت بين جانبي التصوير حيث وضع ما بدا مهولا خطيرا مما يعلمه المتلقى موضعاً أهون شأننا وأقل خطراً من موضع ما بدا له بسيطاً سهلاً مألوفاً من الأمور •

وورود هذه المفاضلة على غير المعهود لديه كان له دوره فى مفاجأة ذهنه وجذب انتباهه وتحقيق عنصر الدهشة فى نفسه مما يسهم فى اثبات الموقف وأثره فى ذاكرته واستشعاره كلما عاودت تلك الذاكرة استحضاره •

وفيما يقابل ذلك من مجالات الترغيب والتبشير يتخذ بناء الصورة البيانية أوضاعاً مبرزة مدى فضل الموصوف وأهميته ، أو سمر الموقف ومكانته ، أو علو الشأن وقوة أثر ما يتعلق به •

وهنا يجد المتأمل اتساع المجال لبسط العبارة ، والعناية بالعناصر الممهدة ، وجذب فكر المتلقى وإثارة تنبيهه ، وبث عناصر التأثير المرضى فى نفسه ترغيباً له فى الاقبال على المعرفة وجعله طرفاً فى محاوره هادفة تأخذ بيده لأن يسبر غور فكره ، ويستنبط كوامن القدرات التى يتمتع بها عقله • •

ومما يجمع العديد من خصائص هذا الاتجاه الأسلوبى وسماته ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (٩) ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المسلم ، فحدثونى ما هى فوقع الناس فى شجر البواذى • قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت • ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله • قال :

(٩) صحيح مسلم : ٦٧٦/٥ ، والترمنى : ٢٢٨/٤ ، وصحيح

البخارى : ١/٢٤٥

فقال : هي النخلة • قال : فذكرت ذلك لعمر • قال : لأن تكون قيات هي  
النخلة أحب الى من كذا وكذا » •

فهذا الأسلوب البياني الذي بنيت فيه عناصر التعبير على هذا  
النحو قد اكتسب من قوة الدلالة على المعنى ، وتمكن صورته الحسية  
فى النفس مقترنة بهيئتها المرئية أمام التصور ما جعله صورة ثابتة  
فكريا وشعوريا وحسيا للمتلقي •

فقد استهلت الصورة هنا بهذا التمهيد الذهني الذي تضمنه صرف  
الذهن الى فكرة محددة مقترنة بوصف معين لموصوف خاص دون  
التصريح به ثم اتخذت تلك الفكرة عنصرا بارزا يمثل طرفا من طرفى  
صورة تشبيهية •

وبينما ترك التصريح بذلك الطرف صرح بالطرف الآخر بعثا  
للمتلقي على التنقيب والمعرفة وتثبيت ما يقترن به من صفات هادفة •  
وبعد أن تحقق جميع ذلك ورد طلب التعيين والتعريف تحقيقا لغرض  
جميع ما سبق •

ثم أتبع ذلك بما بنى عليه وهياً لتحقيق غرضه حيث ترك المجال  
للمتلقين للمنافسة حول المعرفة ، حتى اذا بلغ الأمر مبلغه ، وجاء  
التسليم بعدم باوع تلك الغاية حيث أتبع جميع ذلك بالتماس تعيين  
ذلك الموصوف الذى يمثل المشبه به فى تلك الصورة ، فورد متمكنا فى  
سياقه تمكته فى المجالين الفكرى والشعورى محققا جميع الغايات  
الترتبة على ذلك •

ولما كان المشبه به هو الجامع لدلالات الوصف الجزئية ومبرزا  
اياها فى تقريب لما يماثلها فى جانب المشبه ، فقد تحققت غايات هذا  
الجمع والاظهار والتقريب بتركيز التعبير حول صفات المشبه به واتاحة  
فرصة تأمله قبل معرفته •

ولقد أدى جميع ذلك إلى أن سبقت معرفة الصفات معرفة الموصوف ، كما سبقت معرفة المشبه به المشبه ، فحين عرف الموصوف الذى هو المشبه به جاءت معرفته ملازمة لصفاته ، وحين عرف المشبه ثبت له جميع ما تدل عليه تلك الصفات وما يرتبط بها من هيئات فى تركيز دلالى قوى حول فكرتى دوام النفع ، وكثرة وجوه الخير حسياً ومعنوياً .

ومما يتميز به التصوير البيانى فى هذا المجال تضمينه للألفاظ المرتبطة بمجالات الشعور واتخاذها وسائل لحث المتلقى على معاشيه القضية المطروحة واستشعار آثارها ، ثم وضع هذه الألفاظ فى محل الصدارة من الأسلوب .

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (١٠) : «أوجب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان ؟ قلنا : نعم . قال : فثلاث آيات يقرأ بونَّ أحدكم فى صلواته خير» له من ثلاث خلفات عظام سمان » .

فاستهلل الأسلوب هنا بلفظة « يجب » الواردة بعد همزة الاستفهام قد أفاد الكثير من الوظائف بما يحمله من طاقات معنوية تتصل بدلالته ، وشعورية تتصل بنفس المتلقى ، وذهنية تتعلق بجذب إمكاناته الفكرية الى ما سيرد عليه من مضمون العبارة التالية وما يترتب عليها من الأمور .

كما أن اتباع ذلك بفاعله ، وتخصيص المخاطب بلفظه وإضافته الى ضمير الجمع الدال على المخاطبين له الفضل الكبير فى تأكيد الوظائف السابقة للفظ « أوجب » ، ثم توجيه الطاقة الفكرية والشعورية

(١٠) صحيح مسلم : ٤٥٦/٢ . الخلفات بفتح الخاء وكسر اللام

الحوامل من الابل الى أن يضى عليها نصف أمدها .

للمخاطب الى العناية بالقضية المطروحة صدورا عن استشعاره أهميتها  
وكونها متصلة به .

ولقد مهد ذلك كله لتمكن ما ورد بعده من عناصر الصورة البيانية  
التي اشتملت على جانب واقعي يتصل بحياة المخاطبين ومجالات  
عنايتهم ، وتضمنت عنصرا قويا من عناصر المفاجأة في ارتباط وثيق  
بالأسلوب من أساليب الشرط ، وتحديد عددي دقيق للموصوفات ،  
وعناية بابرازها في اطار من الوصف الحسي المتجه الى رسم هيئتها  
وبيان مقدار تميزها .

هذا كله فضلا عن تضمن هذا الأسلوب جانب استدعاء المخاطب  
للمشاركة التعبيرية التي تجعل منه طرفا في حوار هادف ، ليرد بعد  
ذلك دور اتمام الصورة في ايضاح لجانبها الآخر الذي يتضمن التصريح  
بمعزى الاستفهام الوارد في صدر هذا الأسلوب مما مكن للمعاني وحقق  
آثار التصوير وجمع بين أطرافه في تركيب بياني متصل الحلقات .

ولقد أسهمت فكرة المفاضلة بين جانبي الصورة وتميز جانب المشبه  
— الذي لم يكن مقدار فضله معلوما — على المشبه به الذي يصل مقداره  
الى أسنى درجات العناية لدى المخاطب في بيان مغزى ذلك التصوير  
وتحقيق غاياته .

وهكذا يمكن ملاحظة ما لوسائل بناء الصور البيانية في أسلوب  
الحديث النبوي الشريف من أوضاع متنوعة ترتبط بغايات محققة من  
إحلال ما تقوم به من ارتكاز على عناصر لغوية وبلاغية في ارتباطها  
بمجالات التعبير وقضايا الفكر من جهة ، وتعلقها بحياة المتلقين وقدراتهم  
الفكرية والشعورية من جهة أخرى ، فوردت متنوعة الاتجاهات عديدة  
الخصائص ، مترابطة العناصر في بناء داخلي نام متجه نحو ذروة تلتقى  
لديها غاياته وتتحقق دلالاته .

## بعض النواع

### الصورة البيانية فى الحديث النبوى الشريف بين المجالين الفكرى المجرى والدلالى المحدد

يتسع الأسلوب البيانى فى الحديث النبوى الشريف ليستوعب  
مجالات الفدر وضروبه اتساعا كبيرا •

وقضايا الفكر هى تلك المضامين التى يتخذ العقل منها مجالات  
للتأمل والنظر بغرض دراستها واستيعابها والتوصل الى حقائقها  
أو صفاتها أو أبعادها •

غير أنه من المعلوم أن هذه القضايا تتسع للكثير من الاحتمالات  
ووجوه التأويل لما تتضمنه من جوانب وتنشعب اليه من جزئيات  
غير محددة •

أما حين ينتقل المضمون الفكرى الى المظهر التعبيرى عن طريق  
اللغة فانه يأخذ طريقه الى التحديد والتوضيح •

غير أن هاتين الصفتين — التحديد والتوضيح — ترتبطان بسمات  
الأسلوب وما يتميز به من خصائص مما يشكل الأساليب بدرجات  
متعددة ومتفاوتة فى تحقيق غاياتها •

ذلك أن القدرة على الانمام بجانبى الأسلوب — الفكرى  
والتعبيرى — والقدرة على تحقيق سمات مخصوصة للجانب التعبيرى  
بحيث يؤدى المضمون الفكرى كما هو بالدرجة التى يقصد اليها المتكلم

وبالتأثير المحدد الذي ينشده من وراء تعبيره أمر صعب تحقيقه لما يتطلبه من قدرات خاصة على انتقاء الألفاظ الدالة والصور الموحية ، وما يرتبط به من قدرات متعددة على ربط الأسلوب بالموقف ، ونسج التركيب على وجه مخصوص ، وتكييف التعبير ليصل الى مختلف القدرات الفكرية ويعالج ما يتضمنه من القضايا معانجة مجردة من حدود الزمان والمكان .

وفى هذا المجال تتضح الكثير من خصائص الأساليب البيانية فى الحديث النبوى الشريف ، حيث تجد الفكرة الذهنية المجردة مقاييسها الدقيقة المحددة التى تحمل دلالتها وتوحى بالمقصود منها دون زيادة أو نقص .

وبسوع مجالات التعبير وأغراضه تتنوع هذه المقاييس تنوعا ملحوظا .

ومن المجالات التى تتطلب قدرة خاصة على وضع مقياس بيانى محدد معبر عنها تعبيراً دقيقاً مجال التعبير عن الوقت، وتحديد فترة زمنية بعينها لبيان ما يتعلق بها من أمور ارتبطت بفكرة خاصة أو ابرازها لفضل عمل معين يحسن أداؤه فيها دون سواها .

ومن ذلك تحديد وقت صلاة الضحى وبيان أفضل وقت تؤدى فيه . وهذا مجال يتطلب القدرة على استخراج عناصر لغوية وصور تقوم بايصال ما تتضمنه من أفكار فى اطار من الوضوح والتحديد الدقيقين .

وهنا نجد تميز الأسلوب البيانى فى الحديث النبوى الشريف بالكلمة الدالة الموحية المتضمنة تحديداً دقيقاً وتعبيراً هادفاً لا يتجاوز

دلالة الأسلوب ، بل يوقف العقل والحس لدى ما يهدف الى بيانه من  
المضامين ويعبر عنه من الوجوه .

ومما يوضح ذلك ما روى عن القاسم الشيباني أن زيد بن أرقم  
رأى قوما يصلون من الضحى فقال أما لقد علموا أن الصلاة في غير  
هذه الساعة أفضل . أن رسول الله ﷺ قال (١) :

« صلاة الأوابين حين ترمض الفصال »

فهذه التناية الدقيقة قد وضعت مقياسا حسييا واقعييا لا لبس فيه  
ولا غموض لهذه الفكرة التي تضمنها الأسلوب ، فالوقت صار محددًا ،  
والعمل المفضل في ذلك الوقت صار واضحا ، وفضل ذلك العمل ارتبط  
بوصف فاعلية وما هم عليه من الحال ليكون بيننا ظاهرا .

وذلك المقياس الحسى الواقعى المأخوذ من جانبيه الحسى  
المستشعر ، والواقعى المشاهد فى لفظتى « ترمض الفصال » قد أدى  
جميع ما أداء من الوظائف بما يحمل من طاقات متعددة فى ظل ما ورد  
به من أسلوب منتقى الألفاظ دقيق التركيب .

وقد أسهمت كل افضة فى هذا التركيب بوجه عام فى بيان الفكرة  
العامة المجردة وتحديد دلالاتها تحديدا دقيقا .

فلفظة « الصلاة » تدل على فكرة عامة معروفة ولكن اضافتها للفظ

(١) صحيح مسلم : ٤٠٠/٢ - ترمض بفتح التاء كعظم يعلم ،  
والرمضاء : الرمل الذى اشتدت حرارته بالشمس أى حين نحترق أخفاف  
الفصال وهى الصغار من أولاد الابل من شدة حر الرمل - الأواب :-  
المطيع ، وقيل الراجع الى الطاعة . قيل :- ( هذا ) أفضل وقت صلاة  
الضحى وان كانت تجوز من طلوع الشمس الى الزوال .

« الأوابين » بما تحمله من صيغة المبالغة حددت الدلالة ووضحت المقصود فهي صلاة المطيعين أو الراجعين الى الطاعة ، دون غيرهم ، أما لفظة «حين» فقد وجهت الأذهان نحو التحديد والتمييز ليعلم وقت تلك الصلاة بعد أن علم فضلها ، أما هذه الكناية «ترمض الفصال» فقد ساقته المعنى مصحوبا بدليله ، والفكرة مقترنة بمقياسها فلم تدع مجالاً لشك ، أو اتساعاً لفكر عن دائرتها المحددة حيث جمعت من بعض مظاهر الطبيعة في ذلك الوقت مركزاً اشارياً الى دلالة مخصوصة ، فشدة حرارة الشمس وتأثر أخفاف صغار الابل بها لشدة حرارة الرمال هي ذلك المقياس الذي بمقتضاه صار للفكرة حدودها والدلالة معالمها الواضحة .

ومما يتضح فيه دقة وضع المقياس البياني اللغوي القائم على ايضاح الفروق وبيان وجوه الفضل مجال التفاوت في الأعمال وما يترتب عليه من التفاوت في مراتب السمو والتميز .

ذلك أنه مجال مرتبط بجوانب معنوية متشعبة ، وأسباب خفية تتعلق بإمكانات البشر المتفاوتة ، وعزائهم المستترة وما يتعلق بذلك من الفوايا وما يترتب عليه من الفوارق .

ومن الأمثلة الموضحة لذلك ما روى عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ (٢) : « آسَرَعُكُنَّ لِحَاقًا بِي أَطُولُكُنَّ يَدًا ، قَالَتْ : فَكُنَّ يَنْطَاوِلُنَّ أَيْتُنَّ أَطُولُ يَدًا . قَالَتْ : فَكَانَتْ أَطُولُنَا يَدَا زَيْنَبَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ » .

فقد قام التحديد الدلالي هنا على ركيزة بيانية حسية ماثلة في



هذه الكناية التي أخرجت المعنى المجرد في هذا الإطار الحسى المموسى  
المحدد .

فضفة الطول صفة حسية ، والموصوف بها وهو اليد شيء حسى  
كذلك ، وقد صيغ هذا الوصف فى لفظة دالة على بلوغ الحد الأسمى  
للصفة وهى صيغة « أفعل » التفضيل مضافة الى ضمير الجمع . وهذا  
التحديد الحسى الواضح قد أبرز الدلالة وأثبت الفكرة وأوضح معالمها .  
وقد تحقق جميع ذلك فى ظلال هذا الأسلوب الموجز الموحى بجميع  
عناصره ، فلفظة أسرعن بما تضمنته من معنى وصيغة ، وما أضيفت  
إليه من ضمير جمع ، وما دلت عليه من قرب الزمن والحدث ، ثم ماتبعها  
من لفظة « لاحقا » التى توضح دلالتها وتميز معناها وما تلا ذلك مفيدا  
معنى التكريم والتفضيل فى المتعلق « بى » ، قد التقى جميع ذلك من  
جوانبه الدلالية والصوتية والتأثيرية مع هذه الكناية الموجزة « أطولكن  
يدا » محققا غاية واضحة وواضعا ذلك المقياس الحسى مقترنا بتلك  
الحقيقة التى تضمنها .

وتضع الصورة البيانية العنصر الحسى مؤيدا بهيئة حسية للموصوف  
ليتم من خلال ذلك بيان مجموعة الصفات المعنوية والملاح الحسية التى  
اجتمعت فيه فأحلتها محلا متميزا .

ومما يوضح ذلك ما روى عن معاوية أنه سمع رسول الله ﷺ :  
يقول (٣) : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة » .  
وتخرج الصورة البيانية فى الحديث النبوى الشريف ما يكمن من  
المعانى وما يستتر من الأبعاد والفتائج غير الظاهرة ، مقربة ما بعد من

(٣) صحيح مسلم : ١٥/٢ .

الحقائق تقريبا شعوريا حسيا يدرك المتلقى من خلاله تلك الغوامض  
فى هيئة حسية ملموسة •

وقد تكون تلك المعانى الخفية التى تبرزها الصورة البيانية مخالفة  
لما هو معلوم فى الظاهر ومدرك للحواس فتأتى الصورة البيانية على  
خلاف المعهود واضحة المعالم الظاهرة للمعانى المبهمة الغامضة فتتمكن  
فى رأى العين تمكثها فى الشعور والعقل •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن الحارث بن سويد عن عبد الله قال (٤):  
دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعك فمسسته بيدي، فقلت: يارسول  
الله انك لتوعك وعكاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ: «أَجَلٌ • أنى  
أوعكُ كما يُوعكُ رَجُلان منكم ، قال : ذلك أن لك أجريين ؟ فقال  
رسول الله ﷺ: «أَجَلٌ • ثم قال رسول الله ﷺ: ما من مسلم يصيبه  
لأذى من مرض فما سواه الا حَطَّ الله به سيئاته كما تحطُّ الشجرة»  
ورآها •

ومنه ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على أم  
السائب — أو أم المسيب — فقال: «مالك يا أم السائب — أو يا أم  
المسيب — تترفضين ؟ قالت: الحمى • لا بارك الله فيها • فقال: لاتسبى  
الحمى فانها تذهب خطايا بنى آدم كما يذهب الكير خبث الحديد» •  
وفى هاتين الصورتين البيانيتين يتجلى أثر قوة أداء المعنى من  
جهة وقوة انتقاء عناصر الصورة البيانية من جهة أخرى ، فسواء أكانت  
فى الأولى هيئة الشجرة التى تحط أوراقها هى محور الدلالة ومركز  
الأداء التأثيرى ، أم الثانية الماثلة فى اذهاب الكير خبث الحديد فقد  
أثارت كتابتها فى سياقها معنى قوة الاذهاب وشدة الأثر مع بيان الهيئة  
ودقة رسم صورة المحو والازالة •

(٤) صحيح مسلم : ٤٣٤/٥ ، ٤٣٥ • والوعك باسكان العين هو

الحمى ، وقيل : ألها •

وقد ورد ذلك كله مبينا ذلك المعنى الكامن على خلاف المعهود ،  
 هاذا كان المرض مسببا للألم ، والألم مسببا للضجر وسوء الأثر  
 النفسى ، فقد أوردت الصورة البيانية فى هذين الموضعين جانباً غير  
 معهود على خلاف ذلك ، فالمرض مسبب لحط السيئات أو ذهاب الخطايا ،  
 وذلك — دون شك — مسبب للراحة والاطمئنان •

كما أن ارتباط كلتا الصورتين بهيئة حسية ملموسة للادراك فى  
 إطار محبب الى النفس أمر نه بالغ الأثر فى تقريب أثر الصورتين وتأكيد  
 دلالتيهما للعقل، وإيجاد عنصر الترغيب والاقبال والافتتاح لدى المتلقى •  
 وقد لا ترد تلك المعانى التى توضحها الصورة وتحدد معالمها على  
 خلاف المعهود ، بل تكون معلومة فى إطار محدود لا يتجاوز الحقائق  
 القرينية المدركة ، فتتبد الصورة البيانية موضحة أبعادا أكثر منها أهمية ،  
 وأعظم منها شأناً مما يكون له أثره فى ازدياد تأكيد فضلها ، وسمو  
 شأنها ، فتحصل من ذلك زيادة الاقبال عليها ، والالتزام بالقيام بها •

ومن ذلك تصوير ما يترتب على بعض الأعمال أو الأقوال من أجر  
 ومنزلة فتتبد الصورة البيانية مخرجة ذلك فى إطار حسى قريب الى  
 الادراك رابطة المقدمات بالنتائج ، والأسباب بالمسببات •

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : انى سمعت  
 رسول الله ﷺ يقول (٥) :

« ان أمتى يدعون يوم القيامة 'غرا' محجلين من آثار الوضوء ،  
 فمن استطاع منكم أن يطيل 'غرته' فليفعل » •

وتختص الصورة البيانية فى الحديث الشريف — فضلا عن ذلك —  
 بالربط بين التجربة الواقعية المأخوذة من حياة البشر والفكرة الذهنية

(٥) صحيح البخارى : ٢٣٥/١ ، والترمذى : ٥٩/٢ ، وصحيح مسلم :

العربية على عقولهم ومداركهم تقريبا لدالاتها وايضاها لمغزاها واثباتها  
لحقيقتها في التصور والشعور معا .

وورود ذلك الربط بين الفكرة الذهنية والحقيقة العملية الواقعية  
مما يتطلب سياقا خاصا وخصائص معينة حتى يتمكن التعبير من تحقيق  
غايته وبلوغ أثره .

وهنا نجد الأسلوب البياني في الحديث الشريف متميزا بجانبين  
ظاهرين ، أما أحدهما فالقدرة على استدراج المخاطب استدراجا يجعل  
منه طرفا في حوار هادف يتم من خلاله جذب ذهنه لمعيشة التجربة  
الواقعية وفهمها واستيعابها والحكم عليها بموضوعية تؤهله لاستيعاب  
ما سيرد عليه بعدها والتسليم به .

وأما الثاني فهو القدرة على انتقاء هذه التجربة بحيث تكون  
مناسبة تمام المناسبة للاقتران بذلك الفكرة الذهنية التي يعمد الأسلوب  
لتقريبها والصورة للاقناع بها .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ (٦) :  
مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفته ، فمرَّ بجدوى  
أسك ميّت ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له  
بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : أتحبون  
أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك . فكيف وهو  
ميت ؟ فقال : فوالله للُدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

وتتضح قيمة هذا الأسلوب وما يتضمنه من عناصر منتقاه ومركبه

(٦) صحيح مسلم : ٥/٨١٤ . كنفته : جانيه . أسك : صغير

تركيباً بلاغياً ولغويًا دقيقاً حين يتمكن المتأمل من استخلاص مغزى التعبير هنا متوقفاً عند هذه النهاية التي اختتم بها الحديث :

«فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»، حيث اجتمعت لديها جميع الجزئيات السابقة عليها ، كما أدت جانبي التأثير والافهام في آن واحد . ولكن ذلك لم يكن ليتحقق بنفس الدرجة من القوة بمعزل عن تلك المقدمات السابقة عليه وما تضمنته من حوار واشتملت عليه من مناقشه العقول والمشاعر في قضية واقعية واضحة مأخوذة من واقع الحياة ، وما أدى اليه جميع ذلك من اقرار جماعى لاخلاف عليه ولا على جانب من جوانبه متمثل فى قولهم : « والله لو كان يحيا كان عيبا فيه لانه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ » مما أدى الى التسليم التام بالحقيقة الواردة بعده .

فهنا اجتمع للأسلوب من خصائص القوة ما هيا المشاعر واقنع العقول وافسح المجال لاثبات المعنى بدليله وحجته وتأثيره .

أما حين تكون الفكرة الذهنية البعيدة عن المدارك والعقول من الأمور التي تتجاوز الواقع وتجاربه الى ما وراءه ، فان الصورة البيانية فى الحديث النبوى الشريف تترد تلك الفكرة فى اطار آخر بحيث تتضح أبعادها غير المتناهية ، وتظهر آثارها غير الواضحة رابطة القريب بالبعيد ، والظاهر بالمستتر مما يكمن له عظيم الأثر وقوى الوقع على النفس ومشاعرها والعقل ومداركه .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن أنس بن مالك قال بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شئ فخطب فقال (٧) : «عرضت على الجنة والنار»

(٧) صحيح مسلم : ٢٠٧/٥ ، ٢٠٨ . الخنين : صوت البكاء وهو دون الانتحاب قيل : وأصل الخنين خروج الصوت من الأنف كالحنين وقال الخليل : هو صوت فيه غنة ، وقال الأصمعي : اذا تردد بكأؤه فصار في كونه غنة فهو خنين .

فلم أر كالיום فى الخير والشر ، وأو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا . قال : فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم " أسد " منه ، قال : غَطُّوا رءوسهم ولهم كَنِينٌ " . . . » •

فذلك العلم الذى لم يحيطوا به لكونه غير واقع تحت مداركهم على النحو الذى أدركه به رسول الله ﷺ قد اتخذ وضعاً بلاغياً لغويًا حقق به ذلك التأثير المموس فيما كان من القوم حيث « غطوا رءوسهم » وصار « لهم كَنِينٌ » وذلك لشدة تأثرهم به ، وشعورهم بهوله وشدة وقعته على نفوسهم •

وقد أخذت الفكرة التى تضمنها الأسلوب هنا طريقها الى ذلك عن طريق هذه الكناية الدالة داخل اطارها المقيد بأداة الشرط « لو » التى قامت باحكام الربط بين الشرط والجواب فى ذلك الايجاز الدال الذى اجتمعت خلاله المعرفة المطلقة بالحقيقة فى « لو تعلمون ما أعلم » بالآثر العملى فى الأفعال والمشاعر والحواس فى « لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » مما صار له دلالاته على هول ذلك العلم وقوة أثره وبعد مداه وخطورة جميع ذلك •

ويتجه التعبير البيانى فى الحديث الشريف الى اختيار الألفاظ المقيدة للمعانى اختيارا دقيقا يقوم على ركيزتين ، الأولى هى اختيار الكلمة الموحية بالمعنى المحدد الدال على قيمة الفكرة ، والمرحى بما لها من أثر وأهمية من جهة ، والثانية هى القدرة على وضع الكلمة من الأسلوب موضعها الذى تحقق من خلاله جميع ما سيقت لأجله من الغايات •

وهنا يتجلى دور الصورة البيانية فى وضع الملامح وتحديد الأبعاد وجمع الصفات بالقدر المنشود دون تجاوز لمدى أو تقصير عنه •

فحين تكون الفكرة دالة على التناقص المتتالى المفضى الى التناهى

أو التلاشي فان ألفاظ الصورة تقوم بدقة التعبير عن ذلك على هذا الوجه الذي يتضح فيما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ خطب الناس فقال (٨) : « أَلَا مَنْ وُلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَجَرَّ فِيهِ وَلَا يتركهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ » فهذه الاستعارة التي دلت على معنى الانقاص المستمر في «تأكله الصدقة» قد وضعت الفكرة موضعها ورسمت ملامحها وحددت أبعادها وآثارها .

ولقد تحقق جميع ذلك من خلال قوة دلالة كلمة « تأكله » الدالة على الاستمرار في الانقاص من جهة ، وتقييد المعنى بدخول « حتى » على الفعل المضارع مما أفاد تحقيق غاية ذلك الانقاص وبلوغه مداه من جهة ثانية ، وقوة تركيب الصورة داخل سياقها حيث سبقت بما وضحتها وأظهر المقصود منها فوردت متمكنة فيه من جهة ثالثة .

وحين تكون الفكرة دالة على الأبعاد أو الانفصال أو الحرمان أو المنع أو ما يتصل بذلك من المعاني المتعلقة بالضرر وشدة الأثر وبلوغها مبلغا قويا غير معلوم الذي ترد الصورة البيانية موضحة معالم ذلك وواضحة الألفاظ الدالة عليه موضعها الدقيق .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (٩) : « الذي تقوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله » قال أبو عبد الله : « يترككم أعمالكم وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا أو أخذت له مالا » .

وهنا يتضح من معالم الفكرة ما كان خافيا ، حيث أخرج مالم يدرك لخطره وأثره مخرجا اتضح عبره هولته وشدة أثره . وانما تم ذلك في إطار هذا الاختيار الدقيق لألفاظ الصورة التشبيهية التي ارتكزت على

(٨) الترمذى : ٧٦/٢ .

(٩) مختصر صحيح البخارى : ١٤٨/١ .

الانتقاء لفظية « وترى » الدالة على القتل أو الإخذ أو هما معا للتعبير عن كمال المنقذ ويتمم التجرد مما يشير الى جوهر الفكرة وينم عن عظيم قيمه القضية التي يوضحها التعبير بوجه عام وهي أهمية صلاة العصر وما يترتب على أدائها في وقتها ثم ما يترتب على فواتها وعدم المحافظة عليها من أمور .

ويتجه التعبير البياني في الحديث النبوي الشريف اتجاها نفسيا يضع عبره معالم الفكرة واضحة الحدود والملاحم .

فحين يكون الموقف متطلبا المعالجة النفسية أو مرتكرا على الجانب الشعورى أو منطلقا منه ترد الصورة البيانية مشتتلة على الألفاظ الدالة على ذلك الموقف والمعبرة عنه أدق تعبير مقدمة المعالجة المنشودة ومؤثرة بالقدر الذى يتطلبه الموقف ويقتضيه المقام .

ويتخذ التعبير هنا اتجاهات كثيرة ، تتنوع بتنوع مجالاته وقضاياها .

منها قيام التعبير على الجمع بين اللفظة ونقيضها فى اطار يتكرر عبره هذان النقيضان ايضا لدلالة واحدة يلتقيان لديها ، وتأكيدا لفكرة يعبران عنها ، وتأثيرا بصورة بيانية تمثل جانبا من الأسلوب المشتمل عليهما .

ومن ذلك ما روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال (١٠) : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به فى النار » .

فمجالات التحديد الدلالى للفكرة هنا قائمة على عدة جوانب .



منها : اختيار الألفاظ ذات الدلالة النفسية وهي « أحب - يحب - لا يحبه - يكره - كما يكره » وهي قائمة على علاقات وثيقة فبعضها قائم على الاستنطاق ، وجميعها مترابط في إطار عام يقوم على فكرة التقابل .

ومنها : كون هذه الألفاظ ذات الدلالة النفسية متفقة مع طبيعة القضية التي تعبر عنها وهي : « فضل الايمان وعظيم أثره » مما يتعلق بالقلب والنفس ومجالات الشعور التي لا يدرك ما يتعلق بها الا باستخدام ما يدل عليها من الألفاظ ووضعها موضعها من الأساليب الدالة التي تقوم بتحقيق الجانبين التأثري والتعبيري في آن واحد .

ومنها : الاجمال ثم التفصيل واستخدام ما يحقق الجانبين من وسائل التعبير كلفظ العدد وضمير الجمع من جهة ، والتكرار والايضاح القائم على التفصيل المشتمل على أساليب التفصيل وانقصر ثم التشبيه .

ومنها : اخراج كوامن المعنى وغوامضه مخرجا حسيا قريبا للادراك بموضع مقياس بياني دقيق له كما هو الحال في بيان فكرة وجوب الحرص على الايمان والمحافظة على جوهره بهذا التشبيه الدقيق : « وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار » .

ومن اتجاهات الأسلوب في هذا المجال تحقيق الدلالة النفسية للتعبير وغايتها عن طريق اختيار الألفاظ الملائمة للموقف في إطار من الایجاز والاكتفاء بذكر الدليل على بلوغ المعنى مبلغا معيناً ، مع انتقاء ما يلائم ذلك من الصور البيانية المعبرة . ومن ذلك ما روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (١١) «من أشد أمتي لى حبا ناس» يكونون بعدى أبود أجد هم° لو رآنى بأهله وما له » .

فقد تحقق إيضاح الفكرة وبيان حدودها هنا عن طريق الجمع بين جملة من الخصائص الأسلوبية •

منها : اختيار ما يرتبط ارتباطا وثيقا بالفكرة من الألفاظ والأساليب كما فى « أشد ... حبا » مما يعبر عن بلوغ درجة الحب أقصاها باستخدام صيغة التفضيل مع ودرود هذا التمييز بعدها • وكذلك « يود » الدالة على الحب مع التمنى والحرص ثم : « لى » الدالة على امتناع الحدث لامتناع شرطه مما يلازم المعنى ويحقق دلالة ما سبق ذكره فى « يكونون بعدى » •

ومنها : استخدام الضمائر استخداما دالا على ما يتضمنه الأسلوب من شدة الحب مع الحرص وشدة التعلق والتلازم كما هو الحال فى استخدام « إيا المتكلم » مع الألفاظ « أمتى » ، « لى » ، « بعدى » « رآنى » واستخدام ضمير الغائب « الهاء » مضافا إليه مع الألفاظ « أهله » ، « ماله » •

ومنها : استخدام الكناية الدالة على بلوغ المعنى أقصاه فى « لى رآنى بأهله وماله » فى تلازم تام مع الفكرة التى سبقتها مما يمثل سببا لها فى : « من أشد أمتى لى حبا ناس يكونون بعدى » •

ومنها فضلا عن ذلك : هذا التحديد الزمنى فى « يكونون بعدى » مما يتضمن جانبا عاما يتصل بمطلق الزمن الذى يأتى بعده صلى الله عليه وسلم ، وجانبها خاصا يخرج بمقتضاه زمن وجوده صلى الله عليه وسلم •

ومما يتعلق بأحوال النفس ومجالاتها من الألفاظ التى تحمل دقيق المعانى وقوى التأثير ما يكون مرتبطا بقضايا كلية عامة لها ما يتعلق بالعديد من المجالات والكثير من الدوائر الشعورية التى تشكل مجتمعة هوقفا معينا واسع المجال والمفهوم •

ومن ذلك لفظ الغربة الذي ورد معبرا عن قضيتين متلازمتين « قضية الحياة وما يتصل بها من القصر والسرعة ويتعلق بها من مظاهر عابرة ، وقضية المصير وما يتصل به من الخلود والدوام والأمر الثابتة •

ومما ورد فيه معنى الغربة حاملا هذه الدلالة ما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال (١٢) : « أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ «عَابِرٌ سَبِيلٍ» •

فلما كانت أحوال النفس تألف الدنيا وتتعلق بما فيها ، ولما كانت فكرة الاغتراب عنها مع الوجود فيها أمرا غير مألوف مما قد يصعب فهمه واستيعابه به والعمل به ورد التعبير البياني دقيقا في صرف الذهن اليه وتقريب ما بعد منه وذلك بمجموعة من الوسائل اللغوية والبلاغية •  
منها : اختيار صيغة الأمر « كن » الدالة على طلب احداث أمر لم يكن موجودا •

ومنها : اخراج المألوف القريب مخرج المستغرب البعيد •  
ومنها : تقريب الطلب المستغرب بأسلوب التشبيه ليصير في حكم الممكن •

ومنها : العطف المقرب للأفكرة والموضح دلالة اللفظة •  
ومنها : الايجاز الدال المتضمن الكثير من المجالات المعنوية والشعورية •

ومنها فضلا عن ذلك قوة التأثير بجذب الأذهان الى الحقيقة الغائبة عنها ، وتوجيه التعبير الى مخاطب معين مع كون الأسلوب عاما مجردا

والقضية كلية شاملة • هذا الى جانب ما حمله لفظ الغربة مما سلف ذكره  
فخصلا عن كونه حاملا دلالة الترك والرحيل والحرص على غاية أبعد من  
المرئى القريب ، مع ما يلزم ذلك من مجالات شعورية متعددة •

ومما يتصل بهذه المجالات النفسية ما يكون متعلقا بمواقف خاصة  
تتطلب نوعا مميزا من المعالجة الأسلوبية •

وهنا يرد الأسلوب فى شكله العام متسما بالاطالة المتضمنة الكثير  
من عناصر التمهيد والتفصيل ، والتنوع الأسلوبى بين الخبر والانشاء ،  
والتقرير والتصوير وغير ذلك من أنماط التعبير التى تختلف باختلاف  
المواقف وتنوعها •

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لما  
فتح حنيناً قسم الغنائم فأعطى المؤلفلة قلوبهم ، فبلغه أن الأنصار  
يجبون أن يصيبوا ما أصاب الناس فقام رسول الله ﷺ فخطبهم فحمد  
الله وأثنى عليه ثم قال (١٣) : «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً  
فهداكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ ومنقرقين فجمعكم الله  
بي؟ ويقولون : الله ورسوله أمن • فقال أما إنكم لو شئتم أن  
تقولوا كذا وكذا ، وكان من الأمر كذا وكذا لأشياء عددها زعم عمرو  
ألا يحفظها فقال : ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والابل  
وتذهبون برسول الله الى رحالكم • الأنصار شعار ، والناس دثار ،  
ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس واديا وشعباً  
لسلكت وادى الأنصار وشعبهم ، انكم ستلقون بعدي أثرة  
فاصبروا حتى تلقوني على الحوض •

فلما كانت الفكرة التي يدور حولها الأسلوب هنا متعلقة بموقف  
نفسى معين ، فان التعبير والمعالجة قد اتخذا طريقهما الى العقل والمشاعر  
من خلال تحديد فكرى واضح للقضية وتأثير نفسى تدريجى مؤد الى  
الاقتناع .

وقد اتخذ ذلك كله طريقه الى التحقق من خلال هذه الأسئلة  
التمهيدية التي تتابعت وأضعة مجموعة من القضايا الفكرية أمام المخاطبين  
فى اطار بلاغى واضح من التقدير والتأكيد والتذكير مما يفضى الى  
تهيئة الأذهان وإثبات القول بموجب ما ذكر .

ثم بلغ تحقيق الأسلوب غايته مبلغا مبنيا على ما سلف من خلال  
هذه الموازنة الدقيقة التي وضعت ° بعداً واضحاً للفكرة، ووحداً فاصلاً  
للقضية فى : « ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والابل ، وتذهبون  
برسول الله انى رحالكم » .

ثم تحققه ذروة المعالجة لدى نقطة التقت لديها جميع الجزئيات  
السابقة من خلال هذه الصورة التشبيهية التي تركزت ضمنها عناصر  
التأثير والتعبير والمعالجة واحلال انفعالات الرضا محل الغضب والفرح  
محل الحزن والقناعة محل الطمع فى « الأنصار شعاع ، والناس دثار »  
ثم ما تلا ذلك من تعبير مؤكداً له وكناية مثبتة دلالاته .

فهنأ لم يرد التعبير البيانى مستقلاً بذاته ، مبادراً الأذهان  
بمضمونه بل ورد بعد تهيئة ذهنية ، وتمهيد فكرى ، وتأثير شعورى مقض  
الى الاقتناع .

وقامت المفصلة والمعالجة على ايضاح الأبعاد ووضع الحدود  
وبيان المسافات المعنوية فى اطار ملموس مستشعر .

وقامت وسائل الارضاء النفسى على أسس واقعية وأسباب

حقيقية •

واستمد التعبير البياني عناصره من واقع المعانى المتعلقة بمشاعر  
الملازمة والقرب مما يناسب ما صدرت عنه القضية من أمور • ورافق  
المعالجة النفسية الخاصة بالمخاطبين معالجة نفسية عامه لغيرهم ، فلم  
يبينق عن الأسلوب قضايا جانبية تتطلب معالجات أخرى •

وهكذا اتسم التعبير فى جملمته بالاتساق الفكرى والشعورى ،  
بجانبيهما العام والخاص ، فى اطار من التدرج والتنوع الآخذين بيد  
المتلقى الى الحقيقة الثابتة والاقنتناع التام •

وينتقل التحديد اندلالى للفكرة المجردة هنا الى نمط آخر من أنماط  
المعالجة النفسية من خلال الارتكاز على أسلوب من الانتقال الفكرى الذى  
يتم فى اطاره مقارنة القضية المنشود معالجتها بصورة تعبر عن هيئته  
يمكن من خلال تأملها تمكن الأثر النفسى المترتب على تلك القضية فى  
النفس والتصوير تنفيرا منها أو ترغيبا فيها •

وقد يقوم ذلك على تصوير هيئة كاملة لموصوف مختلف تمام  
الاختلاف عن الموصوف الذى يهدف التعبير الى معالجة شىء متعلق به •

ومن ذلك ما روى عن أبى سفيان عن جابر أن النبى ﷺ قال (١٤):  
« اذا سجد أحدكم فليعتدل ، ولا يفتثرش ذراعيه افتتراش الكلب » •  
فقد اتضح مضمون النهى هنا عن طريق هذا الانتقال الفكرى من المنهى  
عنه الى تأمل هيئة ما اقتترن به من الصور الحسية التى يمكن من خلال  
تأملها ورسوخها فى التصور والمشاعر حصول مشاعر النفور والاشمئزاز

اللذين يتم من خلال حصولهما الرجوع الى القضية المنهى عنها وتأملها  
فى ضوء ما تحقق من الموقف النفسى الصادر عن تلك المشاعر . وهنا  
تتمكن دلالة التعبير وتأخذ طريقها الى المعالجة ، ويثبت الأثر النفسى  
ملازما لها مما يترتب عليه رسوخ ذلك فى السلوك العملى المنشود .

وقد يقوم ذلك على تصوير جانبى لهيئة مخصوصة متعلقة بنفس  
الموصوف الذى يهدف التعبير الى معالجة أمر متصل به .

ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عباس أنه رأى عبد الله بن الحارث  
يصلى ورأسه معقوص من ورائه فقام فجعل يحكّه فلما انصرف أقبل الى  
ابن عباس فقال : مالك ورأسى ؟ فقال : انى سمعت رسول الله ﷺ  
يقول (١٥) :

« انما مثل هذا مثل الذى يصلى وهو مكتوف » .

ويبلغ التأثير النفسى أشد درجاته ارتباطا بما ينطوى عليه المضمون  
من أمور ، وما يترتب عليه من نتائج ، ويتعلق به من شدة الأثر أو كبير  
الضرر أو ضعة الشأن .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (١٦) :  
« حملت على فارس فى سبيل الله ، [ فابتاعه أو ] فأضاعه الذى كان  
عنده ، فأردت أن أستريه [ منه ] ، فظننت أنه يبيعه برخص ،  
فسألت [ عن ذلك ] النبى ﷺ ؟ فقال :

« لا تشتري ، ولا تعد فى صدقتك ، وان أعطاكه بدرهم ،  
فان العائد فى صدقته » ( وفى رواية : هبته ) كالعائد ( وفى رواية :  
كالكلب يعود ) فى قيئه .

(١٥) صحيح مسلم : ١٢٧/٢ .

(١٦) مختصر صحيح البخارى ٣٥٤/١ .

وقد يقوم عنصر التأثير النفسى بتحقيق غاية التعبير من خلال  
رسم هيئة خيالية للموصوف صدورا عن طبيعته وصفته وأثره •  
وحيثنذ يقوم التصوير بدور التأمل لتلك الهيئة الخيالية محققا من  
خلال ذلك الكشف عن الكثير من كوامن الموصوف وما يخفى من الحقائق  
المتعلقة به •

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله  
ﷺ قال (١٧) :

« تجدون الناس معادن ، فخيرهم فى الجاهلية خيارهم فى  
الاسلام اذا فقهوا ، وتجدون من خير الناس فى هذا الأمر أكرههم له  
قبل أن يقع فيه ، وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذى يأتى  
هؤلاء بوجهه وهؤلاء بوجهه » •

فتلك الهيئة الخيالية للموصوف ذى الوجهين هيئة توضح الكثير من  
صفاتة وتحدد الكثير من الأبعاد الدلالية لتلك الصفات وتقوم بالفصل  
الواضح بين جانبين متناقضين مجتمعين فيه ، مما ينشأ عن استيعابه  
وتأمله التعجب منه ثم النفور من قبحه وسوءه •

ومن اتجاهات التعبير البيانى فى هذا المجال الذى تقوم من خلاله  
عناصر هذا التعبير بدور التحديد الدلالى للفكرة الذهنية المجردة اتجاه  
يتم خلاله تحقيق جميع الجوانب الدلالية والآثار النفسية من خلال  
التركيز اللغوى للصورة البيانية فى شكل من أشد صور التركيز  
والتحديد •



ومما يوضح ذلك ما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (١٨) :

### « الصيامُ جنةٌ »

فكل ما يتعلق بلفظ « جنةٌ » من الحفظ والستر والمنع، وما يتعلق بصاحبها من تجنب للمخاطر وبعد عن أسبابها وما يرتبط بجميع ذلك من نتائج وغايات وآثار شعورية اجتمعت كلها فى إطار واحد لدى هذا اللفظ المقترن بلفظ « الصيام » والموضح طبيعته وفوائده وغاياته وآثاره .

فهو تعبير بيانى جامع من خلال ايجازه ، قوى من خلال تركيزه وتأثيره ووضوحه .

وهكذا تتعدد وسائل الأساليب البيانية فى التحديد الدلالى للمعانى الذهنية المجردة فى الحديث النبوى الشريف وتتخذ الكثير من الاتجاهات وتظهر فى العديد من الأنماط ظهورا يتضح عبره مايمتاز به هذا الأسلوب من خصائص تعبيرية وقد رات تأثيرية من خلال ما يرد عليه فى كل حال من ملاءمة للموضوعات المتنوعة ، واتساق مع الأوضاع والأحوال والشخصيات العديدة مما ترتب عليه وروده على هذه الشاكلة ذات الخصائص البلاغية والأسلوبية محققا غاياته فى كل حال .

(١٨) صحيح مسلم ٢٠٧/٣ .

## الفصل العاشر

### من الخصائص البلاغية واللفوية للأسلوب القصصي

يتميز الأسلوب القصصي في الحديث النبوي الشريف بالكثير من الخصائص والسمات التي تشكل في مجملتها مجموعة من الأسس التي تنطاق منها بلاغة النبي ﷺ محققة الكثير من الأغراض والمقاصد مما يمنحها طابعا فريدا مصطبعا بما صدرت عنه من شخصية لها ملامحها وصفاتها وقدرها من سمو الروحي والتميز الديني .

فمن الواضح - دون شك - أن لهذا الأسلوب ما يميزه من الخصائص العامة والخاصة عن سائر الأساليب القصصية التي تنتمي الى فنون الأدب المعروفة .

ذلك أن منطلقه وأساسه الصادق والواقعية ، اللذان يستمدان معنيهما وقيمتها من تلك القوة التي تتضمنها مجموعة الصفات الخلقية والدينية المجتمعة في شخصية النبي ﷺ .

يضاف الى ذلك ما يتميز به القصص النبوي من قوة التركيز والتأثير والمغزى ، بفضل ما يتضمنه من تنسيق لغوي وبيان غير متكلف وقدرة على المعالجة النفسية والفكرية للقضايا التي يتضمنها ويؤثر بها في مختلف طبقات المجتمع على تنوع مستوياته وثقافته .

ومن المعروف أن هذه السمات وتلك الخصائص قد سمت بهذا الأسلوب الى الحد الذي جعل منه نمطا فريدا من الأساليب التي تتأى عن كل ما لا ينفق وجوهها من سمات القصص الأدبي أو الفني الشائع على ألسنة الأدباء مما يابح فيه الخيال دورا كبيرا و'تتسَّق' أحداثه وسائر عناصره وفق اتجاه الكاتب وغاياته وأسأوبه الخاص .

والذي يغلب على بعض الأذهان في هذا المجال أن القصة في الحديث الشريف هي تلك القصة التي يرويها النبي ﷺ عن الماضين فقط كقصة جريح صاحب الصومعة (١) ، والرجل الذي اقتترض ألف دينار (٢) وغيرهما .

ولكن المتأمل للأحاديث بشكل عام يستطيع أن يقف على مجالات أوسع نطاقا وأرحب من دائرة الماضى وأحداثه .

ذاك أن المواقف الدينية وما يرتبط بها من قضايا وأحداث كل لا يتجزأ ، يمثل فيه الماضى والحاضر والمستقبل مجموعة من الحلقات المتصلة التي يعد كل منها جزءا من هذا الكل ولمحا من ملامحه ومشهدا يظل ماثلا أمام الفكر والخيال والنفس بما له من مغزى وغاية .

فالتدراسة هنا سوف لا تتجه — فقط — الى بحث خصائص وسمات الأسلوب القصصى الذى رواه النبي ﷺ مما يتعلق بالماضين ، بل تتجه أيضا الى كل أسلوب يحمل الملامح والسمات والخصائص القصصية التي وقعت فى عهد النبي ﷺ ، مما يصور العديد من المشاهد والأحداث التي تعد نماذج فريدة تحتذى ومواقف مؤثرة يقاس عليها .

ومما يجدر الوقوف لديه فى هذا المجال ، ما يجمله الأسلوب القصصى من ميزات وخصائص تصويرية هادفة الى العديد من الغايات مما يمنحه قيمته ويجعله نمطا متميزا من الأساليب ذات القيمة الفنية والأثر المميز .

فمن أهم ميزات هذا الأسلوب قدرته على نقل المعانى الذهنية والأحوال النفسية من حالة تجريدية غامضة الى حالة من التشخيص

(١) انظر مختصر صحيح البخارى ٢٨٤/١

(٢) انظر : مختصر صحيح البخارى ٣٥٧/١

الذى تستند فيه الأحداث المرتبطة بمنطلقات ذهنية وشعورية الى شخصيات ووقائع يتاح للعقل تأملها ، وتفسح للنفس فرصة الانفعال بها وتكوين موقف ازاءها .

فمن خلال ما يتضمنه الأسلوب القصصى من عناصر الاثارة والتشويق تتم متابعة الأحداث منذ تبدأ الى أن تنمو شيئاً فشيئاً حتى تصل الى ذروتها ، ومعها يسير التطور الشعورى والترابط الفكرى ليبلغا ذروتها عند نقطة تنقضى لديها شتى جزئيات المعنى ، وعندئذ يكون الذهن قد تهيأ لقبول نتيجة ذلك كله ومعزاه ، فتتضح له الحقائق وترسخ فيه المعانى التى تؤتى ثمارها الفكرية والشعورية ممتدة عبر فترات رمنية طويلة دون توقف .

ويرافق الأسلوب القصصى الخيال الذى يجد من الشخصيات والأحداث والاصوات والانفعالات وأنماط الصراع فرصته للمشاهدة والتأمل ، ويؤيده فى ذلك الفكر الذى يأخذ فى الحكم على ما يرى ويسمع فيبدأ فى استكشاف الصواب والخطأ ، ويعيد معرفته المجرمله بالأحداث السابقة حيث يتدبرها ويتأملها ويحكم عايمها ويعرضها على المشاعر التى تأخذ بدورها فى التنبه الى المسار الصحيح رافضة ما يستفزها ، مؤيدة ما يرضيها، متظعة الى التهذيب وتعديل ما اعتادته من الأوضاع الخاطئة .

ويمد الأسلوب القصصى — فضلا عن ذلك كله — الذاكرة بظاظة مركرة من المعانى والمثل المجسدة فى صور حية تظل تستعيدها كلما استدعاها موقف من المواقف .

والقصة فى الحديث النبوى الشريف — كما سلف الذكر — هى نمط خاص من الأساليب ، تنطلق فيها الأحداث من قيود الزمان والمكان لتصير الى التجرد المطلق ، ومن قيود الشخصيات المحدودة التى أسندت

أليها في إطارها القصصي لتصير الى المثال والنموذج المحقذي الذي يظل  
 ماثلا في الأذهان في كل موقف يستدعيه وفي كل لحظة مهما اختلفت الاماكن  
 والمجتمعات والبيئات •

وتتعدد أنماط الأسلوب القصصي في الحديث الشريف تعددا ظاهرا  
 وتتنوع مجالاته تنوعا ملحوظا •

فمنه المشاهد الواقعي الملموس ، ومنه الغيبي المروي المتصل  
 بالماضي أو الحاضر أو المستقبل •

ومنه ما يتعلق بقصص القرآن الكريم ، وما يتعلق بمواقف النبي  
 ﷺ مع جبريل عليه السلام ، ومع أهل بيته ﷺ ، ومع الصحابة رضی الله  
 عنهم أجمعين ، وما يتعلق بسائر طبقات المجتمع في علاقات أفراد  
 بعضهم ببعض أو بغيرهم من الكفار واليهود •

ويأتي في محل الصدارة من هذا كله ذلك النمط القصصي المرتبط  
 بقصص القرآن الكريم مفصلا بعض ما أجمله ومبيننا مغزاه وبعض  
 جوانبه •

وهنا نجد مجالا رحبا للأسلوب القصصي الممتاز الذي يعرض  
 القصة القرآنية عرضا تعليميا لافتا الذهن الى ما تتطوى عليه من أسرار  
 وتهدف اليه من غايات ،

ومما يساعد على استكشاف خصائص الأسلوب وسماته هنا ربطه  
 بمناسبته ومنطقه حتى يوضع السياق كاملا واضح المعالم أمام العقل  
 فيستطيع فهم المعنى الكلي الذي يدور في اطاره •

ومن أمثلة ذلك قصة موسى عليه السلام مع الخضر مما قصه  
 الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف ، فقد خص النبي ﷺ هذه القصة

بحديث طويل يوضح فيه الكثير من التفاصيل التي تفسر بعض جوانب هذه القصة المباركة .

فمن سعيد بن جبير قال (٣) : قلت لابن عباس إن غوفاً البكالي يزعج ان موسى عليه السلام صاحب بنى اسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر عليه اسلام ، فقال : كذب عدو الله ، سمعت ابي بن حبيب يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قام موسى عليه السلام خطيباً فى بنى اسرائيل فسطط اى الناس اعلم لا فقال : انا اعلم ، قال فعتب الله عليه اذ لم ير اذ اعلم اليه ، فاوحى الله اليه ان عبدا من عبادى بمجموع البحرين هو اعلم منك ، قال موسى : اى رب : كيف لى به لا فقيل له . احمله حوتاً فى مكثل فحيث تفقد الحوت فهو ثم . فانطلق وانطق معه فتاه وهو يوشع بن نون فحمل موسى عليه السلام حوتاً فى مكثل انطلق هو وفتاه يمشيان حتى اتيا الصخرة فرقد موسى عليه اسلام وفتاه فاضطرب الحوت فى المكثل حتى خرج من المكثل فسقط فى البحر ، قال : وامسك الله عنه جرية الماء حتى كان مثل الطاق فكان للحوت سرباً ، وكان لموسى وفتاه عجباً ، فانطلقا بقبية يومهما وليلتها ونسى صاحب موسى ان يخبره فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه : اتنا غداً اقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٤) ، قال : ولم ينصب حتى جاوز المكان الذى امر به ، قال : ارأيت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذنا سبيله فى البحر عجباً ، قال ذلك ما كنا نبغ فارتد ا على آثارهما قصصاً ، قال يقصان آثارهما حتى اتيا الصخرة

(٣) صحيح مسلم : ٢٣٠/٥ ، ٢٣٥ .

(٤) النصب : التعب ، قالوا : لعنه النصب والجوع يطلب الغدا .

• محمد كور به نسيان الحوت .

• انظر : صحيح مسلم ٢٣٣/٥ .

فراى رجلا مسجى (٥) عليه بثوب فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: انى يار صك السلام؟ قال: انا موسى، قال: موسى بنى اسرائيل؟ قال: نعم. قال: انك على علم من علم الله علمك الله لا اعلمه وانا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، قال له موسى عليه السلام: هل اتبعك على ان تعلمنى مما علمت رشدا؟ قال: انك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، قال: ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا، قال له الخضر: فان اتبعنتى فلا تسالنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا، قال: نعم، فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكنماهم ان يحملوهما، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول فعمد الخضر الى لوح من الواح السفينة فنزعه، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول (٦) عمدت الى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئا إمرا، قال: ألم أقل انك لن تستطيع معى صبرا؟ قال: لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسرا، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال موسى: اقتلت نفسا زكية بغير نفس؟! لقد جئت شيئا نكرا. قال: ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا؟ قال: وهذه أشد من الأولى، قال: ان سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا، فانطلقا حتى اذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه، يقول مائل: قال الخضر بيده هكذا فأقامه، قال له موسى: قوم أتيانهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا، لو شئت لاتخذت عليه أجرا. قال: هذا فراق بينى وبينك، سأنبئك بتأويل ما أم تسقط عليه صبرا.

• (٥) المسجى: المغطى

• (٦) أى بغير أجر

• قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لودِ دَرَبَتْهُ أَنَّهُ كَانَ صَبْرًا حَتَّى يُقْصَرَ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا • قال: وقال رسول الله ﷺ: كانت الأولى من موسى نسياناً ، قال : وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر في البحر فقال له الخضر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر • قال سعيد بن جبَيْر: وكان يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا • وكان يقرأ : وأما الغلام فكان كافراً •

وهنا تتعدد العناصر القصصية ويبنى بعضها على بعض في إطار متلاحم تجتمع جزئياته عند دلالة واحدة •

وبه نجد وقفة متأنية عند كل عنصر ليسهم في القاء الضوء على جانب من جوانب المعنى العام ومغزاه •

ومن ذلك ما يتعلق بسبب القصة ومنطقها حيث اتضح موقف موسى راداً على سائله قائلاً : « أنا أعلم ، قال : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه » وهنا يلتقى المنطق ونقطة البدء مع المغزى والغاية التي عندها تنتهي القصة وهي دلالة مؤكدة سعت جميع مراحل القصة لايضاحتها وبيانها • انها : وجوب رد العلم الى الله تعالى في كل حال • ومنها ما يتعلق باسم الخضر والمهيئة التي وجدته موسى عليها ومكانه ، وكيف التقيا ، وماذا قال له موسى حال لقائه ، وما دار بينهما من حوار •

• ومنها ما يتعلق بالحوت وفقده وكيف خرج من المكمل وكيف اتخذ سبيله في البحر سرىا ؟ ولماذا كان لموسى وفتاه عجباً ؟ ومنها ما يتعلق بفتى موسى وايضاح اسمه •

• ومنها ما يتعلق بحال النصب الذي أصابهما وما دلالاته ومتى كان •



ثم ما يتعلق بالسفينة وأهلها وكيف ركبناها ؟ وكيف خرقتها الخضر ؟  
وكذلك ما يتعلق بالغلام وكيف كان حاله حال قتل الخضر له ؟ وكيف  
هتته الخضر ؟ وكيف كان هذا الموقف أشد من سابقه .

وفى النهاية ما يتعلق بأهل القرية والجدار المائل بها ، وكيف  
لثامه الخضر بيده .

ويمنحنا الأسلوب فضلا عن ذلك كله جوانب من شخصيه النبي  
محمد ﷺ ووقع هذه القصة على نفسه ودرجة انفعاله بها من خلال  
تعليقه على المواقف المتعددة بوجه عام ، وتعليقه على موقف موسى  
فيها بوجه خاص فى قوله ﷺ « يرحم الله موسى لو ددت أنه كان صبر  
حتى يقص علينا من أخبارهما ، وتعليقه ﷺ لموقفه الأول « كانت الأولى  
من موسى نسيانا » .

ثم وصفه ﷺ لنهاية هذه الرحلة مما يوضح مغزى القصة ويؤكد  
حكمة الله منها لترتبط البداية بالنهاية فى احكام شديد واتصال وثيق .  
ومما يتعلق بالحياة الواقعية فى عهد النبي ﷺ ومواقفه المتعددة  
فيها ، نجد نماذج قصصية تصور لنا جوانب من الحياة ومشاهدها ،  
والطبيعة وأحوالها ، وما يجرى فيها من قضايا ومواقف عديدة .

وهنا نجد أنماطا من الأساليب التى تحتشد فيها الصور والانفعالات  
والشخصيات وتسودها الحركات والأصوات ، وترى من خلالها هيئات  
الأشياء مصحوبة بآثار المواقف الواقعة عبر الكلمات الذاللة المعبرة .

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه  
يقال (٧) : « أصاب الناس سنة » ( وفى رواية : قحط ) على عهد النبي

ﷺ ، فبينما أنبى ﷺ يخطب [ على المنبر ] [ قائماً ] فى يوم الجمعة ،  
 قام ( وفى روايه : دخل ) أعرابى [ من أهل البدو ] [ من باب خان وجاه  
 المنبر ] [ نحو دار القضاء ، ورسول الله ﷺ قائم ، فاستقبل رسول الله  
 ﷺ قائماً ] فقال : يا رسول الله هلك المال ، وجاع ( وفى روايه :  
 هلك ) العيال ( ومن طريق أخرى : هلك الذراع ، وهلك الشاء )  
 ( وفى أخرى : هلك المواشى ، وانقطعت المسبل ) فادع  
 الله لنا [ أن ييسقينا ، ( وفى أخرى : يعيثننا ) ] ، فرفع  
 يديه يدعو [ حتى رأيت بياض ابطنه ] ، [ اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ،  
 اللهم أغثنا ] ، [ ورفع الناس أيديهم معه يدعون ] ، [ ولم يذكر أنه  
 حوّل رداءه ولا استقبل القبلة ] [ ولا والله ] ما نرى فى السماء [ من  
 سحب ولا ] قزعة ، [ ولا شيئاً ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ] ،  
 ( وفى رواية : قال أنس : وان السماء لمثل الزجاجة ) ، قال : فطلعت  
 من ورائه سحابة مثل التترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت [  
 فوالذى نفسى بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم  
 ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحدّر على لحيته ﷺ ، ( وفى رواية :  
 فهاجت ريح أنشأت سحاباً ، ثم اجتمع ، ثم أرسلت السماء عزاليها  
 [ ونزل عن المنبر فصلى ] ، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا ) ،  
 ( وفى رواية : حتى ما كاد الرجل يصل الى منزله ) ، فمطونا يومنا  
 ذلك ، ومن الغد وبعد الغد ، والأذى يليه حتى الجمعة الأخرى [ ما ثقّل ] ،  
 حتى سألت مشاعب ( ٨ ) المدينة [ ، ( وفى رواية : فلا والله ما رأينا  
 الشمس سقا ) •

وقام ذلك الأعرابى أو غيره ( وفى رواية : ثم دخل رجل ، من  
 ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب ، فاستقبله  
 قائماً ) فقال : يا رسول الله : تودّم البناء ( وفى رواية : تهدمت البيوت •

وتقطعت السبل ، وهلكت المواشى ) ( وفى طريق بشق (٩) المسافر ،  
 ومنع الطريق ) وغرق الماء ، فاذع الله [يجبسه] لنا ، [فتبسم النبي  
 ﷺ] فرفع يده ، فقال : اللهم حوالينا ، ولا علينا ، [النهم على رؤوس  
 الجبال والاكام (١٠)] والضراب [ ١١ ] وبطون الاودية ومنابت  
 الشجر [ ، فما [ جعل ] يشير بيده الى ناحية من السحاب الا انفجرت  
 مثل الجوبة (١٢) ، ( وفى رواية: فنظرت الى السحاب تصدع حول  
 المدينة [ يميننا وشمالا ] كانه اذليل ) ( وفى اخرى : فانجابت عن  
 المدينة انجباب الثوب ) [ يُمطر ما حوالينا ولا يمطر فيها شيئا ( وفى  
 طريق : قطرة ) ] وخرجنا نمشى فى الشمس [ ، يريهم الله كرامه نبيه  
 ﷺ ] واجابة دعوته [ ، وسال الوادى [ وادى ] قناة شهرا ، ولم يجىء  
 أحد من ناحية الا حدث بالجود » •

وهنا نجد نمطاً أسلوبياً متميز السمات متعدد الخصائص ، ينقسم  
 الحديث فى اطاره الى قسمين متصلين بنى الثانى منهما على الاول  
 بناء ملاحما • وكل قسم منهما يتضمن مشهدا مستقلا كاملا مشتملا على  
 مجموعة من الصور الجزئية المتصلة بعضها ببعض اتصالا تصاعديا نمت  
 من خلاله هذه الجزئيات حتى بلغت ذروتها واتقت لدى دلالة واحدة •

ومنطلق ذلك كله يلحظ بوضوح من خلال ذلك الاطار العام الذى  
 تبدأ منه الأحداث حيث « أصاب الناس سنة على عهد النبي ﷺ »  
 وفى ذلك بيان لأهمية الموقف وخطورته •

(٩) أى قطع به السير •

(١٠) الاكام بكسر الهمزة وقد تفتح وتمد جمع ( اكمه ) وهو التراب •

المجتمع وقيل غير ذلك •

(١١) الضراب جمع ظرب وهو الجبل المنبسط ليس بالعالي •

(١٢) الجوية الحفرة المستديرة الواسعة •

وهنا يبدأ الأسلوب القصصى فى وضع سمات الصور وملامحها ، حيث نرى تحديدا دقيقا للمكان والزمان والموقف والشخصيات ، « فبينما الرسول ﷺ يخطب [ على المنبر ] [ قائما ] فى يوم الجمعة ، قام أعرابى [ من أهل البدو ] من باب كان وجاه المنبر [ . . . »

ثم يتضمن هذا الموقف منطلقا لموقف آخر يشكل محور الأحداث وغايتها ، وفيه تتتابع المشاهد وتظهر المفاجآت التى تتخذ شكل صور كاملة بتطورها وشمولها وتولد بعضها من بعض .

وفيه يأخذ الأسلوب الكثير من سمات الدقة التعبيرية الدالة ، سواء فى ذلك ما يتعلق بموقف الأعرابى وانفعاله والمكان الذى دخل منه ، ونص الكلام الذى وجهه للنبي ﷺ ، أو ما يتصل بالنبي ﷺ والمكان الذى كان واقفا فيه ، واليوم الذى جرت فيه هذه الأحداث ، واستجابته ﷺ الفعلية للأعرابى من جهة ، وللموقف كله من جهة ثانية، وهيته حال الدعاء ، ونص الدعاء الذى نطق به ، وما فعله الناس من حوله ، وصفة السماء حينئذ ، وصفة السحابة التى ظهرت فجأة ، ودلالة ذلك على سرعة استجابة الله سبحانه وتعالى هذا الدعاء ، ثم ما ترتب على ذلك وأرتبط به من صور ومشاهد بلغت ذروتها لدى هذا المشهد الدال : « فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا ) ، ( وفى رواية : حتى ما كاد الرجل يصل الى منزله ) ، ثم توضيح طول مكوث ذلك الحدث فى أيام : « فمطّرنا يومنا ذلك ، ومن الغد وبعد الغد والذى يليه حتى الجمعة الأخرى [ ما تقلع ] ، حتى سألت مئاعب المدينة [ ، وفى رواية : فلا والله ما رأينا الشمس ستا ) .

ويشكل هذا المشهد بجميع آثاره منطلقا لما يليه ، كما يشكل الموقفان معا كلا متلاحم الأجزاء ، يتقابل فيه مضموناهما ويتكاملان فى تآكنا واحد ، وتتحد فيهما العناصر اتحادا تاما .

فهناك استعانة لطيب المطر ، وهنا استعانة من آثار المطر ، وهناك الموقف في المسجد في يوم الجمعة ، وهنا الموقف في المسجد في الجمعة التي تلتها ، وهناك أعرابي يدخل مستغيثا وهنا يدخل الأعرابي أيضا مستغيثا ، وهناك النبي يدعو ملبيا النداء ، وهنا كذلك يدعو ملبيا ، رافعا يديه في الحالين ، وينتهي الموقفان بالاستجابة السريعة التي تتفق ونص الدعاء •

ومما يميز دقة النبي ﷺ وبلاغته هنا تخيره الدقيق للكلمات المناسبة للموقف في الحالين ، ففي حال الاستسقاء تخير هذا الدعاء الموجز المباشر الذي يؤدي المعنى ويحمل شعور الافتقار الجماعي وشدة الاحتياج ومعنى التضرع « اللهم أغثنا » ، ثم كرهه تأكيدا والحاجة وتقرييرا ، واتفاقا مع النطاق الذي صدر عنه حيث « هلك المال ، وجاع » ( وفي رواية : هلك العيال ... » الخ وكلها كنايات عن شدة القحط وما بلغ إليه من درجة الضرر •

وفي حال مقابل لذلك نجد براعة التخير كذلك للألفاظ ، فالموقف في ظاهره يقتضى الدعاء بطلب كف المطر عن السقوط حيث « تهدم البناء » ( وفي رواية : تهدمت البيوت ، وتقطعت السبل وهلك المواشى ) ( وفي طريق بشق المسافر ، ومنع الطريق ) وغرق المال « ولكن الدعاء يرد دقيقا محمدا هادفا : « اللهم حوالينا ، ولا علينا [ اللهم على رؤوس الجبال والاكمام وبطون الأودية ومنابت الشجر ] •

ولقد اتسم أسلوب هذا الحديث بشكل عام بالكثير من العناصر والخصائص التي عاونت على إيضاح الموقف وبيان آثاره ، سواء في ذلك ما يتصل بوصف أحوال الطبيعة وصفاتها أو ما يتصل بموقف النبي ﷺ وكلامه أو المواقف المحيطة به •

ومن مظاهر ذلك - فضلا عما سبق ذكره - ارتكاز الكثير من

جوانب الوصف على أسلوب التشبيه كما في مثل « وان السماء لمثل الزجاجة » و « فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس » و « حتى ثار السحاب أمثال الجبال » و « غما [ جعل ] يشير بيده الى ناحية من السحاب الا انفرجت مثل الجوبة » و « فنظرت الى السحاب تصدع حول المدينة كأنه اكليل » و « فانجابت عن المدينة انجياب الثوب » ، وارتكاز الكثير كذلك على أسلوب الكناية مثل : « حتى ما كاد الرجل يصل الى منزله » « حتى سالت مئاعب المدينة » « ما رأينا الشمس ستا » وغير ذلك . أضف الى ذلك ما اشتمل عليه هذا الأسلوب من كلمات وعبارات وصفية دالة على الهيئات والحركات والمصفات والأصوات والأماكن والأزمان مثل : [ قائما ] - فرقع يديه - حتى رأيت بياض ابطه - ما نرى فى السماء من سحاب - فطلعت من ورائه سحابة - فلما توسطت السماء - المطر يتحادر على لحيته ﷺ - فهاجت ريح - فقتسم النبي ﷺ - فما [ جعل ] يشير بيده . . . الا انفرجت - فنظرت الى السحاب تصدع حول المدينة - يمطر ما حوالينا ولا يمطر فيها - وسال الوادى [ وادى ] قناة شهرا . . . ] .

وهكذا يظل المشهد مرتبطا بصورته الماثلة أمام الأذهان ، وبهذا المثل الرفيع الذى يرى ويحس ، وتظل الهيئة مرتبطة بهذه المواقف ، والكلمات مرتبطة بأثارها المدوية فى الأسماع والمشاعر عبر الأزمان الطويلة والمواقف التى تستدعيها وتستعيدها .

وفى غير ذلك من المجالات نجد نماذج من الأحاديث الشريفة التى تصور لنا مواقف من حياة النبي ﷺ مع جبريل عليه السلام مما يترك آثاره القوية ماثلة أمام الأذهان .

ويمكن القول بأن هذا المجال من أهم المجالات التعليمية التى تنتج للقارئ أو السامع فرصة التعلم والاشادة من خلال ما يلاحظه من

المواقف والمناقشات ويستتبطه من توجيهات وآراء فى اطار مشاهد  
قصصية متضمنة الكثير من عناصر التشويق والاقناع .

ومن شأن هذا الأسلوب أن يخرج الفكرة المجردة والمعنى الغامض  
فى اطار حسى واضح مؤكد بدلائله وحججه وأدواته المؤثرة .

ومن أمثلة ذلك ما رواه عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما عن  
النبي ﷺ قال (١٣) : «بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا  
رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر،  
ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبته الى ركبتيه  
ووضع كفيه على فخذه . قال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام . فقال  
رسوله الله ﷺ : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول  
الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان  
استطعت اليه سبيلا . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه .  
قال : فأخبرنى عن الايمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله  
واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . فأخبرنى  
عن الاحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه  
يراك . . . فلبثت مليا ثم قال اى يا عمر : أتدرى من السائل ؟ قلت :  
الله ورسوله أعلم . قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم . »

وتجتمع فى الأسلوب هنا خاصتين هامتين احدهما وسيلة والأخرى  
غاية ، فأما الوسيلة فهى ذلك الاطار المشروق الهادف الذى وضعت  
فيه المعانى ، وهو يتضمن عنصرين هاميين : الأول هو هذا الظهور  
المفاجىء لرجل لا يعرفه الصحابة الحاضرون حينئذ ، مما يمكن أن يظن  
معه أنه غريب قادم من مكان آخر ، وهنا يتأملونه فاذا به « لا يرى  
عليه أثر السفر » واذا بعلامه الواضحة وهيبته ما يدعو الى الوصف

لما ترك في نفوسهم من الآثار وفي عيونهم من الدهشة فهو « رجل شديد بياض الثياب » « شديد سواد الشعر » .

وتستمر عناصر الدهشة والمفاجأة ملازمة لهذه الشخصية جاذبة الأنظار اليها مشوقة الى معرفتها وفهم شيء عنها ، فاذا بالرجل يجلس الى النبي ﷺ على هيئة مخصوصة « فأسند ركبته الى ركبتيه ووضع كفه على فخذه » مما يشعر بأهمية الأمر ويزيد الذهن تطلعا للمتابعة والراقبة والمعرفة .

وفي داخل هذا الاطار المشوق الهادف المؤثر تزيد المضامين التعليمية الهادفة متخذة شكل حوار يدور حول ثلاثة جوانب مخصوصة ، ويأتي الجواب في كل حال محددًا ودقيقًا .

وهنا يرد العنصر الثاني من عناصر هذه الوسيلة ، انه عنصر التصديق من قبل السائل ، مما يثير الأذهان تعجبا « فعجبنا له يسأله ويصدقه » .

وأما الغاية فهي توضيح هذه المعاني وتأكيدا مصحوبة بوسائلها وبيان أهميتها وخطورتها .

ذلك أنها معان مجردة تتصل بالنفس والعقل وتسمو بهما وتؤثر فيهما ، وعليها يكون المعوّل في كل حال ، فاستحقت أن تتخذ من هذا الاطار الهادف وسيلة لتثبيتها ، وأن يكون جبريل عليه السلام والنبي ﷺ مريضين لأهميتها وقيمتها ومعناها .

ومن خلال هذا كله تظل العناصر الأساسية لهذا الأسلوب مجتمعة في ذهن المتأمل انذى دهشه دخول الملك فجأة في هيئة رجل ، واقتربت دهشته بهيئة مخصوصة وصف بها ، وبذلك الانفعال النفسى والتطلع العقلى اللذين ارتبطا بهذه الدهشة ، وتظل تتردد في ذهنه أسئلته

(١) « وما رأيت ملكا فجأة في هيئة رجل » (٢) « وما رأيت رجلا مريضاً » (٣)



الثلاثة المحددة التي اشتمل كل منها على كلمة واحدة « الإسلام » و « الإيمان » و « الاحسان » وتتردد كذلك هذه الاجابات المحددة التي ربما كان قد سبق علمه بها فزادته معرفة لأهميتها وبياننا لوجوب الحرص على السعى اليها وملازمتها .

وهي في جملتها تبين ثلاثة أسس بنى الثانى منها على الأول والثالث على سابقيه فى تصاعد تدريجى بلغت ذروته عند نهايته التي توضح مغزاه وأعلى مراتبه « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وتظل خطورة الموقف وأهميته وهيبته الشديدة مرتبطة بآخر ما ورد به من كلمات مفاجئة « فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

ومما ينفرد به الحديث النبوى الشريف من خصائص متميزة - كذلك - قدرته التعبيرية على الجمع بين الكثير من القضايا والمواقف والقصص فى نص حديث واحد تجتمع فى سياقه مشاهد من الدنيا والآخرة وترد فيه الظواهر الطبيعية الى علها الحقيقية ، وترتبط فيه الأسباب بالمسببات والمقدمات بنتائجها .

فعن جابر رضى الله عنه قال (١٤) انكسفت الشمس فى عهد رسول الله ﷺ يوم مات ابراهيم بن رسول الله ﷺ فقال الناس : انما انكسفت لموت ابراهيم فقام النبى ﷺ فصلى بالناس ست ركعات بأربع سجعات ، بدأ فكبّر ثم قرأ فأطال القراءة ثم ركع نحو ما قام ثم رفع رأسه من الركوع فقرأ فقراءة دون القراءة الأولى ، ثم ركع نحو ما قام ، ثم رفع رأسه من الركوع فقرأ فقراءة دون القراءة الثانية ، ثم ركع نحو ما قام ثم رفع رأسه من الركوع ثم انحدر بالسجود فسجد سجدتين ، ثم

(١٤) صحيح مسلم : ٥٧٠/٢ .

قام فركب أيضا ثلاث ركعات ليس فيها ركعة الا التي قبلها اطول من  
التي بعدها وركوعه نحو من سجود مثنى آخر وتأخّرت الصفوف خلفه  
حتى انتهينا « وقال أبو بكر حتى انتهى الى النساء » ثم تقدم وتقدم  
الناس معه حتى قام في مقامه فانصرف حين انصرف وقد أضت  
الشمس فقال: يا ايها الناس انما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وهما  
لا ينكسفان لموت أحد من الناس « وقال أبو بكر لموت بشر » فاذا رأيتم  
شيئا من ذلك فصلوا حتى تنجى، ما من شيء توعدونه الا وقد رأيته  
في صلاتي هذه لقد جرى بالنار وذلكم حين رأيتموني تأخّرتُ مخافة  
أن يصيبني من لفتحها وحتى رأيته فيها صاحب المحجن يجر  
قصبة ، كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن له قال انما تعلق  
بمحجني ، وان غفل عنه ذهب به ، وحتى رأيته فيها صاحبة الهر  
التي ربطتها فلم تطعمها وام تد عنها تأكل من خشاش الأرض حتى  
ماتت جوعاً ، ثم جرى بالجنة وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى  
قمت في مقامى ، ولقد هدت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها  
للتظروا اليه ، ثم بدا لي ألا أفعل ، فما من شيء توعدونه الا قد رأيته  
في صلاتي هذه » .

فلقد اجتمع في هذا الأسلوب المتميز التفصيل والتركيز ، والفعل  
والقول ، واقترن فيه المعنى بالدليل ، والموقف بأثره ، والنقيض بنقيضه  
الذى يقابله في تكامل متناسق هادف ، كما اجتمع فيه الموصف العام  
بالموقف الخاص .

وفيه تصحيح الخطأ وايضاح الصواب والتعليم بالفعل الذى  
يتلاءم وهول القضية وآثارها ، وفيه — فضلا عن ذلك كله — ترسيخ  
المعنى مقترنا بصورته الحسية المؤثرة المؤكدة في الأذهان والآنفس  
ومقترنة كذلك بأفعال مخصوصة مسندة الى أصحابها مرتبطة بمصائرهم .

كما أنه أسلوب متكامل من منطلقه حتى نهايته تتناسق فيه جميع  
الجوانب لتمثل كلاً واحداً هادفاً .

وامتازت كل من هذه الخصائص بالوضوح وقوة بيان المعنى الذي  
تحققه وتمحه قوة التأثير ، فإذا كان الموقف ينطلق من اساءة فهم  
الناس لظاهرة الكسوف وربطها بموت ابراهيم بن النبي ﷺ فإن الأمر  
يحتاج الى ايضاح ومعالجة مفصلة في هذه الكلمات الواضحة المبينة  
وجوه انصواب : « انما الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وانهما  
لا ينكسفان لوت أحد من الناس . . . فاذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلوا  
حتى تنجى » ، واذا كانت الصلاة هنا هي التي يتطلبها الموقف ويقتضيها  
الحال ، فقد جاءت في موضع الصدارة من المواقف كلها حيث كانت اول  
شيء فعله النبي ﷺ هنا ، ثم طالت مدتها بطول القراءة والركوع  
والسجود حتى شغلت وقتاً طويلاً شكل جوهر جميع الأحداث .

وبقدر ما كان الموقف عظيماً مهولاً مشتملاً على الكثير من الأمور  
الموجبة للدهشة والخوف بما تضمنته من مواقف غير معلومة ، وأعمال  
صامتة تحتاج الى ايضاح ، بقدر ما كان ذلك كله ، جاء أسلوب التفسير  
والايضاح في قوة تركيز وتأثير لم يغفل جانباً يتطلب بياناً دون الوفاء  
بحقه ، فبعد ايضاح عدم وجود علاقة بين الموت والكسوف والخسوف ،  
وبعد ايضاح كون الشمس والقمر آيتين من آيات الله ، وبيان أهمية  
الصلاة حال رؤية الكسوف والخسوف أو رؤية أحدهما ، بعد ذلك كله  
يأتى ذلك البيان الموضح لما تضمنته هذه الصلاة الطويلة من مواقف  
وأحوال .

ويبدأ ذلك البيان بعبارة موجزة مركزة في اطار أسلوب الحصر  
الذي أجمل وشمل كل ما تضمنه الموقف من مشاهد رآها النبي ﷺ في  
صلاته تلك حيث قال : « ما من شيء توعدونه الا وقد رأيته في صلاتي  
هذه » .

ولما كانت العبارة مركزة على هذا النحو الدقيق الشامل فقد حسن أن يليها ذلك التفصيل المؤكد للمعاني في وضوح تام، وربط بين المشهد وأثره في حركة النبي ﷺ في صلاته، وتعليل ذلك ، « لقد جرى بالنار وذلكم حين رأيتموني تاخرت مخافة أن يصيبني من لفحها » ثم وصف ما رأى من مشاهد مهولة تحذيرا وترهيبا وتبينا لهول الفعل وما يرتبط به من مصير محتوم، « وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجبر قصبته في النار » وهنا تعيين للفعل وصاحبه ومصيره، وتأكيد لذلك التلازم التام بين الانسان وفعله حتى انه سمي « صاحب المحجن » ثم تفصيل لما كان يفعله من وجوه الأذى وكيف كان يحتال في كل حال • وعلى نفس هذا النسق الدقيق جاء وصف « صاحبة الهرة » التي ارتبط فعلها بوصفها - كذلك - حتى صار عاما لها تأكيدا للتلازم سالف الذكر وترسيخا لمعنى المسؤولية والحساب والجزاء ، وأتبع ذلك أيضا بتفصيل فعلتها ومبالغتها في الايذاء الى أقصى درجاته « فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا » •

وفي مقابلة مفاجئة وانتقال مؤثر عظيم الدلالة يأتي مشهد على النقيض من ذلك تماما مرتبط - أيضا - بأثره في تحرك النبي ﷺ في صلاته تحركا عكسيا بالنسبة لسابقه. وبتعليله الدقيق لما تضمنه من مواقف أخرى حيث قال : « ثم جرى بالجنة ، وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمت في مقامي، ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها انتظروا اليه ثم بدا لي ألا أفعل » ثم تأكيد كل ذلك وتقريره بتكرار هذه العبارة الموجزة المركزة الدالة : « فما من شيء توعدهونه الا وقد رأيته في صلاتي هذه » ، وهكذا جاء الحديث جامعاً دالاً عظيم التأثير قوى البيان •

وإذا كانت العناصر اللغوية والأسلوبية والبلاغية تتعدد في اطار

الحديث الواحد لتجتمع لدى غاية واحدة مؤدية دلالة بارزة فان  
هناك الكثير من الخصائص العامة التي تتربط من خلالها أساليب العديد  
من الأحاديث النبوية الشريفة مضمونا وغاية وتعبيرا .

وتعدد جوانب هذه الخصائص ومظاهرها بتعدد مجالاتها ووسائلها  
وغاياتها .

فمن ذلك تأكيد مضامين بعض الأحاديث الشريفة لمضامين بعضها  
الأخر بتكرار ورود تلك المضامين وتأكيد غاياتها .

ومن أمثلة ذلك ما ورد في الحديث السابق من قصة صاحبة الهرة  
ومصيرها ، فقد تكرر ورود ذلك المضمون في حديث آخر مستقل بذاته  
فيما رواه نافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال (١٥) : « عَذَّبَتْ  
أمرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فداخَلَتْ في النار ، لا هي أطعمتها  
وسقتها اذهي حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » (١٦) .  
وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال (١٧) :  
« عَذَّبَتْ امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من  
خشاش الأرض » .

وهنا نجد قوة تركيز العبارة وايضاح دلالتها بارزة بنفي ما قد  
يعتقونهم من ملاسبات ، وتأكيد قوة الاصرار ، وابرار القصد والنية حيث  
« أنها » لم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض » .

وفي مجال آخر يقابل ذلك نجد ابرازا للمعنى بنقيضه وتصويرا  
مفصليا مفصلا قوى التأثير لمضامين متقابلة ، فالأحاديث التي توضح

(١٥) صحيح مسلم ٤٧٨/٥ .

(١٦) خشاش الأرض هوامها وحشراتنا .

(١٧) صحيح مسلم ٩٩/٥ .

عاقبة الإساءة والقسوة تقابلها وتؤكد دلالاتها أحاديث توضح عاقبة  
الإحسان والرحمة •

ومن أمثلة ذلك ما يقابل مضمون الحديث السابق ويوضح صورة  
عكسية لما تضمنه •

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (١٨) : « بينما  
رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فشرب ثم خرج ،  
فإذا كلب يلهث يأكل الثرى (١٩) من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ  
هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملا 'خفه' ،  
ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا :  
يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ فقال : فى كل كبد رطبة أجر »  
وفى رواية أخرى (٢٠) : « أن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش ،  
فأخذ خفه فجعل يغرف له به حتى آرواه ، فشكر الله له ، فأدخله الجنة » •

والى جانب هذا التقابل العام بين المضمونين ، فإن هذه الخصائص  
الأسلوبية والبلاغية الدقيقة التى اشتمل عليها التعبير وضوحا وتفصيلا  
وقوة ربط بين الفعل وأثره ، وتتبع دقيقا للأحوال المرتبطة بكل منهما لها  
أثرها الظاهر فى تثبيت المعانى فى النفس مقترنة بصورها الحسية  
المرتبطة بعناصر الحركة والرؤية والانفعال مما له شأنه فى استحضار  
المشهد كاملا كلما استدعاه موقف أو مجال •

وبالانتقال الى غير ذلك من الخصائص التى تتميز بها أساليب  
الأحاديث النبوية الشريفة فى مجال الأسلوب القصصى فضلا عما سبق

(١٨) صحيح مسلم ١٠٠/٥ •

(١٩) الثرى : التراب الندى •

(٢٠) صحيح البخارى ١/٢٧٨ •

دقة تركيب العبارات وتلاؤم أوضاعها وخصائصها مع ما تتضمنه من أفكار ومواقف .

فإذا كان الموقف مستغرقا وقتا طويلا ، ومتضمنا ما يثير الدهشة والتعجب ، ومنطويا على دوافع خفية كالقسوة والاضرار الشديدين ، أنى الأسلوب مصدرًا بالنتيجة أولا ثم أتبع ذلك بايضاح السبب ، كما هو الحال فى الحديث السالف الذكر : « عذبت امرأة فى هرة سجنتها » ثم اتباع ذلك بعناصر تفيد بنوع المعنى أقصاه ومنها فى هذا الحديث « حتى » التى تفيد الغاية ، كما تفيد مرور وقت بين الشروع فى الفعل وبين نهايته مما كان من شأنه أن يتيح فرصة الرجوع أو الندم ، ثم تأكيد دلالة ذلك بذلك انفى المتكرر الذى سلفت الإشارة الى مغزاه .

وإذا كان المشهد سريعا لم يقض صاحبه فى تنفيذه وقتا طويلا أو جهدا كبيرا ، وانما استمد قيمته ورفع شأنه من نية صاحبه ، وعظيم أثره ، وعموم نفعه ، ورد الأسلوب على هيئة مخصوصة يتلزم فيها الفعل ونتيجته أو جزاؤه فى ايجاز سريع قوى الدلالة .

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه من « أن رسول الله ﷺ نال (٢١) : ان شجرة كانت تؤذى المسلمين فجاء رجل فقطعها فدخل الجنة » وفى رواية (٢٢) « لقد رأيت رجلا يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى الناس » . وفى رواية (٢٣) : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له » .

(٢١) صحيح مسلم ٤٧٧/٥ .

(٢٢) نفسه .

(٢٣) نفسه : ٤٧٦ - ٤٧٧ .

— وإذا كان الفعل من الأمور التي تتغافل عنها الإذهان مع  
خطورتها ومن القضايا التي من شأنها أن يُنبّهَ إليها فتنسى أعراضاً  
وتهاونا ، ورد الأسلوب مؤكداً والتصوير مكرراً ، والتشخيص منفصلاً ،  
حاملاً الكثير من درجات التأثير ، ومتضمناً العديد من عناصر الإيضاح  
والتبرير ، والحجة المقنعة المؤيدة بالدليل ، المتضمنة الكثير من التأثير  
والترهيب والزجر والنهي والتأكيد •

ومن هذا القبيل ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه  
قال (٢٤) : « تأتي الأبل على صاحبها على خير ما كانت ، إذا هو لم  
يُعطَ فيها حَقَّهَا ، تطأه بأخفافها ، وتأتي الغنم على صاحبها ، على خير  
ما كانت ، إذا لم يُعطَ فيها حَقَّهَا ، تطأه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، قال :  
ومن حَقَّهَا أن تحلب على الماء ، قال : ولا يأتي أحدكم يوم القيامة  
بشاةٍ يحملها على رقبتة لها يُعَارُ فيقول : يا محمد : فأقول : لا أملك  
لك شيئاً ، قد بلغت ، ولا يأتي ببيعيرٍ يحمله على رقبتة له رغاءٌ ،  
فيقول يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد بلغت » •

فقد تجاوز التعبير هنا تصوير الفعل المتعلق بالحياة الدنيا الى  
تصوير ما يتعلق به من مشاهد غيبية متعلقة بنتائجه في الآخرة ليكون  
أكداً وأشدّ إيضاحاً وتأثيراً ، فلازم ذلك دقة تصوير الصراع الذي يدور  
بين الفعل ونتيجته الدائمة المستمرة وما يرتبط بها من أهوال وآثار  
نفسية ، فتطلب ذلك تأكيداً وتفصيلاً وتثبيتاً للصورة أمام العقل والذهن  
والعين والشعور •

وأُيِّد ذلك بهذا التكرار الموضح لقوة العقاب باستعمال الأفعال  
المضارعة المرتبطة بدلالة الاستمرار والتجدد «تأتي — يعطى — تطأه —



وتتطحه - ولا يأتي - يحملها - لا أمك» وأُيِّد ذلك أيضا بهذه الكلمات الدائمة على الملامة واستمرار المسؤولية عن الفعل كالكلمات «صاحبها - حقها - يحملها - على رقبتة» •

ووردت كذلك كلمات محددة للمعاني تحديدا دقيقا ، فالأبل تكون « على خير ما كانت » وكذلك النعم ، وذلك يحدث نتيجة لفعل محدد وهاتين بشرط « اذا لم يعط فيها حقها » ، واذا كان العقاب لصاحب الأبل فإنه يكون بأن « تطأه بأخفافها » أما النعم فإنها « تطأه بأظلافها وتتطحه بقرونها » •

فالى جانب التحديد يأتي التلازم والتناسب بين الأخفاف والاطلاق والقرون والفعلين اللذين أسندا اليها « تطأه وتتطحه » •

- وربط الحديث النبوي بسياقه ومناسبته من أهم الأسس التي تساعد على استكشاف المزيد من خصائصه الأسلوبية والبلاغية ودلالاته على شخصية النبي ﷺ وتنوع طرق التعبير بتنوع المواقف والقضايا التي يوضحها الحديث الشريف سواء أكانت قضية تشريعية أو اجتماعية أو نفسية أو غير ذلك •

فاذا كان الاطار القصصى الذى ورد الحديث الشريف فى سياقه مرتبطا بالصلاة وأحكامها أتى الأسلوب على هيئة مخصوصة تناسب هذا المقام وما يقتضيه من طرق التعليم والافادة •

ومن هذا القبيل ما رواه معاوية بن الحكم السلمي رضى الله عنه قال (٢٥) : «بينما أنا أصلى مع رسول الله ﷺ اذ عطس رجل من القوم

فقللت يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أميائه  
 ما شأنكم تنظرون اليّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم عليّ أفخاذهم ، فلما  
 رأيتهم يصمتونني ، لكتّيت سكت ، فما صلى رسول الله ﷺ فبابي هو  
 وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما كهرني (٢٦)  
 ولا ضربني ولا شتمني • قال : انّ هذه الصلاة ، لا يصلح فيها شيء  
 من كلام الناس ، انما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما  
 قال رسول الله ﷺ • قلت : يا رسول الله : اني حديث عهد بجاهليته ،  
 وقد جاء الله بالاسلام وان هنا رجالا يأتون الكهّان • قال : فلا تأتهم •  
 قلت : ومنا رجال يتطيرون • قال : ذاك شيء يجذونه في صدورهم فلا  
 يصدّونهم » •

فهنا نجد الأحداث تدور بين مجموعة من الشخصيات التي تؤدي  
 الصلاة ، ثم يطرأ موقف تصدر عنه مجموعة من الانفعالات التي تشغلهم  
 مرتبطة ببعض الملامح الحسية الملازمة لها •

ويدور ذلك كله حول مشهد يتعلق بشخص يعطس أثناء الصلاة  
 وآخر يشتمه والجميع ينكرون ذلك في صمت حيث رموه بأبصارهم ،  
 ولكنه يقول في تعجب « واثكل أميائه ، مالكم تنظرون اليّ » فيشتد  
 انكارهم ويحاولون تنبيهه بالفعل دون الكلام «فجعلوا يضربون بأيديهم  
 عليّ أفخاذهم» •

وهكذا يظل هذا البناء المتلاحم الذي يمثل تمهيدا لحكم مرتقب  
 أو عقاب منتظر ، أو زجر ، أو ارشاد حيث تذهب الأذهان كل مذهب  
 وتتنوع المشاعر والظنون حتى يأتي نص كلام النبي ﷺ موجزا موضحا  
 دالا على شخصية هادئة مقدرة لأهمية الموقف ونفسية المخاطب ، فنجد

(٢٦) ما كهرني : أي ما بهرني •

الحرص على وضع الكلمة النافعة الهادفة موضعها الملائم في اطار أسلوب مؤكد بانّ والقصر وتتابع الجملتين المؤكدين •

فبعد أن أقبل النبي ﷺ على الرجل اقبالا حسنا نلمحه في ذلك الفرح المستشعر من عبارته التي تحمل عظيم التقدير لخلق النبي ﷺ « فبأبى هو وأمى ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه » ، وفي نفيه المؤكد بالقسم « فوالله ما كرهنى ولا ضرينى ولا شتمنى » ، بعد ذلك كله نجد هذه العبارة القوية الموجزة المؤكدة التي تستول بتعظيم شأن الصلاة « ان هذه الصلاة » ثم نفى ما اقتضى الموقف ايضاحه من صفات كان يجهلها المخاطب « لا يصلح فيها شىء من كلام الناس » وهنا نجد النفي عاما لجميع الكلام سوى ما جاء اثباته بعده فى أسلوب القصر « انما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » •

ولعل من أبرز سمات هذا الأسلوب هنا تجاوزه للموقف الخاص الذى انطلق منه الى التجريد والاطلاق حيث عبر عن حكم الكلام فى الصلاة تعبيرا هادفا صالحا لأن يستقل عن ذلك الموقف الذى انطلق منه ليصير قضية وحكما مجردا متعلقا بمفهوم الصلاة عامة ، متجاوزا موقف الرجل وكلامه لينفى كل كلام من كلام سائر الناس مثبتا ما يجب فيها فقط من تسبيح وتكبير وقراءة القرآن اثباتا لقاعدة عامة وحكم مطلق وترسيخا لمبدأ •

ونشهد جانبا آخر من بلاغة النبي ﷺ فى هذا المجال — مجال أداء الصلاة وما يتعلق بها — فى اطار أسلوب قصصى آخر ينقل الينا مشاهدا من حياة الصحابة رضوان الله عليهم مع النبي ﷺ فى مجال الجهاد •

فمن ابن عمر رضى الله عنهما قال (٢٧) : « قال النبي ﷺ لما رجع

من الأحزاب : لا يُصَلِّينَ " أحد " العصر - الا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يُرَدْ منا ذلك ، فذُكِرَ [ ذلك ] للنبي ﷺ ، فلم يُعْتَفَ واحدا منهم » •

وهنا تتضح قوة تركيز العبارة وراثتها وتعدد دلالاتها على هذا النحو الذى شكل منها منطلقا لجميع هذه المواقف ، فقول النبي ﷺ : « لا يصلين أحد العصر الا فى بنى قريظة » اشتمل - الى جانب ما يحمله من التأكيد بنون التوكيد الثقيلة والقصر والتحديد الدقيق للغرض والوقت - اشتمل الى جانب ذلك كله على الكثير من انفعالات الحرص على باوغ الغاية فى أقرب وقت ممكن ، وشكل منطلقا قويا لحرص آخر من جانب الصحابة تجاوبا والتزاما ، ومنطلقا آخر لتأمل الموقف ومتابعته من قبل من يسمع أو يقرأ هذا الحديث الشريف • وبين هذا المنطق وجوهر الأحداث الكامن فى جملة « فأدرك بعضهم العصر فى الطريق » نجد بلوغ الحرص ذروته ، ومحاولة التسابق مع الزمن للوصول فى الوقت المحدد ، ونجد حرصا آخر على أداء الصلاة ، ونجد خلافا مبعثه هذا الحرص ، ثم نجد هذه النهاية الموجزة الدالة التى تصف موقف النبي ﷺ من الخلاف المذكور « فلم يعنف واحدا منهم » •

فالكل مجتهد ، والكل حريص ، والغاية واحدة ، فلا مجال لتعنيف حتى يظل الشعور بالتزام هو الجوهر وأداء الواجب هو الغاية البارزة •

وحين تكون القضية التى يعالجها الحديث النبوى اجتماعية تتعلق بالتكافل والرحمة مما يتطلب حثا عليه وتقديرا لقيمه وبيانا لشأنه وآثره يرد الأسلوب مرتبطا بالمناسبة التى تثبتته فى الأذهان مصورا أهمية الموقف وما يترتب عليه من عواقب وآثار تدعو الى ملازمته والحرص عليه •

فمن جابر بن سَمُرَةَ قال (٢٨) « صلى رسول الله ﷺ على ابن الدحداح ، ثم أتى بِفَرَسٍ عُرِيٍّ فَعَقَلَهُ رَجُلٌ فَرَكَبَهُ فَجَعَلَ يَتَوَقَّصُ (٢٩) به ، ونحن نتبعه نَسْعَى خَلْفَهُ ، قال : فقال رجل من القوم : انَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « كم من عذقٍ مُعَلَّقٍ (٣٠) أو مُدْلَى في الجنَّةِ لابن الدَّحْدَاحِ أو قال مُسْعِبَةُ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ » .

فما كان المنطلق هنا يشكل قضية من أخطر القضايا الاجتماعية وأهمها حيث قيل في سبب هذا الحديث « ان يتيما خاصم أبا لبابة في نخلة فبكى الغلام فقال النبي ﷺ : أعطه إياها ولك بها عذق في الجنة، فقال : لا . فسمع بذلك أبو الدحداح فاشتراها من أبي لبابة بحديقة له ثم قال للنبي ﷺ : ألى بها عذق ان أعطيتها اليتيم ؟ قال : نعم . فقال النبي ﷺ : كم من عذقٍ مُعَلَّقٍ في الجنة لِأَبِي الدَّحْدَاحِ » (٣١) .

لما كان الأمر كذلك فقد ورد هذا الحديث الشريف في مناسبة تلازمه وتستدعيه ، ولئن كان الرجل قد بشر بهذا الأجر حال أدائه العمل الذي عمله فلقد تكرر هذا التبشير في حال آخر يستدعيه حيث صار الرجل الى أجره في الآخرة .

ولئن كان الأصل عذقا واحدا فقد نما ذلك وكثر ليدل على المضاعفة وعدم التحديد تأكيدا لدلالة وتشبيها لعادة . ولقد أتت الألفاظ في إيجازها وقوة دلالتها منتقاة بدقة شديدة « فكم » تدل على الكثرة غير المحددة .

(٢٨) صحيح مسلم : شرح النووي ٢/٦٢٧ ، ٦٢٨ .

(٢٩) يتوقص، أى يتوَّصَّه .

(٣٠) العذق : الفصن من النخلة ( بكسر العين ) أما العنق بفتحها

فهو النخلة بكمالها وليس مرادا هنا .

انظر صحيح مسلم ٢/٦٢٧ - ٦٢٨ .

(٣١) نفسه .

«بعدد ، و « معلق » ترتبط بالجمال الحسى والثبوت والذوام ، وتدعو  
الذهن لينتأمل ، وتحث على النطلع لمثل ذلك الأجر العظيم ، و «فى الجنة»  
تحديد للمكان وتأكيد للنواب ، و « لابن الدخداح أو لأبى الدخداح »  
دالة على قوة ملازمة العمل لصاحبه وسيره التى ما يلزمه من عواقب .  
ولقد تضمن ذلك كله مجتمعا دلالات متعددة تجمع التنبيه والترغيب  
والحث من خلال مثلٍ يُتأسى به وقدوة تحذق .

وبالانتقال الى غير ذلك من القضايا الدقيقة التى تخفى دلالاتها  
وتتطلب لأجل التعبير عنها قدرة خاصة على تخير عناصر التأثير والاقناع  
والمعالجة ما يتعلق بالنفس الانسانية ومشاعرها وأحوالها ، يجد المتأمل  
للحديث النبوى الشريف الكثير من مظاهر الثراء اللغوى والمقدرة المتميزة  
على استخدام الكلمة المصورة للمعنى ، المتضمنة للعلاج القوى النافذ  
بقوة تأثيره الى النفس ومشاعرها فى اطار قصصى قوى الايحاء .

ومما يوضح ذلك ما تضمنته بعض الأحاديث النبوية الشريفة من  
وسائل المعالجة النفسية القوية التى تقوم على مقابلة المشكلة المرتبطة  
بالمعاناة والألم بعلاجها المنفق وحجمها وقوة تأثيرها مما ينشأ عنه تأثير  
مضاد من شأنه أن يمحو أو يخفف من شدة وقعها على النفس .

ومن أمثلة ذلك ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها قالت (٣٢) :  
« كن أزواج النبى ﷺ عنده ، لم يغادر منهن واحدة ، فاقبلت فاطمة  
قمشى ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئا ، فلما رآها رحب  
بها فقال : مرحبا بابنتى ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم سار بها  
فبكت بكاء شديدا ، فلما رأى جزعها سار بها الثانية فضحكت ، فقلت لها :  
خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار ثم أنتا تبكين؟ فلما قام

رسول الله ﷺ سألتها ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قالت ما كنت أفسى  
 على رسول الله ﷺ سره . قالت : فلما توفي رسول الله ﷺ قلت : عزمت  
 عليك بمالى عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ . فقالت  
 أما الآن فنعم . أما حين سارنى فى المرة الأولى فأخبرنى ان جبريل  
 كان يعارضه القرآن فى كل سنة مرة أو مرتين وأنه عارضه الآن مرتين  
 وانى لا أرى الأجل قد اقترب فانتقى الله واصبرى فإنه نعم السلف  
 أنا لك قالت : فبكيت بكائى الذى رأيت فلما رأى جزعى سارنى  
 الثانية فقال يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة  
 نساء هذه الأمة قالت : فضحكت ضحكى الذى رأيت » •

فهنا تتعدد عناصر التأثير النفسى وتتقابل فى تضاد واضح وفى  
 حيز زمنى محدود تتلاقى فيه مشاعر الحزن والفرح ، وما ارتبط بهما من  
 بكاء وضحك ، وما ترتب عليهما فيما بعد من غموض ووضوح •

ولقد ساعد هذا الاطار القصصى الدقيق على بيان الكثير من  
 الجوانب المتعلقة بالشخصية المحورية هنا وصلتها بالنبى ﷺ وبيان مدى  
 ما بينهما من ترابط ، ففاطمة رضى الله عنها « ما تخطىء مشيتها من مشية  
 رسول الله ﷺ شيئا » وهذا جانب حسى شكلى أما الروابط الشعورية  
 التى تربطها بأبيها ﷺ فلها أكثر من مظهر فى هذا الحديث الشريف  
 يتضح فى الكثير من المواقف ، مثل : « فلما رآها رحب بها ، فقال :  
 مرحبا بابنتى » وكذلك : « ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله » ومنها  
 فضلا عن ذلك ايثارها بالسرار دون سائر الحاضرات من نساءه ﷺ •

والى جانب ذلك نجد الأسلوب بشكل عام متضمنا موقفين متدينين  
 فى اطار واحد ، أحدهما فى حياة النبى ﷺ ، والآخر بعد وفاته ﷺ ،  
 وفى الأول كان الغموض وما يكتنفه من مشاعر التطلع الى كسفه  
 وبيانه • وفى الثانى كان ذلك الكشف للغموض وبيان ما تضمنه الموقف  
 بالأول من دوافع البكاء والضحك المتقابلين •

ولقد لاءمت الألفاظ الموقف بجميع جزئياته ولازمته ملازمة تامة  
تعبيرا وتأثيرا ومعالجة ، فاذا كانت فاطمة رضى الله عنها قد سمعت ما  
أبكاها بكاء شديدا فقد تبع ذلك سماعها لما يمحو هذا الأثر النفسى  
الشديد أو يخفف من وقعه مما تبعه تغير حالها من الحزن الشديد الى  
الفرح العظيم ومن البكاء الى الضحك ، واذا كان ما أحزنها هو علمها  
يقرب موت أبيها عليه السلام فقد لازم ذلك ورافقه ما يعين على تحمله والتقوى  
عليه « فاتقى الله واصبرى » •

واذا كان الذى بشرت به هو مكانتها فى الجنة فقد لازم ذلك  
ورافقه ما يدل عليه ويرتبط به من كلمات الرضا والتميز على سائر  
النساء فى هذه العبارة « أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين ، أو  
سيدة نساء هذه الأمة » •

وبالانتقال الى مظهر آخر من مظاهر أسلوب المعالجة النفسية وقوة  
آثارها وما يرتبط بذلك من خصائص لغوية وبلاغية ، نجد مظهرا متميزا  
يقوم على الربط القوى بين الأمور المرتبطة بالأحداث الواقعية المؤثرة  
على النفس ونتائجها العيية المعالجة لها ، وايضاح هذه النتائج بوضعها  
فى اطار مشهد حسى مؤثر يتضمن الكثير من عناصر الحركة والانفعال  
وانتأثير الذى تقوم اللغة من خلاله بدور التصوير الحسى الدقيق للمشهد  
فى اطار يثبتته فى الذهن ويعالج به النفس علاجا جذريا قويا •

ومما يوضح ذلك ما روى عن أبى حسان قال (٣٣) قلت لأبى  
هريرة : انه قد مات لى ابنان فما أنت محدثى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث  
تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : قال : نعم • صغارهم دعاميص (٣٤)

(٣٣) صحيح مسلم ٤٨٨/٥

(٣٤) دعاميص واحدها دعموص بضم الدال أى صغار أهلها وأصل  
الدعموص دويبة تكون فى الماء لا تفارقه أى أن هذا الصغير فى الجنة  
لا يفارقه •



الجنة يتلقى أحدهم أباه أو قال أبويه ف يأخذ بثوبه أو قال بيده كما أخذ بصنيفة (٣٥) ثوبك هذا فلا يتناهى ، أو قال فلا ينتهى حتى 'يدخله' الله وأباه الجنة » .

وفى غير ذلك من أساليب الحديث النبوى الشريف نجد تجسيدا قصصيا هادفا للمعانى الخفية المرتبطة بمشاعر النفس ودوافعها وما ترتبط به من أفعال حسية وأعمال 'خلقية' وما يترتب على جميع ذلك من آثار لا يحيط بها الوصف لارتباطها بأمر غيبية .

ومما يوضح ذلك ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (٣٦) : « أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته (٣٧) ، ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية ، قال : هل لك من نعمة تربتها ؟ قال : لا . غير أنى أحببته فى الله عز وجل ، قال : فانى رسول الله اليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

ويحمل هذا الأسلوب القصصى - الى جانب ما سلف ذكره - الكثير من عناصر التعبير اللغوى الدقيق الدال ، فلفظ الرجل قد ورد هنا نكرة مما يعين على تجريد الفكرة وعمومها ، وما فعله من الزيارة كان « فى قرية أخرى » دفعا لتوهم غير ذلك ودلالة على قوة الرغبة وبذل الجهد فى سبيلها مع عدم تعلقها بمنفعة خاصة .

ونظرا لسمو الفعل وقيمته فقد « أرصد الله له على مدرجته ملكا » . ولقد ساعد على بيان جميع هذه الدلالات ذلك الحوار الذى جرى بين

(٣٥) صفة ثوبك بفتح الصاد وكسر النون وهو طرفه .

(٣٦) صحيح مسلم ٤٣١/٥ .

(٣٧) المدرجة : الطريق .

الملك والرجل ثم انتهى بهذه الخاتمة التي تحمل معنى التناظر بين الفعل وعاقبته .

ولقد تميز هذا السياق الهادف - فضلا عن ذلك كله - بوضع مثل شخص للموقف الجرد لا تنهض الألفاظ المباشرة المؤدية معناه بما يقوم به من وظائف التأثير والتخييل والانفعال مما يترتب عليه جعل هذه الصورة المميزة نموذجاً واضحاً من شأنه أن يحتذى .

وبالانتقال - أيضا - الى غير ذلك من الخصائص والسمات البارزة في الأسلوب القصصي للحديث النبوي الشريف نجد ايضاحه المركز لمجموعات من الانفعالات المتضادة والمتقابلة من تصوير بعض المواقف المرتبطة بالكثير من الملامح والهيئات والانفعالات التي تظل تتطور عبر الأحداث المشخصة لها لتمنحنا في النهاية خلاصة قوية الدلالة على جوانب من صفات النبي ﷺ وخلقه أو كيفية معالجته للأمور .

ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه قال (٣٨) : « كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجرانى غليظ الحاشية فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة نظرت الى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد آثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال يا محمد مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت اليه رسول الله ﷺ فضحك ، ثم أمر له بعطاء » .

فهنا نجد مشهداً سريعاً مركزاً يتضمنه الكثير من الأفعال والانفعالات واللامح المرتبطة بذلك .

ونجد التناقض البارز هو السمة الظاهرة هنا ، تناقض بين موقفين

وشخصيتين وانفعالين ، فهذا أعرابي فظ غليظ جاف شديد الغضب والاساءة تتجاوز اساءته للنبي ﷺ القول الى الفعل حتى يؤثر في صفحة عنقه ﷺ وحتى يبلغ التأثير هذا المبلغ الذى يصوره أنس رضى الله عنه .

وهذا موقف على التقيض تماما من ذلك يوضح ما يتصف به النبي ﷺ من سماحة الخلق ولين الجانب والارتفاع عن مستوى الاستجابة للمؤثر السىء بما يناسبه ، ثم اتباع ذلك كله بالاحسان فى مقابلة الاساءة .

ومن أنماط التقابل بين المعانى التى يتضمنها الحديث الشريف الواحد — غير ما سبق — ما يتخذ فيه هذا التقابل مظهرا آخر من المظاهر التى تنشأ عن تصوير الآثار النفسية المتقابلة الناشئة عن منطلقات متضادة وتجسيد هذه الآثار فى شكل أفعال وملامح معبرة عن أسبابها .

ومن أمثلة ذلك ما روى عن عبد الرحمن بن زيد أن محمد بن سعد بن أبى وقاص أخبره أن أباه سعدا قال (٣٩) : استأذن عمر على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش 'يكلمنه وَيَسْتَكْتَرْنَهُ' عالية أصواتهن فلما استأذن 'عمر' قمن 'بيتدرن الحجاب فأذن له رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يضحك . فقال عمر : أضحك الله 'سنك يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب ، قال عمر : هانت يا رسول الله أحق أن يهبن به ثم قال عمر : أى عجبوا أن أنفسهن آتهبننى ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ قلن : نعم أنت أعظم

وَأَفْظَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ • قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ • مَا لَتَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فِجَاءً (٤٠) إِلَّا سَلَكَ فِجَاً غَيْرَ فِجْكَ » •

ويُتَّخَذُ التَّنَاقُلُ بَيْنَ الْمَعَانِي مَظْهَرًا آخَرَ مِنْ مَظَاهِرِ التَّعْبِيرِ الْقَصْصِيِّ الْمَهَادِفِ الَّتِي يُوَضِّحُ بَعْضُ مَوَاقِفِ مِنَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ بَيْنَ بَعْضِ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَيْرِهِمْ كَالْيَهُودِ، مِمَّا يَبْلُغُ مَعَهُ الصَّرَاحُ أَشَدَّهُ وَالتَّنَاقُلُ أَقْصَاهُ ، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ وَضْعَ نَهَايَةِ تَجْرِيدِيَّةٍ تَتَجَاوَزُ الْمَوْقِفَ كُلَّهُ وَتَسْمُو لِنُحُوقِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ ، لِتَوْقِفِ الْأَذْهَانَ لَدَى مَا يَحْسُنُ الْإِنْشِغَالَ بِهِ مِنْ الْقَضَايَا وَمَهَامِ الْأُمُورِ وَاضْعَةَ صُورَةٍ غَيْبِيَّةٍ هَامَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِالْآخِرَةِ وَأَهْوَالِهَا •

وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ (٤١) : « اسْتَبَمَ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَرَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ الْمُسْلِمُ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَقَالَ الْيَهُودِيُّ : وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، قَالَ فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمَرَ الْمُسْلِمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَا تَخْيِرُونِي عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْنَعُونَ »

(٤٠) الفج الطريق الواسع ، ويطلق أيضا على المكان المنخرق بين الجبلين • وهذا الحديث محمول على ظاهره : أن الشيطان متى رأى عمر سالكا فيجا هرب هيبه من عمر ، وفارق ذلك الفج ، وذهب في فج آخر لشدة خوفه من بأس عمر أن يفعل فيه شيئا • قال القاضي : ويحتمل أنه ضرب مثلا لبعث الشيطان واغوائه منه وأن عمر في جميع أمور سالك طريق السداد خلاف ما يأمر به الشيطان ، والصحيح الاول ( انظر صحيح مسلم بشرح النووي ٢٥٧/٥ - ٢٥٨ ) •

(٤١) صحيح مسلم ٥ : ٢٢٦ •

تأكون أول من يُفنيق ، فاذا موسى باطش (٤٢) بجانب العرش، فلا أدري  
 أكان فيمن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله » •

وبالانتقال الى غير ذلك من خصائص هذا الأسلوب القصصى نجد  
 مجالاً يقوم على الوصف التفصيلى الدقيق الهادف الى وضع الحلول  
 الجذرية لبعض ما سيتعرض له الناس من مشكلات معقدة مرتبطة  
 بالمستقبل وأحداثه •

ومن أبرز أمثلة هذا الجانب ما ورد فى وصف فتنة المسيح الدجال  
 وشور هذه الفتنة وصفاً دقيقاً محددًا بالكلمة والصورة لما يرتبط به  
 من أمور تحتاج الى بيان واستيعاب ليتمكن السامع بذلك من تجنب  
 الوقوع فيها •

ذلك أن الأسلوب هنا قد اشتمل على جميع جوانب هذه القصة  
 المستقبلية الواقعية توضيحاً وتحديداً ، سواء فى ذلك ما يتعلق بالمسيح  
 الدجال وبعض ملامحه التى يعرف بها ، وما يتعلق بطرق الوقاية من  
 شره ، ثم المكان الذى يخرج منه ، ومدة لبثه فى الأرض ، وهول خطره  
 وبشاعته ، وبعض مظاهر هذا الخطر ثم ما يكون من نهايته بالقتل على  
 يد المسيح بن مريم عليه السلام •

ومن ذلك ما ورد فى صحيح مسلم من قول النبى ﷺ (٤٣) فيه :  
 «..... عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم  
 فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، انه خارج " خلة بين الشام والعراق  
 تعات يميناً وشمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا ، قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه

(٤٢) باطش بالعرش أى متعلق به بقوة والبطش الاخذ القوى

الشديد •

(٤٣) صحيح مسلم ٧٨٦/٥ - ٧٨٧

في الأرض ؟ قال أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كسهر ، ويوم كجمعه  
وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا  
فيه صلاة يوم ؟ قال : لا • اقدروا له قدره • قلنا : يا رسول الله وما  
اسراعه في الأرض ؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم  
فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض  
فتنبث فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغهُ ضروعا ،  
وأمدّه خواصراً ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف  
عنهم فيصبحون محملين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة  
فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل ، ثم يدعو  
رجلا مملئاً شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزأين رمية الغرض  
ثم يدعوهم فيقبل ويتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح  
ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين (٤٤)  
واضعا كفيه على أجنحة ماكين ••• فيقتله ••• » •

وهكذا يستطيع التأمل لهذا الأسلوب أن يدرك هذه القدرة على  
تتبع الصفات والأفعال والأزمان والصور الحسية المرتبطة بجميع ذلك ،  
وهول الفتنة وحجمها ، وتوضيح الأماكن التي تخرج منها وتسماتها ،  
وتنتهي عندها ، وإلى جانب ذلك كله فان من أهم خصائص هذا الأسلوب ما  
اشتمل عليه من عناصر التنبيه والتحذير كقوله ﷺ : « يا عباد الله فاثبتوا » ،  
و « اقدروا له قدره » ، ووضع المخرج من ذلك كله قبل تفصيل الوصف  
« فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف » وتوضيح عدد أيام  
لبثه في الأرض بهذا الأسلوب الدقيق المحدد « أربعون يوماً ، يوم  
كسنة ، ويوم كسهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ••• » •

ومن أرحب مجالات الحديث النبوي الشريف وأثرها تضمننا لخصائص  
الأسلوب القصصي - فضلا عما سبق - ما يتعلق بكتب النبي ﷺ إلى  
بعض الملوك والحكام يدعوهم فيها إلى الاسلام ككتابه ﷺ إلى هرقل  
عظيم الروم .

وقد روى مسلم في صحيحة (٤٥) الكثير من التفاصيل التي  
تتعلق بهذا الكتاب منذ حمل إلى هرقل وهو بالشام ، وما ارتبط بذلك من  
موقف هرقل منه وما دار من حوار بينه وبين من كان حاضرا عنده من  
المسلمين حينئذ إلى أن دعا بكتاب رسول الله ﷺ وقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم  
الروم ، سلام ، على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية  
الاسلام ، أسلم ، تسلم ، وأسلم ، يؤتيك الله أجرك مرتين ، وإن  
توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة  
سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا  
بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وهنا نتضح الكثير من جوانب دقة النبي ﷺ في تعبيره واصابته  
غرضه بأيسر سبيل وأقواه ، وقدرته على مخاطبة من لا يعلم بما يعلمه  
في استيعاب تام أهم أسس القضية التي يريد اقناعه بها .

(٤٥) صحيح مسلم : ٣٩١/٤ - ٣٩٨ .

(٤٦) الأريسيين الفلاحون والزارعون ومعناه أن عليك إثم رعاياك  
الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم  
الأغلب ، ولأنهم أسرع انقيادا فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا وهذا  
القول هو الصحيح ( انظر ٣٩٧ ) .

فقد حدد • ﷺ • فى بداية رسالته — بعد ذكر اسم الله — المرسل ﷺ والمرسل اليه متبعا كليهما بصفته فالأول رسول الله ﷺ والثانى عظيم الروم ، ثم استعان بكلام الله تعالى فى القاء السلام على من اتبع الهدى بثقل عام لا على المخاطب الذى لم يكن يعرف موقفه بعد من هذه الدعوة ، ثم أوجز — ﷺ — فى ربطه بين الأمر وجوابه ( أسلم تسلم ) ثم فى ربطه بين العمل وأجره ( وأسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين ) ، وهو يؤكد الأول ، ثم قابل بين ذلك وبين ما تلاه ليكون المعنى شاملا لجميع ما يحتمل من ردود الفعل لدى المخاطب ثم ختم بأية كريمة تؤكد جميع ما سبق وتوضحه وتفصله •

ولقد وضح شارح صحيح مسلم — رحمه الله تعالى — بعض جوانب دقة هذا الأسلوب وميزاته كما فى مثل قوله : « عظيم الروم » حيث : « لم يقل : الى هرقل فقط ، بل أتى بنوع من الملاحظة فقال : عظيم الروم ، أى الذى يعظمونه ويقدمونه ، وقد أمر الله تعالى بالانة القول لمن يدعى الى الاسلام فقال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وقال تعالى : « فقولوا له قولنا » وغير ذلك » (٤٧) •

كما لاحظ ما يدل عليه هذا الأسلوب من « البلاغة والايجاز وتحرى الألفاظ الجزلة فى المكتبة [ موضحا ذلك بقوله ] : فان قوله ( أسلم تسلم ) فى نهاية من الاختصار ، وغاية من الايجاز والبلاغة ، وجمع المعانى مع ما فيه من بديع التجنيس وشموله لسلامته من خزي الدنيا بالحرب والسبى والقتل ، وأخذ الديار والأموال ، ومن عذاب الآخرة » (٤٨) •

ومن المجالات الأخرى المتضمنة الكثير من خصائص هذا الأسلوب القصصى ما يتعلق بجهاد النبى ﷺ فى غزواته وفتوحاته مثل غزوة

• (٤٧) صحيح مسلم ٣٩٦/٤

• (٤٨) نفسه



حنين ، والطائف ، وبدر والأحزاب ، وأحد ، وخيبر ، وذى قرد ، وذات الرقاع ، وفتح مكة وما يرتبط بجميع ذلك من عهود ومواثيق (٤٩)

وفى هذه المجالات نجد اشتمال الأساليب على جميع الدقائق المتصلة بالأحداث والشخصيات والمجاورات والأماكن وما يرتبط بجميع ذلك من انفعالات ومواقف تضعنا أمام المشاهد الكاملة المرتبطة بكل موقف منها فى وضوح وتفصيل تامين .

ومن أمثلة ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال (٥٠) :  
« لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ الى المشركين وهم آلف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربّه اللهم انجز لى ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض ، فمزال يهتف بربّه مادّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : « اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنسى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » فأمدّه الله بالملائكة ، قال أبو زميل : فحدثنى ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم (٥١) فنظر الى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر اليه فاذا هو قد خطم أنفه وثلق

(٤٩) انظر أحاديث هذا الباب فى صحيح مسلم ٤/٣٧٣ - ٤٧١ .

(٥٠) صحيح مسلم ٤/٣٧٤ - ٣٧٧ .

(٥١) حيزوم هو اسم فرس الملك .

وجيهاً كضربة السيوف فاخضر ذلك أجمع - فجاء الأنصاري  
فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة  
فقتلوا يومئذ سبعين واسروا سبعين • قال أبو زميل: قال ابن عباس:  
فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ما ترون في  
هؤلاء الأسارى، فقال أبو بكر يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة  
أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن  
يهديهم للإسلام فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت:  
لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولتسى أرى أن تمكنا  
فنضرب أعناقهم فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه وتمكني  
من فلان « نسيباً لعمر » فأضرب عنقه فان هؤلاء أئمة الكفر  
وصناديدها فهو رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ماقلت،  
فلما كان من العد جئت فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعد بين بيكان،  
قلت: يا رسول الله: أخبرني من أي شيء تبكى أنت وصاحبك فان  
وجدت بكاء بكيت وان لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما؟ فقال  
رسول الله ﷺ: أبكى للذي عرض على أصحابك من أخذهم  
الفيداء، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة « شجرة  
قريبة من نبي الله ﷺ » وأنزل الله عز وجل: « ما كان لنبي أن يكون  
له أسرى حتى يثخن في الأرض ... الى قوله ... فكلوا مما  
غنمتم حلالاً طيباً » فأحل الله الغنمة لهم •

فهنأ يجد المتأمل مشهداً واقعياً كاملاً أحاط فيه هذا الأسلوب  
بجميع جزئيات الموقف احاطة مفصلة واضعاً أمامه هذه الشخصيات  
الآشيرة المتنوعة وما يتعلق بكل منها من أفعال وصفات وهيئات، وواضعا  
كذلك منطلقاً واضحاً ومحدداً لجميع الأحداث، فاليوم « يوم بدر »  
ورسول الله ﷺ قد « نظر » الى « المشركين » وهم « ألف وأصحابه

ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا» وهذا التحديد العددي يعد منطلقا هاما  
من المنطلقات التي ترتب عليها دعاء النبي ﷺ .

وهذا موقف النبي ﷺ واضحا مفصلا بالكلمة والهيئة فقد استقبل  
« القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه » ، وهذا هو نص الدعاء نسمعه  
مكررا مؤكدا تأكيدا شديدا ناقلا اليها صدق الانفعال وقوة الموقف  
وأهميته .

وهذا هو أبو بكر رضى الله عنه نسمي ونرى ما يقوم به من حمل  
رداء النبي ﷺ والقائه على منكبيه ، ثم مكان وقوفه من النبي ﷺ ، ثم  
نص ما قاله في هذا الموقف تطمينا وتهدئة للنبي ﷺ .

وهذه هي الآية الكريمة التي تتضمن استجابة الله سبحانه وتعالى والاغاثه  
من ذلك الموقف العصيب، وهؤلاء هم الملائكة يقاتلون مع المؤمنين حتى يرى  
أثر ضرب أحدهم في أحد المشركين « فاذا هو قد حطيم انفه وشق  
وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك جمع » ، وهنا توضيح تام لفعل وأثره  
شكلا ولونا ، ثم توضيح آخر يؤكد ذلك من قول النبي ﷺ « ذلك من  
مدد السماء الثالثة » ، ثم تبع ذلك كله تحديد دقيق لعدد القتلى  
والأسرى ولوقف النبي ﷺ في حوار مع عمر وأبي بكر رضى الله  
عنهما بشأن هؤلاء الأسرى ، ثم اتباع ذلك كله بأمر فاصل ينزل به  
القرآن الكريم ليكون بيانا واضحا لوضع الأسرى والغنائم .

وهكذا اشتمل الأسلوب على هذا التفصيل الذي تضمن كثيرا من  
التركيز والقوة والتحديد ودقة التعبير وايضاح الجزئيات بتفصيلاتها من  
ملامح وهيئات وحركات وأصوات وانفعالات فجاء متكاملا على هذا  
النحو الذي يمنحنا مضمونا واقعيا كاملا لموقف من أهم المواقف  
التاريخية في حياة الاسلام .

وهكذا يمكن القول بأن الأسلوب القصصى فى الحديث النبوى الشريف أسلوب متعدد المجالات متنوع الخصائص والسمات بحيث يعد من أكثر المجالات توضيحا لمواقف النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، وأغنى هذه المجالات بيانا لأنماط التعبير النبوى وخصائصه وغاياته ، وقدرته على التعبير الملائم للموقف مهما تعددت المواقف واختلفت الأحوال ، وقدرته كذلك على تجريد المواقف والأحداث حتى يظل الأسلوب - فى كل حال - مرتبطا بعناصر التأثير والايضاح والمعالجة فى كل عصر ومجتمع وموقف مهما اختلفت الأزمان والأحوال .

هذا فضلا عن كونه يحمل إلينا ثروة تاريخية نفيسة بما يتضمنه من مواقف وأحداث صادقة تؤخذ منها العظة البالغة والأسس التعليمية الهادفة فى جميع المجالات .

## المصادر والمراجع

- ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - نهضة مصر - القاهرة ١٩٥٩ .
- ابن أبي الاصبغ : تحرير التحجير - المجلس الاعلى للشئون الاسلامية - القاهرة ١٣٨٣ هـ .
- الاصبهاني : أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان .
- كتاب الامثال في الحديث النبوي الشريف - تحقيق عبد العلي عبد الحميد ١٤٠٢ هـ .
- أمين الخولي : فن القول - مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٤٧ .
- الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي .
- سنن الترمذي وهو الجامع الصحيح - تحقيق وتصحيح عبد الوهاب عبد اللطيف دار الفكر ط ٣ - ١٣٩٨ - ١٩٧٨ .
- الجاحظ : البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - الخانجي - القاهرة ١٩٦٨ - الحيوان - تحقيق عبد السلام هارون - الخانجي - القاهرة - ١٩٤٨ .
- الجرجاني : عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة - تعليق السيد محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت لبنان - ١٣٩٨ - ١٩٧٨ - دلائل الاعجاز - مكتبة القاهرة - ١٩٦٦ .
- الجرجاني : علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم مطبعة عيسى الحلبي - القاهرة - د ت .
- ابن جنى : الخصائص - دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٥٣ .
- الدمشقي : ابن حمزة الحسيني الحنفي الدمشقي .
- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف - تحقيق الحسن عبد المجيد هاشم .
- الزبيدي : ابن الربيع الزبيدي : تيسير الوصول - الحلبي - ١٣٥٣ هـ .

ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة - تحقيق عبد المتعال الصعيدي -  
مكتبة صبيح القاهرة - ١٩٦٩ م .

عبد المتعال الصعيدي : بغية الايضاح لتلخيص المفتاح في علوم  
البلاغة - مكتبة الآداب .

العسقلاني : الامام الحافظ احمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح  
الباري بشرح صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري .  
مكتبة الرياض الحديثة ١٣٧٩ هـ .

- العسكري : أبو هلال : كتاب الصناعتين - عيسى الحلبي - القاهرة  
- ١٩٥٢ م .

- العلوي : يحيى بن حمزة : الطراز - مطبعة المقتطف - القاهرة -  
١٩١٤ م .

- محمد ناصر الدين الالباني : مختصر صحيح البخاري - المكتب  
الاسلامي ط ٥ سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

- مسلم : الامام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري  
أبو الحسين حافظ : صحيح مسلم - شرح النووي الشافعي ابو زكريا  
محيي الدين - الشعب القاهرة . د . ت .

النووي : شرح رياض الصالحين للامام النووي - شرح وتحقيق  
الحسيني عبد المجيد هاشم - دار الكتب الحديثة - مطبعة المدني -  
القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

## الفهرس

٣ مقدمة

٦ التمهيد

### الفصل الأول

٢٢ من مقومات بلاغة النبي ﷺ • ومصادرها وخصائصها العامة

### الفصل الثاني

٤٤ من خصائص الألفاظ في أسلوب الحديث النبوي الشريف

٤٤ أولا : بين الألفاظ والموقف في أسلوب الحديث النبوي الشريف

ثانيا : دور الألفاظ في بلاغة النبي ﷺ بين المجالين اللغوي

٥٣ العام والديني الخاص

### الفصل الثالث

٦٩ الأسلوب والموقف في بلاغة النبي ﷺ

### الفصل الرابع

١١٧ من الخصائص الصوتية والدلالية لألفاظ الحديث النبوي الشريف

### الفصل الخامس

١٧٠ أنماط الأساليب البيانية في الحديث النبوي الشريف وخصائصها

### الفصل السادس

١٨٣ من الخصائص اللغوية للأسلوب البياني في الحديث النبوي الشريف

- ١٨٣ أولاً : وظائف الأسلوب البياني بين الوسيلة والغاية  
١٩٦ ثانياً : تنوع الأساليب البيانية وترابطها فى الموقف الواحد

### الفصل السابع

- ٢٠٧ تقابل عناصر الأسلوب البيانى والتقاؤها

### الفصل الثامن

- ٢٢٠ بناء الصور البيانية وتكامل عناصرها

### الفصل التاسع

- ٢٢٧ الصورة البيانية فى الحديث النبوى الشريف بين المجالين  
الفكرى المجرد والدلالى المحدد

### الفصل العاشر

- ٢٥٨ من الخصائص البلاغية واللغوية للأسلوب القصصى فى أسلوب  
الحديث النبوى الشريف

- ٣٠١ المراجع



## تصويب الأخطاء.

الصواب	الخطأ	ص	س	الصواب	الخطأ	ص	س
البنية	البنية	١٢	١٨٠	لعله	الهامش لعله	٦٧	
منها	منهما	٨	١٨٢	واحكام	واحكام للتعبير	١٣	١٠٩
فيلقون	فيلقون	١٦	١٨٨	التعبير			
خيله	خيلة	٢٢	١٩٦	ما يجىء	ما يجىء	٢	١٣٣
وحرركاتها	وحرركاتها	٥	٢٠٠	التقى	التقى	١٥	١٤١
بكلمة «مثل»	بكلمة مثل	١٥	٢٠٨	نكتة	نكتة	١	١٧٢
بالحمى	بالحمى	٥	٢٢٩	الجيش	الجيش	١٠	١٧٨
ينطلق	ينطق	٤	٢٧٥	كلتا	كلا	٢٢	١٧٩
أجمع	جمع	١٣	٢٩٩	اختلاف	اختلافه	٧	١٨٠